شغل صهاينة

رواية

عمرو عيسى

الرواية حائزة على المركز الثاني
بالجائزة المركزية التابعة للهيئة
العامة لقصور الثقافة عام
٢٠١٥/٢٠١٦م دورة فؤاد قنديل

شغل صهاينة

رواية

تأليف: عمرو عيسى

مراجعة: عادل أبو الأنوار

تصميم الغلاف: أحمد الملواني

الإخراج الفني: محمود معروف

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٠٣٨٨

الترقيم الدوليّ: 978 - 977 - 6582 - 11 - 8

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

Tel:.1066736765

.1227996423

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار بنت الزيات

المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم /49351

الجيزة دائري – نزلة شارع القومية العربية – برج النور – الدور ٨

كلمة الناشر

✍ الحلم مثل الحب، لا يمكن أن يفهمه إلا من مرَّ به وعاشه، فالطموح معقودٌ لديك في الوتين، إن وجدته وعثرت عليه.. تمسك به ولا تترك أطرافه، فالطرف عادةً هو ما سيصل بك إلى طريق إنقاذك من الجهل والاندثار. فالقراءة ارتقاء، والحروف عطاء، ولكي تجعل لك قيمة.. لا تنحنِ رغم أي ظروف، ولا تطأطئ رأسك لليأس، واغزل من الإصرار الأمل في الله قلائد من لؤلؤ، تتزين بها على مدى خطواتك.

د/ شاهندة الزيات

- ١ -

الأمر لا يتعلق دائماً بما نود أن نكون عليه.. !
أنا مثلا لو كان لابد أن اختار لفضلت أن تمضى الأمور على حالتها الأولى.. هناك في "بقطارس" - تلك القرية الصغيرة التابعة لمركز أجا بمحافظة الدقهلية - حيث كنا - أنا والصبية - نجلس في ساعات العصاري تحت قدمي والدي الشيخ يونس إمام الجامع الكبير ليحفظنا ما يتيسر لنا حفظه من الكتاب الحكيم.
وقتها كنت مراهقاً، وككل المراهقين أحب خوض أكثر المغامرات غرابةً وشذوذاً، حتى إذا ما اجتمعت بالصبية - كعادتنا - عند المسقى القديمة، يروي كل منا الحكايات التي تؤكد تفوقه على الآخرين، يومها قلت إنني اقتحمت صفاء.. اقتحمتها خلف زريبة دارهم ساعة الفجر.. كنت مارا بجوارها في طريقي إلى دوار سيدي عبد الرحمن، وطلبت مني أن أحطت عن رأسها قصعة العلف، واحتكت بي أكثر من مرة، حتى سألتها بطريقة مباشرة إن كانت تريدني.. لم تسبل جفنيها حياءً كما توقعت، بل تحسست إرادتي.. فرفعت جلبابي وبركت فوقها على الفور.. أحدثهم بالتفاصيل عن ما دار بيني وبينها.. تماماً كما تمنيت.. لكنهم لا يصدقون !. محمود بن الحاج عزب هو أكثرنا جرأة مع النساء، وقد فعلها من قبل مع أم ممدوح التي لا تعاشر رجال قريتنا، ولها في ذلك حكمة.. إنهم لا يدفعون إلا القليل، بينما الوجهاء في المنصورة يدفعون بسخاء.. ورغم ذلك فقد ركبها محمود بدون مقابل.. فعلت ذلك فقط لأن فحولته أعجبتها.. صدقوا محمود حين حكى لهم هذا، لكنهم لم يصدقوني.. !
الأوساخ.
لو كانوا صدقوا حكايتي لما كنت سأضطر لأن أثبت صحتها..

ما حدث قد مر عليه أكثر من ثلاثين عاماً.. لكنني مازلت أذكره كأنه وقع البارحة. كانت ليلة مقمرة، وكانت - صفاء - تتثنى بعودها الممشوق بين عيدان القصب، وحده نقيق الضفادع يقطع سكون الليل.. اتقدت شهوتي. محمود قال إنها محترمة.. يقول إنها ليست كالأخريات.. كانت تغني، وتتلوى بغنج كأم ممدوح عندما تعاير زوجها الأعرج بعجزه أمام الناس.. أهذه ليست كالأخريات؟!.. هي ستهم ولا شك.

- يا دين النبي.

قلتها صائحاً وأنا أعض على طرف جلبابي، فالتفتت نحوي وقد أطلقت صرخة عفوية.. طمأنتها.. لم تطمئن.. احتويتها، فحرنت.. كانت نافرة كغزالة برية وقعت بين أنياب أسد جائع.. أفلتت نفسها، وهرولت.. وأمسكت بها مرة أخرى. خارت قواها، فأخذت بكارتها...

وكأي مراهق غشيم معدوم الخبرة مع النساء تركت فيها شيئاً مني.

كنت أود أن أتفاخر بفعلتي بين الصبية في اليوم التالي، لكن شعوري بالخوف تجاوز كل حد.. خوف من نفسي ومن الجميع. خوف أخذ يتفاقم حتى نال من أعصابي وقدرتي على التواصل مع الآخرين، إلا أن الطبيب قال إنني سليم بدنياً، وأرجع الأمر لتعب نفسي، وأعتقد أنه ندم على تصريحه هذا، لأنه وجد صعوبة بالغة في إقناعهم بأن ما قاله لا يعني (الجنون) على الإطلاق، وفقدت كل قدرة على حساب الزمن أمام تفاصيل الحدث التي لم تفارقني لحظة واحدة.. عرقها.. الدم الذي نزل منها.. بكائها المكتوم.. رعشة جسدها.. لطم خديها.. دعائها عليّ.. وجهنم التي أعدت للمجرمين.

هذا كل ما كنت أفكر فيه قبل أن أسمع وقع خطواته وهو يدخل الدار.

- سمعتي بالحديت اللي داير في البلد يا أم الشحات؟

قالها أبي وهو يضع عمامته الأزهرية على المنضدة بجوار تلك الجوزة النحاسية المزخرفة التي اشتراها من خان الخليلي حين كان في زيارة لمسجد

سيدنا الحسين قبل خمس سنوات.. وأمي التي كانت تجلس القرفصاء أمام قصعة الخبيز اكتفت بهز كتفيها دون اكتراث وهي تضرب العجين بساعديها.. فالمرأة العجوز لم تكن تبالي بأحاديث الناس، وفي أغلب الأوقات لم تكن تشغل بالها بأفراحهم أو مصائبهم.. وأردف بإلحاح:

- بيقولوا البت صفاء بت أبو سعد الله حبلى في التالت.

- يا ستار يا رب !

نجح اللئيم في جذب اهتمامها كما نجح في الفتك بأعصابي دون أن يدرك أنني أتنصت على حديثه من خلف درابزين الطابق العلوي.. خارت قواي.. جريمة شرف !.. ارتكبت جريمة شرف؟!.. عائلة سعد الله يبحثون عن الفاعل.. سيجدونه.. أبي يقول إنهم سيجدونه، ويقول إنهم سيقتلونه.. ساعة توقف فيها الزمن مع تسارع دقات قلبي، وفكرة واحدة لا تبرح مخيلتي.. الهروب...

❊ ❊ ❊

- قررنا نحن أمين محمد عزب رئيس نيابة رمل أول إحالة أوراق المتهم للطب النفسي.. وذلك لتوقيع الكشف على سلامة قواه العقلية.

قالها وهو يسدد إلي نظرة مهنية ماكرة.

❊ ❊ ❊

معروفة..

الأرصفة لا دين لها، ولم يحدث أبداً أن ترفقت بسكانها يوماً ما.

شوارع القاهرة لم تعرني ولو قدرا بسيطا من الرحمة بعدما خرجت من البلدة لا أملك غير جلبابي.. تعلمت أن أمد يدي للناس بحثاً عن ثمن الطعام بعدما خضت محاولات غير مجدية لنيل وظيفة أو مسكن، محاولات استمرت لمدة يومين بلا فائدة تذكر.. الناس يخافون من تحمل مسؤولية مراهق لا يحمل أوراقاً تثبت شخصيته، فيدفعونه نحو التسول دفعاً.. ثم يتحاشونه في الطريق ككلب ضال، ويبخلون عليه بثمن الطعام.. أي أن استجداء ثمن القوت لم يفلح.. عرفت الجوع

كما لم أعرفه من قبل.. هكذا هم الناس. حيوانات بدائية تدعي التحضر. لا يتأذون إذا مات في عتمة الليل صبي فقير وهو يتلوى من شدة الجوع على الأرصفة التي تدهسها أقدامهم في الصباح.. !

تعلمت أن أنتزع ما أحتاج إليه بالغصب.. أتلذذ وأنا أرى الرعب يسكن في عيونهم.. يتملكني السرور وأنا أرى الرهبة تتجلى في أبهى صورها على ملامح وجوههم.

أبو سيدهم، ومرزوق، وسردينه.. هؤلاء كانوا أبرز رجال عصابتي الصغيرة.. تعاهدنا في بداية الأمر على ألا يفرق بيننا إلا الموت.. تاجرنا في الحشيش والبانجو والهروين والكوكايين وكل ما يمكن أن يكون مربحاً بصورة أو بأخرى.. كما أننا قطعنا الطرق، وكسرنا المحلات، واقتحمنا البيوت.. أجل نجحنا في زرع الرعب في قلوب سكان شبرا الخيمة والمترددين عليها، وبرغم حداثة أعمارنا إلا أننا لم نهزم أبداً.. أصبح للصبية الذين يسكنون الأرصفة رهبة واحتراما في نفوس الناس بعدما كانوا ينظرون لنا بقرف.. بدلنا نظرتهم، وهذا رائع.

ويخطئ من يظن أنني نلت ثقتهم بسهولة، هذه الثقة التي جعلتهم يقبلونني قائداً عليهم.. حقاً كنت أنا المدبر، ولكن من يخضع لتدابير فلاح هارب من شيء مجهول !.. يرتاب في كل ما يحيط به، وحذر أكثر مما ينبغي.. حذر للدرجة التي تجعله يخفي اسمه عن الجميع.

خاضوا معي اختبار القوة. استفزني أحدهم بأن أطلق على اسم امرأة، وساعدتني قوة بنيتي على ضربه بمنتهى القسوة.. هابوني للدرجة التي جعلتهم يتجنبون الحديث معي لبعض الوقت.. كان هذا قبل أن يسمعونني في أحد الليالي وأنا أرتل شيئاً من التواشيح التي حفظتها عن والدي، تقريباً حدث ذلك قبل صلاة الفجر.. وانتبهت لسردينه ينظر لي من تحت غطائه وهو باسم.. ثم تساءل:

- قرآن؟

حركت رأسي نافياً فعاد يؤكد:
- كأنه قرآن !
وتحرك مرزوق ناحية سردينه محتجاً:
- ما تسيبه يكمل يا ابن المرة.
أفلت ضحكة عفوية، وأكملت.. وما هي إلا دقائق معدودات حتى كانت الأغطية قد رفعت عن أصحابها الذين رسموا بأجسادهم دائرة حولي.. رأيتهم سعداء. رأيتهم يرددون معي.. ولم يقطع استرسالنا إلا صوت أبو سيدهم الذي كان يلف سيجارة حشيش، أشعلها.. وناولني إياها، وهو يقول بصوته الضعيف كفحيح أفعى:
- ورد الوردوش على عيونك يا مولانا.
تناولتها، والتمعتا عيني سردينه الذي بدا وكأنه عثر على كنز..
- مولانا.. إحنا نسميك مولانا.
قالها وتراجع في جلسته متوجساً من عاقبة غضبي إذا ما ظننته يسخر مني.. لكنني تبسمت راضياً.. الاسم أعجبني.. جديد وساحر.. يناسبني.

* * *

- عاوز يشوفنا.
قلتها وأنا أرتمي على الكنبة وألهث.. بعدما اقتحمت الغرفة التي تجمعنا فوق بناية متهالكة بأحد حارات شبرا.. جلست بجانبي - تجفف العرق المتصبب على جبيني - وتساءلت ببساطة كأنها كانت تتوقع أن هذا سيحدث:
- الصاوي؟
- بعت عياله ورايا وأنا رايح أخلص المصلحة.
- هنروح له.
فاجأني قولها فتلجم لساني.. نذهب إلى سيد الصاوي؟!.. أي حماقة تدفعنا لمواجهة الموت؟!

* * *

عشرة أعوام تقريباً.. ذلك هو الزمن الذي انقضى وأنا أتسكع في الشوارع سعياً وراء كسب الرزق من جيوب الناس، وتعلمت أن أتعايش مع هذا حتى خيل إليّ أن كل علاقة من الممكن أن تعيد وصلي بتلك المشاعر الصغيرة التي تتفاعل بلطف مع أرواح الناس قد أصبحت غير منطقية وغير مقبولة.. مشاعر كالخوف والرحمة والرفق والإنصاف، والغيرة أو.. أو الحب!

رأيتها على الرصيف المقابل.. أو - للدقة - رأيت ساقيها المرفوعتين من جسد غطاه تجمع الصبية.. ساعتها فهمت أنهم وقعوا على فريسة، واحدة من الفتيات اللواتي يهربن من بيوتهن كل يوم، ولسبب أو لآخر يلجأن للشارع كموطن يؤويهن، تمامًا مثلما فعلت أنا من قبل.. وكما يفعل الجميع، وكما أن للرجال اختبار قوة يحدد القدر الذي يستحقونه من الاحترام، للفتيات أيضاً اختبار يناسب طبيعتهن.. يمكنني أن أسميه اختبار بكارة كي يكون اللفظ لائقًا نوعاً ما..

أمر معتاد..

أي أن ما يحدث للفتاة لم يكن الأول من نوعه.. لكن شيئاً ما داخلي تحرك تجاهها في تلك اللحظة حين بدا لي من بين الأجساد المتدافعة وجهها المحتقن بالدماء وهي تصرخ وتحاول دفعهم بكل ما أوتيت من قوة.. صفاء !.. لا، لم تكن صفاء.. لكنني رأيت فيها وجه صفاء بصرخاتها المتقطعة ومحاولاتها اليائسة لدفع جسدي الذي حط فوقها كصخرة.. كانت تنظر ناحيتي، نظراتها كانت تحثني على إنقاذها.. صفاء؟!.. لم أكن أعرف أن صفاء عانت إلى هذا الحد.. الحسابات اختلفت، أو اختلت.. أبو سيدهم يقف في منتصف الطريق.. يضع سبابتيه على لسانه ويصفر.. صفارة طويلة متبوعة بثلاث قصار متعاقبات. ندائه المعهود، ينادي به الصبية المبعثرين في الأزقة المجاورة ليأخذوا نصيبهم..

الحسابات اختلفت، أو اختلت.. أو انعدمت !

أخرجت المطواة من تحت حزام خصري.. صوتها يناديني.. يستغيث بي.. ألمح

بينهم سردينه، وأميز الآخرين بصعوبة.. ظلال وخيالات، وبوابة الجامع الكبير حين تبتلع جسد والدي في الظلام، والدم المحتقن في وجه صفاء، ومؤخرة أم ممدوح.. وظهر مرزوق.. والغضب الذي كان ينال من أعصابي عمداً..

رأيت سردينه وهو يلتفت ناحيتي، ثبت عينيه على المطواة لوهلة ثم التقت أعيننا في نظرة جامدة، وهرول مبتعداً.. استوعب سردينه ما لم استوعبه أنا نفسي.. فهم أن قيمة العهد الذي كان بيننا صارت شبه منعدمة في هذه اللحظة.. سردينه كان ذكياً وجباناً.. لم أجد أمامي غير ظهر مرزوق، طعنته بجنون في جانبه.. طعنته أكثر من مرة، وفر الصبية مذعورين، نظر أبو سيدهم ناحيتي بحنق.. اقترب ووضع يده على قلب مرزوق، ثم واجهني بصوت هادئ محمل بالكراهية:

- مات.

قالها ومضى مبتعداً بخطوات ثابتة متزنة، وهو يضع يديه في جيبه.. كأنه لم يكن شاهدًا منذ ثوانٍ على صديق يُقتل.. وكانت هذه آخر مرة أري فيها ثلاثتهم، كما كانت أول مرة أرى فيها ذلك الوجه المكفهر.. وجه مارينا.

تماما كما سمعت عنه، رجل بوجه شيطان.. !

سيد الصاوي كبير الغجر.. كائن أسمر اللون برأس أصلع، وشارب كث، ونحيل.. نحيل للدرجة التي تجعلك ترى بروز بعض العظام في جسده.. له عينان تلقيان الرعب في النفوس.. يقولون إنه كان - في شبابه - إذا غضب يبيّت شبرا من المغرب.. أمره نافذ على الرجال قبل الحريم.. رغم اتزانه إلا أنه بدا متشككاً في نفسه وهو يرانا نقف أمامه في غرفته الخاصة..

كان ينظر لمارينا متجاهلاً وجودي.. وقتها ظننت أن هذا يخفف عني سوء العاقبة، لكنني كنت مخطئًا في ذلك.. تكلم فإذ بي أسمع صوتًا جهوريًا متحشرجًا، أهلكته أنفاس المعسِل التي لا تبرح صدره أبداً:

- هاتي اللي فـ جوفك.

- أنت اللي عايزني.
قالتها بثبات عجيب، أقسم أنني لو كنت مكانها لأصبت بالخرس من شدة الرعب.. الرجل صاحب تاريخ من الجرائم البشعة !
- أعوزك أعمل بيكي إيه.. أنا مبعزش عيال.
قال جملته وهو باسم ليعطيها مدلولاً إباحياً.
- طب بالإذن..
التفتت لتخرج، ولكنها عادت تقول:
- بس إبقى فهم عيالك إن اللي هيفكر يقف قصاد أكل عيشنا تاني هيزعل.
ورأيت عينيه تلمعان.. نظرة ذات مغزى، وقتها لم أفهم.. هل هو إعجاب بشخصيتها أم سخرية تتوعدها بأسوأ عقاب من الممكن أن تناله مراهقة وقفت تتحدى الصاوي في بيته، ورجحت الاحتمال الثاني قبل أن أصدم بابتسامة أوسع من الأولى ترتسم على شفتيه، وكلمات ناعمة تخرج على لسانه بحميمية لم تكن متوقعة على الإطلاق:
- طب وهو أنتي لما تقلّبي جوز رجالة في ميت جنيه مش تبقى برضو جيتي على أكل عيشنا؟
هنا نظرت مارينا ناحيتي فأخرجت من جيبي مائة جنيه طبقاً لما قد تم الاتفاق عليه بيننا، فأخذت النقود لتضعها في يد الصاوي وهي تقول:
- فلوسك عندك يا كبير ناسك.. بس ابقى علم رجالتك قبل ما يستنصحوا يبقوا يتنصحوا.
وهمت بالخروج فاتبعتها بينما كان الصاوي - الذي لم أره بعد ذلك اليوم أبداً - ينظر ناحيتها وهو محتفظ بابتسامته، وفي عينيه نفس النظرة الغامضة.. لحقنا صوته الأجش:
- أنتي بت مين يا حلوه؟
عادت تلتفت إليه، وفي عينيها نظرة تحدٍ كأنها تريد أن تقول له أنها تعرف

المغزى من سؤاله الخبيث، وقالت بثقة تكاد تصل لحد الغرور:
- بنت ربنا.

* * *

وضعتها تحت حمايتي من يوم قتلت صاحبي لأجلها، أنا لا أعرف حتى اليوم ما الذي جعلني أتورط في ذلك من الأساس؟!.. كنت أستطيع أن أوقفهم بكلمة واحدة. كنت صاحب سطوة وشخصية حاسمة تجبرهم في أغلب الأوقات على طاعتي.. أما عن الصغيرة فقد جذبتني من اللحظة الأولى، نظرة واحدة منها جعلتني أتورط في قتل صديق !.. هي أذكى من الذكاء نفسه، عفريتة لا تعدم الحيل أبداً.. تفكر وتتصرف كما لو كانت صاحبة خبرة حياتية تجاوزت النصف قرن متجاهلة بذلك أعوامها الخمسة عشر.. غيرت تفاصيل حياتي بعد أن تسببت في تغيير مقر إقامتي هرباً من الحكومة.. احتجت على طريقتي في انتزاع المال من جيوب الناس بالغصب، وجهة نظرها يمكن أن تتلخص في كلمتين. "الناس يدفعون لك أكثر عندما يقتنعون بأن هذا في مصلحتهم".. وبالفعل رسمنا معاً أول خطة للنصب على حارس عقار صعيدي لم يفهم مجريات الأمور في القاهرة بعد.. وفزنا بعشرة جنيهات.. كان هذا ممتعاً إلى أقصى درجة، عندما تتلاعب بعقول الناس تجعلهم يدفعون لك ما في جيوبهم طواعية.. أمر مسلٍ ورائع للدرجة التي جعلتني أندم على كل يوم انتزعت فيه ما في جيوب الناس بالإكراه..

هذا بالإضافة إلى أنها تملك موهبة أخرى، تكشفت لي بعد عام تقريباً، وأظن أنها لم تكن تود كشف ذلك رغم أن الضرورة أجبرتها.. مارينا قادرة على دخول أي مكان مهما كانت درجة تأمينه، وإن كان محاطاً بكتيبة عسكرية مسلحة !.. دائماً تملك الطريقة المناسبة.. لا أعرف أنهم في الملجأ يعلمون الصغار شيئاً كهذا، وما عرفته منها أنها لم تغادر الملجأ من يوم وجدتها المشرفات رضيعة على بابه.. لم تغادره إلا هاربة إلى الطريق، فمن أين لها

بكل تلك الخبرات؟!.. أسألها فتجيبني وهي باسمة:
- ولاد الحرام مخلوش لولاد الحلال حاجة.
تشير لنسبها المجهول.. هذا أمر لم يكن يضايقها، بل على العكس.. دائماً ما كانت تتباهى بأن أحداً لم يجبرها على الاسم والدين وأشياء أخرى بلا قيمة (على حد قولها).. هي من رسمت نفسها بنفسها.. في الملجأ أطلقوا عليها أسما لم تفصح لي عنه يوماً ما.. تخلصت منه في نفس الساعة التي هربت فيها من هناك.. أطلقت على نفسها مارينا لأنها سمعته فأعجبها.. هكذا ببساطة !
أحياناً كان يروقها أن تتساءل عن والدها من منطق المنفعة لا أكثر.. تتخيل مثلاً لو أنه كان رجل أعمال شديد الثراء، أو وزيرًا. أحلام يقظة لها علاقة برغبة مُلحة في الثراء لا أكثر.
المال هو الشيء الوحيد الذي يجعل مارينا تدوس بقدميها على كل القيم مهما كانت أهمية تلك القيم لدى الآخرين.. غير منطقية، ولكنها مبهرة.. أحياناً كانت تسيطر على عقلي خرافات القرية، فأخالها جنية تجسدت لي في صورة أنثى.
وفي ليلة سوداء قررت تحديد الهلب وعزوز كهدفين لخطتنا الجديدة، متجاوزة بذلك كل الأعراف.. بل إنني شعرت أن حماسها للاحتيال عليهما قد تزايد لما أخبرتها أن الرجلين من الغجر، وليس هذا فحسب. بل إنهما شديدا القرب من الصاوي شخصياً، لسبب ما شعرت أنها لا تكترث بالصاوي ولا تكن له أي احترام.. !
ساءت حالتي، منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه الصاوي في غرفته الخاصة ومارينا التي لم تكن قد تجاوزت عامها الثامن عشر تحدثه محادثة الأنداد.. منذ ذلك اليوم وما تبعه من فرض الحماية الغجرية عليها بأمر من كبير الغجر.. ذلك اليوم أحدث من بعده أزمات لم تكن في الحسبان.
بدا لي أن الصاوي قرر أن يصنع منها امرأة غير عادية. بدأ في تسخير قدرات الغجر لأجلها بطريقة لم تحدث من قبل. أتى لها بمعلمين في كل المجالات،

ليعلموها الإتيكيت واللغات والتاريخ وعلم النفس والفنون القتالية.. جميع الفنون القتالية بدءًا من تسديد لكمة مستقيمة لأنف خصم، وحتى مقاتلة ألف رجل بمدفع جرينوف.

باتت تقضي أغلب وقتها في بيوت الغجر، ولا تزورني إلا لماما لتحكي لي عن ما تعلمته لديهم، وتخبرني برأي الصاوي فيّ عندما أطلب منها أن تسأله ضمي لها، تخبرني بذلك وهي ضاحكة كأنها تتعمد إهانتي:

- بيقول عليك بني آدم براس كلب.

فأصمت، وتجرب معى اللعب بالمصطلحات الإنجليزية أو الفرنسية - هذا إن كنت أحسن التمييز - لتستمتع بمنظري وأنا غير قادر على التواصل معها.. هذه هي الأيام التي بدأت أشعر فيها بأن المسافة تتسع بيني وبينها.

لا أنكر أنها حاولت أن تنقل إليّ ما كانت تتعلمه هناك، ونجاحها في دعمي ببعض المهارات القتالية إن قارنته بما تكتسبه هي سأعتبره (لا شيء).. !

❋ ❋ ❋

- أنا قتلت عشانِك.

- متكلمنيش في حاجة فات عليها سنين.

❋ ❋ ❋

اتخذت القرار..

عملية لا تحتاج لأكثر من فرد واحد، لو أنها موجودة لقامت بها مكتفية بوضعي في موقع التأمين. دائماً في الظل. دائماً هي البطلة وأنا التابع.. هذه المرة يمكنني أن أنفذ العملية بدونها.. بدون توجيهاتها وارتيابها وحرصها الزائد عن الحد.. هذا ما دار في رأسي وسعيت لتنفيذه بشكل جاد قبل أن أقع فريسة للحكومة.. كمين؟!.. نعم، لم تكن العملية أكثر من كمين.

لم يطل بي الحال في الحجز قبل أن أسمع صوت طلقات الرصاص، وصفارة الإنذار، وحسها آتياً من خلف باب الحجز:

- افتح الباب.
بعدها فُتِح الباب لأرى أحد الأمناء مستسلماً لمارينا التي كانت تصوب المسدس نحو جبهته.

* * *

- فكرك يعني إنك لو فضلت ساكت كده إحنا هنصدق إنك مجنون؟!
حجرة بيضاء للدرجة التي تجعلني أشعر برغبة في القيء.. أرضية بيضاء. حوائط بيضاء. ممرض برداء أبيض في رحلة لا تنتهي للبحث عن نحلة قرصته، وطبيب سمج بمعطف أبيض.
- يا أخي والله العظيم دي حركات عيال.. وعيب تطلع منك وأنت في السن ده.
مارينا وجهها أبيض.. بياض لا يشعرني بالقيء.. بياض نوراني كوجوه الملائكة.
- أنت شايف حد معانا في الأوضه؟
ابتسامتها بيضاء..
- أنت بتبتسم لمين؟!.. يخرب بيت أم الأفلام العربي اللي أكلت لكوا دماغكوا.

* * *

... وعادت مارينا.
هذا بعد أن تركتني لثلاث سنوات استقرت فيهم ببيوت الغجر. عادت أكثر أنوثة وجمالاً بعدما لفها خراط البنات فأحسن صنعته.
- بتبص لي كدا ليه؟
- وحشاني.
- وأنت كمان.
قالتها ببرود..
مارينا تغيرت. ماتت روحها المرحة الطيبة، وأصبحت عملية كآلة. الصاوي قتل مارينا التي أعرفها. ابن الكلب..

- جهز نفسك.. عندنا شغل كتير.
قالتها خالية من أي انفعال، وانصرفت.. أين مارينا؟.. الصاوي ابن ستين كلب.
في اليوم التالي بدأنا التخطيط لأول عملية نصب مبنية على خطة جزئية وخطة عامة.. أول عملية يتشارك معنا في تنفيذها عدد غير قليل من الرجال والنساء. الصاوي سخر الغجر لمساعدتنا، أو - للدقة - لمساعدتها.. وهي تعرف ما تفعله. حراسات. سيارات فارهة. بذل وفساتين. أوراق إثبات شخصية واعتمادات بنكية تم تزويرها كلها بمعرفة خبير متخصص.. كل شيء بدا مختلفاً.. لمن لا يعرفنا صرنا من الوجهاء.. تغيرنا.
وبعد نجاح العملية بمكسب ربع مليون دولار تحولت هذه المظاهر الزائفة لحقيقة.. صرنا من الوجهاء بالفعل.
وكان هذا هو أول الطريق للثروة..
مجموعة متتابعة من العمليات الضخمة. لم نهتم يوماً بطبيعة الجهة التي نعمل لصالحها، كما لم نشغل نفسينا بقدر الربح العائد على هذه الجهة.. من يدفع الثمن يستحق الخدمة، أي خدمة.. نصبنا. قتلنا. سرقنا. زورنا. لفقنا تهمًا. حرقنا مصانع ومخازن.. أخطر عصابة كانت تبحث عنها الأجهزة الأمنية في العشرين سنة الماضية عدد أفرادها اثنان.. لا أحد سيصدق هذا، أمر شبه سينمائي!.. في بضعة أعوام صرنا خطراً على الأمن العام، فاشترينا الأمن العام..!
مرتبات مجزية كانت تدفع للضباط في جهاز أمن الدولة أو الأمن الوطني كما يحلو لهم أن يسموه الآن.. عرفنا تحركاتهم قبل أن يبرحوا مكاتبهم، ورغم ذلك لم نسلم من قبضتهم.. ألقوا القبض عليّ أكثر من مرة في أماكن مختلفة وبحيل متغيرة، لكنها دائماً كانت تعرف الطريقة الأنسب لتهريبي قبل أن ينجحوا في استخراج معلومة واحدة مني بطرقهم القذرة، وبعد كل مرة لا أسلم من سفالتها.. في أغلب الأوقات تلجأ لتوقيع العقوبات كأنني تابع لا شريك !.. تحب أن تسمي

ذلك زيادة حرص.. لكن حبسي في بيت يحرسه الغجر، أو وضع تحركاتي تحت مراقبتهم.. هذا لا يمكن أن يسمى حرصاً، هذه عقوبة تنقص من قدري.. أنا أخطر رجل في مصر، وبدوني لا تستطيع هي أن تتحرك حركة واحدة.. ولو أنها رأت غير ذلك لما عادت تشاركني العمل بعد انتهاء فترة تدريبها عند الصاوي.. وهذا لا يغير من الحقيقة شيئًا.. والحقيقة أنها مكابرة وعنيدة.

مر العام بعد العام، ونحن نزداد ثراءً دون أن نغير طبيعة حياتنا.. الثراء لا يعني دائماً أن تسكن في أحياء الوجهاء.. كتب علينا أن نسكن الحارات، وأن نخبئ أموالنا في المقابر.. وأن نجاور الغجر، وكبيرهم الذي يسخر طاقاتنا لصالحه، فكل العمليات التي قمنا بها تم تنفيذها لزبائن الصاوي.. في البداية كان هو الذي يعقد الاتفاقيات قبل أن يتقدم به العمر ويترك مكانه لابنته كراملة.. هي تقابل الزبائن، وتفهم منهم المطلوب بمنتهى الدقة، ثم تتفق معهم على الأجر بعد أن تطلق رجالها ليقوموا بجمع المعلومات.. وفي المرحلة الأخيرة يأتي دورنا، مقابلة بين كراملة ومارينا تسلم فيها الأولى للثانية كافة التفاصيل، ثم تترك لها آلية التنفيذ واختيار الرجال.. أي أنني في عرف الصاوي وأهله واحد من رجال مارينا، فرد منفذ لا شريك !.. وقد يكون هذا أحد أهم أسباب كرهي للصاوي، لكن هذا كلام قديم.. فالتجربة العملية أثبتت أن ما كنا نكسبه في عهد الصاوي أضعاف ما جاد به عهد كراملة.. دنيا الكبار (أيام).. وهذه أيام كراملة، أما سيد الصاوي فقد انحصرت حياته بين غرفته التي تشهد قعدات الحشيش في الليل، والزاوية حيث يؤم الناس في الصلوات.. الصاوي انتهى من اليوم الذي اكتفى فيه بأن يكون دوره بين الغجر استشارياً.

- صدقيني خلاص.. زمن الصاوي خلص، والزمن اللي جاي زمنا إحنا.

تعتدل في جلستها على السرير، وتغلق التلفاز.. ثم تستدير ناحيتي محتدة كأني غلطت في البخاري:

- هو اللي هنعيده هنزيده !.. قلت لك قبل كده مليون مرة اللي ليه ضهر

مينضربش على بطنه.. واللي زينا من غير الصاوي ملهمش سعر.
متشبثة به كأنه ملاذها الأول والأخير، إننا أقوى من هذه الادعاءات. في نفسها شيء لا أعرفه !.. ربما رأتني وأنا مأخوذ بجمال ساقيها - في تلك اللحظة - وهي ترفع جوربها الفوال إلى أعلى فخذها الأبيض اللدن.. مارينا هي شجرتي المحرمة !.. قلت وأنا أراها تلف حزام الفخذ أعلى الجورب الأيسر، وتضع به خنجرين وطفاشة:
- المتغطي بالهناجرة عريان.
حدقت بعينيها في خلجات وجهي، ثم مضت تكمل ارتداء ملابسها، وقالت بحسم وهي تمد يدها ناحية دولاب السلاح:
- لو اتكلمت في الموضوع دا تاني هأذيك.
وفتحت الدولاب.. أخرجت منه مسدسين ٩ مل.. وضعت أحدهما في حزام خصرها. وسلمتني الثاني ضربا بجانبه على صدري:
- مسدسك.
رأيت في عينيها غضبًا حقيقيًا قبل أن تنصرف..
- عمّره وتعالى ورايا.

* * *

- اللي فهمته م الجرايد إن الجرايم اللي أنت عاملها توديك ورا الشمس.. بس صدقني، نصيحة من أخ.. أنت لازم تتكلم.. يمكن دا يساعدك.
ثم يتخلى عن لهجته الناعمة، ليكمل متأففاً:
- أوعى تكون فاكر إني هكتب في التقرير بتاعي إنك مريض بالامتناع عن الكلام.. دا يبقى اسمه عبط.
وجه طبيب هذا أم مؤخرة قرد؟!

* * *

يوم الاثنين ١٩ فبراير ٢٠٠٧،

الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

قابلت النقيب أسامة السكري في مقهى ببولاق الدكرور - حسب طلبه.. تم هذا بعد مكالمة هاتفية جاءتني منه قبل موعد المقابلة بساعة، والنقيب أسامة هو أحد أهم رجالنا في الجهاز.. مكالمة من رقم غريب سريعة ومقتضبة. "عايز أشوفك ضروري.. قابلني في مكاننا بعد ساعة". ثم أغلق الخط دون أن ينتظر ردي.. أمر مألوف إلى حد ما.. فجميع الضباط الذين تعاملنا معهم في السنوات الماضية لهم نفس اللهجة الآمرة، والغطرسة المزيفة.

جاء قبل موعده بخمس دقائق.. بدا متجهما رغم طبيعته المرحة. تملكتني شكوك سرعان ما أخذت تتزايد بدخوله في الموضوع..

- (قيادة تشكيل عصابي بهدف إرهاب المواطنين، وتكدير الصفو العام).. تحسها جملة تخض، مش كده بردو؟

- خير يا باشا.. الدماغ مش واصلة ولا مؤاخذة.

- إحنا بنشتغل مع بعض من إمتى يا مولانا؟

- من ييجي أربع سنين.

- إبريل الجاي يتموا خمسة.

طريقة قديمة لاستمالة عدو جمعتكما المصلحة، لتورط كل منكما في الهدنة وهو مكره عليها !

- عقبال ما يبقوا خمسين يا سيادة النقيب.

- أهو أنت كده حطيت أيدك ع الجرح.. طوّلنا أوي في حكاية نقيب دي.. وزي ما قولت لك القضية بتاعت تكوين التشكيل العصابي هتفرق كتيـــر، وأنا يامه خدمتك...

محاولة ابتزاز وجب عليّ التصدي لها قبل أن تكتمل.. أقاطعه:

- وكله بتمنه.. أنت مكنتش بتخدمني محبة وجدعنة.

من حضر العفريت يتحمل الأذى.. يثقب وجهي بعينين تحملان كل شر الأرض ويلقي الكلمات كما يليق بقوي لا يهتز له جفن:
- تعالى لي في السالك.. عشان يوم ما أحس أن مبقالكش عازة عندي هتتمنى أني أقتلك وأخلصك م العذاب اللي هتشوفه على أيدي.
- هات اللي عندك يا باشا.
- القضية جاهزة ومتستفه وعايزة اللي يشيلها.
- سهلة.. بكرة الصبح هتلاقي على باب مكتبك عيل من عيالنا.
يضحك ساخراً:
- لا عيالك دول آخرهم يشيلوا قضية سرقة موبايلات.. ضريبة الوطن أغلى من كده يا مولانا.
- متجيب م الآخر.
- أنت هتسلمني الصاوي.
آخر ما كنت أتوقعه.. ابن القحبة يريد أن يفتح عليّ أبواب جهنم.
- أسلمك مين ولا مؤاخذة؟!
- زي ما سمعت.
ليتني ما سمعت. أي جنون يجعلني أدخل عرين أسد جائع؟..
يتلفت حوله.
- هو الواد بتاع الشيشه فين؟..
يصيح منادياً بصوت مزعج ومستفز:
- أنت يا أبني.. متنزل لنا حجر معسل، ولا أي زفت نولعه ياكشي تولع في نار جهنم يا بعيد.
- أنا مقدرشي أعمل كده.
يأخذ من كوب الشاي الذي أمامه رشفة، ثم يضم شفتيه مشمئزاً.
- ماسخ أوي.. الواد الناقص كل مرة أقول له يحط خمس معالق سكر.. وكأني

بادن فـ مالطة.. يحسسك أنه بيقطع السكر من جلده ابن المبقعة.
أنفخ بنفاذ صبر..
- أنا مقدرشي أعمل كده.
- أوعى تكون فاكر أنك اتقبض عليك في الخمس مرات اللي فاتوا سوء حظ ولا فهلوة داخلية.. يا حبيبي الداخلية من غير مرشدين زي العاجز من غير عكازين.
- الصاوي أنقذني في الخمس مرات اللي فاتوا.
يبادرني وهو يتناول اللـيّ من صبي يضع الشيشة أمامه:
- الصاوي هو اللي سلمك في الخمس مرات اللي فاتوا.
نزلت جملته على رأسي كضربة شومة من يد فتوة كافر.. مفاجأة لم تكن في الحسبان.. الصاوي !.. لماذا؟!.. لعبة ماكرة من ثعبان بلا شرف.
- بلاش تصدقني.. بس بلاش كمان تقول كلام أنت مش مقتنع بيه.. عشان أنت عارف زي ما أنا عارف إن مارينا هي اللي كانت بتنقذك كل مرة، وأن لولاها كان زمانك في خبر كان من زمان.
يتأمل ملامحي في محاولة لقراءة أثر كلامه عليّ، وللأسف هو على حق.
- الراجل عجز وبقى صيده سهل، ولازم تتغدى بيه قبل ما يتعشى بيك.. مهو أنا بردو مش عايزك تبقى متخيل أن كل مرة هتسلم الجرة.
الصاوي !.. أهم قواعد اللعبة "لا تمنح ثقتك لضابط مهما حدث"..
- طلبك مرفوض يا باشا.
قلتها وأنا أقف مستعداً لمغادرة المكان، وعلى الفور قبض على معصم يدي اليمنى، وأعادني إلى مقعدي وهو يصرخ:
- هو أنا هتحايل عليك يا ابن الكلب؟.. القضية موجودة، ويا تنفذ اللي قولتهولك يا أما ورحمة أمي لاشيلها لك.
لم لا؟.. قد تكون هذه فرصة حقيقية لإزاحة الصاوي من طريقنا.. طالما رفضت

هي الخروج عن طاعته، ماذا لو أجبرتها على ذلك؟.. بالفعل لم تتولد الفكرة بفعل تهديداته الفارغة.. إنها كانت تراودني من البداية، لكنني حاولت تجاهلها قدر المستطاع.. والآن لا مفر. الضابط يتمادى في الإلحاح، والصاوي شر مستتر، وخروجنا من عباءته لن يتم وهو حر بين أبناء عائلته.. وأنا... أنا أعرف من أين تؤكل الكتف.

- لو عايزني أساعدك يبقى تنسى اللي في دماغك ده خالص، قضيتك متلفقة.. وهو هيعرف إزاي يخرج منها.

بدا متشككاً قبل أن أوضح له ما أنتوي فعله. "أفضل نقطة للهجوم هي تلك التي تبعد عن توقعات الخصم".. إنها أسماء، سيدة سكندرية في عمر الصاوي تقريباً.. عشقها في شبابه ثم فرقت بينهما عدة أسباب أدت في النهاية إلى أن تزوج هو من أخرى لينجب ابنته الوحيدة كريمة / كراملة كما يناديها الجميع. وعاشت هي أيضاً حياتها وتزوجت من أبو أمينة الذي قبض عليه في شهر العسل بتهمة الاتجار في المخدرات، ونُفِذ فيه حكم بالمؤبد، لكنه قبل أن يتم عامه الأول في السجن وجدوه مقتولاً.. قيل إنه انتحر، وقيل أشياء أخرى تاهت بينها الحقائق.. المهم أنه مات تاركاً خلفه ابنته أمينة التي أنجبها من زوجته الأولى لتقوم أسماء أرملته على رعايتها.. ومنذ ذلك الحين عرفها الناس بأم أمينة. وبعد حادثة إعدام زوجها ببضعة أعوام توفيت زوجة الصاوي.. ودارت الأحاديث منذ ذلك الحين على أن الرجل عاد يوصل ما كان قد انقطع بينه وبينها !. خصوصاً بعدما صارت المرأة بين يوم وليلة من أهم تجار الكيف في الإسكندرية.. الأحاديث غير مؤكدة، لكن ما لا يمكن إنكاره أنها كانت نقطة ضعف الصاوي في كل وقت.. أنا نفسي، وأنا في صباي تحركت في حملة يقودها المعلم الهلب بنفسه للإسكندرية، وذلك لنشر الفوضى بحي الظاهرية.. قيل إن هذا حدث لأن أحد سكانه شتم أم أمينة بألفاظ خارجة !

- أنت هتبلغ حبايبك في المخدرات يقبضوا على أم أمينة.. ودي بقى قضية

إتجار مضمونة.
أعرف أن هذه هي الطريقة الوحيدة لكسر الصاوي، ووضعه تحت رحمة الحكومة.
وبعد هذا اليوم بأقل من أسبوع بلغنا أنه قد تم القبض عليها.. قيل إنهم حين اقتحموا منزلها وجدوا به كميات كبيرة من الحشيش والبرشام.
.. واصطبحنا في اليوم التالي على خبر صدم الجميع.. رد فعله جاوز كل التوقعات.. لم ينحنِ، وقع واقفاً كما يليق ببطل شعبي !. دارت الأحاديث في الشوارع والمقاهي وسمعت بها الأحياء المجاورة.. رأوه خارجاً من الزاوية بعد صلاة الفجر بجلباب أبيض وشبشب حمام بلاستيك. رأوه متجهاً ناحية قسم الشرطة وهذا آخر ما وصل لعلم شهود العيان.. وفي الصباح كان الخبر اليقين.. الصاوي سلم نفسه، واعترف بأن الأحراز المضبوطة من بيت أم أمينة تخصه، وأنه تركها في بيتها دون علم منها.. !
الأزمة الحقيقية لم تكن فيما فعله الصاوي، ولا في الطريقة التي تناول بها الناس هذا.. أولاد الكار اعتبروه بطلاً، وأهالي شبرا وجدوا في حبسه فرصة لتأمل مستقبل تقل فيه سطوة الغجر.. أما سكان الأحياء الأخرى فمنهم من تناول الأمر بكثير من الشماتة، ومنهم من تجاهل ذلك كأنه لم يكن، عملا بمبدأ المشي جنب الحيط.. حتى الفتيات المراهقات تناولن الحدث بطريقتهن الخاصة، كن يتكلمن عنه كعملاق أسطوري، ويضربن به الأمثال في الحب حتى الموت !. قلت إن الأزمة لم تكن في كل هذا.. الأزمة كانت في مارينا التي ساءت حالتها الصحية، فبمجرد أن بلغها الخبر رقدت في السرير حتى نصح الطبيب بنقلها إلى المستشفى، وضربت بنصيحته عرض الحائط. نظراتها لي محملة بالحنق، لم أجد تفسيراً لهذا.. أنا أعرف مارينا، وأعرف أنها تشتم رائحتي فيما حدث. نظراتها تزيد من توتري..
- أنا صحيح كان نفسي نشتغل بعيد عنه.. بس دا مش ممكن يكون معناه إني

أبقى مبسوط باللي حصل له.. بصي، أنا مقدرشي أنكر إن لحم كتافنا من خيره. نظراتها تزداد حدة.. صمتها مقلق، وكلماتي تفضحني.. توتري يعريني. إنها تقرأني بوضوح.. دائماً تقرأني بوضوح.. !

خالفت ظني. لم تواجهني بشكوكها وهذا أسوء..

وكلت له خمسة محامين مشهود لهم بأن أقل واحد فيهم يخرج الشعرة من العجين. شكلوا جلسات استشارية فيما بينهم وأنابوا عنهم أكبرهم سناً في الدفاع أمام المحكمة، وبالفعل تحولت قضية الإتجار بقدرة قادر إلى تعاطٍ، وصدر عليه الحكم بخمس سنوات..

وفي ليلة سوداء اقتحموا منزلي، وجدوني نائماً على الفراش وحيدا، وغرفة مارينا خالية.. إذ إنها كانت تنام بمنزل الصاوي. عددهم أكبر من أي محاولة ساذجة للمقاومة.. ضربت بشدة رغم استسلامي التام، وقادوني إلى مقر أمن الدولة في لاظوغلي. هذا آخر ما استطعت استيعابه.. أسلوبهم هذه المرة يؤكد أنه لا مفر.. كل ما تم كان معادياً للقانون. آمنت بأنه لا سبيل للهرب، لا مارينا ولا العفاريت الزرق يستطيعون اختراق ذلك الظلام المطبق على نفسي كالجبل.. ولولا أنني أستطيع تمييز الطريق إلى شارع محمد محمود ببضعة إشارات لا ترقى إلى مستوى اليقين التام لباتت تساورني شكوك بأنني وقعت في يد متضرر ضيق الخلق !.. واحد من هؤلاء الذين لحق بهم الأذى من عملياتنا.

مر وقت طويل لم أقدر على حسابه وأنا جالس القرفصاء بزنزانة حديدية مربعة متر في متر، لا ترى عيناي سوى السواد المطبق، ولا تسمع أذناي إلا أنات متقطعة أفشل في تحديد مصدرها.. خارت قواي وتملكني التعب من صعوبة الحركة وافتقاد جسمي لما يحتاج إليه من ماء وطعام.. جف حلقي، وصحت مستغيثاً بأصحاب الأنات في الخارج، ولا مجيب.. صرخت كثيراً، وشتمت أكثر أملاً في استفزاز أحدهم كي يحضر شخص ما ويقول أي شيء.. ظللت أفعل هذا حتى انكتم صوتي من شدة التعب.. ساعات الانتظار قاتلة.

وبعد أن وقعت في منطقة متأرجحة بين الإدراك والحلم فتح الباب، وظهر خلفه رجلان متشحان بالسواد وكأنهما عملي الأسود في الدنيا، وكأنني ميت ينقاد إلى ساعة حسابه التي يعرف مقدما أنها بوابة العبور إلى العذاب الدائم. دهاليز خربة تفوح منها رائحة عطنة. ثم بوابة خشبية متهالكة يمرراني منها إلى حجرة أشد ظلمة بها طاولة بمقعدين.. أجلساني على أحدهما، وطالت جلستي..

بي رغبة ملحة تحثني على مغادرة مقعدي لتفقد المكان بحثاً عن حيلة أو مخرج ، لكن ركبتاي عجزتا عن حملي.. غير أنني سرعان ما استسخفت الفكرة. ساعة أو عشر ساعات مروا عليّ وأنا في تلك الغرفة قبل أن تصفعني يدٌ مصفحةٌ على قفاي فتطيح برأسي حتى تصطدم جبهتي بالطاولة، وقبل أن أستدير لأي ضاربي سطع نور قوي من كشاف في مواجهة عينيّ تماما فاستشعرت صداعا مباغتا وتملكت جفناي حركة عصبية.. المقعد المواجه لي صدر عنه صوت احتكاك بالأرض.. سكنه أحدهم، صوت تتجلى فيه الشماتة آية:

- منورنا يا مولانا.

صوت النقيب أسامة.. لا أخطئ في تمييز صوته أبدا.. نطقت جملتي الأولى بصعوبة طفل يتعلم الكلام:

- أنا.. أنا فين؟

ضحك فرددت أركان الحجرة صدى ضحكته.

- أنت في المكان اللي لا المومس بتاعتك ولا أي مخلوق يعرف يوصل له.. أنت تحت الأرض.

- أنا عملت لك اللي أنت عايزه.

غير نبرته..

- وأنا عملت لهم اللي هما عايزينه.

- هما مين؟!

المقعد المواجه يصدر صوت احتكاك بالأرض.. على انعكاس ضوء الكشاف

في الجانب الآخر من الحجرة لمحت ظله وهو يبتعد.. صرخت باسمه، فباغتني الكف المصفح بلطمة أخرى أشد قسوة.. هذه المرة تلفت لأراه في اللحظة التي توقف فيها الكشاف عن إرسال ضوئه.. وعاود الظلام سطوته.

* * *

- أنا مش هكرر عرضي تاني.. تقول لي مكان شريكتك أخرجك م الليلة دي كلها زي الشعرة م العجين.

عجوز بنظارة كعب كوباية وملامح صارمة تقتحم الغرفة لتصيح بصوتها الحاد:

- إيه اللي بيحصل هنا ده !

يتلعثم الطبيب فتبادره:

- أنت متحول للتحقيق يا دكتور.

يقف الرجل الآخر محاولاً تبرير موقفه:

- واضح إن في سوء تفاهم.. الحقيقة...

تقاطعه:

- إطلع بره يا سيادة اللوا.

- نعم !

- لما حضرتك تتجاوز القانون اللي المفروض إنك بتنفذه وتيجي تستجوب مريض متحول لنا م النيابة يبقى متستناش مني غير إني أقول لك إطلع بره.

يبتسم بمكر.

- أنتي خلاص.. اتأكدتي أنه مريض؟

- كل النزلاء مرضي لحين ما يثبت العكس.. إحنا في مستشفى مش في لوكانده يا محسن بيه.

بنفاذ صبر يضغط على مخارج الألفاظ:

- أنتي ليه مش قادره تفهمي إن دي قضية رأي عام؟؟

- أنت اللي مش قادر تفهم إن دي مستشفى المعمورة مش محكمة الجنايات.. !

❊ ❊ ❊

قدرتي على حساب الزمن انعدمت، وجبة فول أو عدس تُلقى إليّ من فتحة في أسفل باب الزنزانة.. لا نوافذ ولا مرحاض، ولا حتى سمعت أذناي صوت إنسان منذ زمن طويل.. آخر صوت وصل إلي هو صوت الرجل صاحب الكف المصفح وهو يرميني في الزنزانة بعد الحديث الأخير لأسامة.. آخر ما سمعته وجهة نظر - مجرد وجهة نظر - في شرف أمي.. وأسامة.. أين ذهب؟.. في أول الأمر اعتقدت أن الحوار الذي دار بيننا هو بداية حديث طويل لينتزع مني كل ما يستطيع انتزاعه عن الغجر ومارينا.. لكنه لم يفعل.. لم أقابله مرة أخرى، وكأن وجوده كان مجرد هلاوس سمعية وبصرية.. !

صارت لي لحية طويلة تدغدغ بشعيراتها صدري، كما نمى الشعر في رأسي نمواً جنونياً.. هذا يؤكد أنني قضيت في الزنزانة عمرا لا يستهان به، مكان نجس.. زدتُه نجاسة بقضاء حاجتي في أركانه.. صرت ككلب أجرب في خرابة. وأخيراً فُتِح الباب.. ودفعتهم ذراع لم ألمح وجه صاحبها، كانوا عشرة، سبعة شباب وثلاثة فتيات. انتفضوا مذعورين.. يرمقونني وعلى وجوههم علامات الاشمئزاز. إحدى الفتيات أمسكت بطنها واستفرغت.. تجاهلوني ودارت بينهم أحاديث حماسية.. ظلوا يمضغون الكلمات بإصرار رهيب، كلمات لها وقع الخلاص في نفوسهم. "الميدان".. "الثورة".. "إسقاط النظام".. "الرحيل".. "الثوار".. "الشرعية".. "الثوار".. "الثوار".. "الثوار". ثم مع الوقت قلّ حماسهم وجلسوا يرددون الأغاني والأشعار. أحدهم اقترب مِني.. حاول أن يعرف حكايتي، وتجاهلته فابتعد بهدوء، ولم يقترب مني أحدهم مرة أخرى.. لم تكن بي رغبة في الكلام، أو بمعنى أدق.. لم تكن بي رغبة في الحياة.

وطال بهم الوقت حتى فقدوا أي أمل في النجاة، ذهبت رغبتهم في الضحك والغناء، ودارت بينهم الأحاديث عن الموت في الزنزانة المظلمة، والثورة التي

فشلت !

وفجأة.. أضاء نور ذلك الأمل الذي عشت أحلم به كثيراً حتى فقدت كل رجاء في تحقيقه.. تدافعت نحو الزنزانة أصوات الرصاص، وصرخات الرجال، وصيحات آخرين يأمرون بفتح الزنازين !.. تشققت شفتاي وأنا أنتزع منها ابتسامة.. أحاول الوقوف بصعوبة.. صوت الرصاص يطربني. الباب يُفتح بضربة من قدم امرأة تصدمه بالحائط. مارينا يا جنة الشياطين !

- قوم أصلب طولك يا حيلتها.

❊ ❊ ❊

وجه مارينا ساطع كوجه نبي.. !

❊ ❊ ❊

بدّلت الأرض وجهها.. خمسة سنوات مرت عليّ في محبسي.. الثورة التي تغنى بها الشباب في الزنزانة كانت حديث الجميع.. رأيت بعض الأحداث على اليوتيوب وشاشات القنوات الفضائية، الناس يجتمعون في ميدان التحرير كالنمل، وكأنهم في يوم الحشر !.. ضجيج، وهتاف، وهلاوس.. ورجل قصير القامة يقال إنه الرئيس الجديد !.. كل الناس يحرقون كلام يكفي لألف عام في قعدة شاي. كل الناس صاروا يمضغون السياسة أكثر مما يمضغون الفول.

- بردو مش فاهم حاجة.. إزاي بتقولي الأقسام انحرقت والسجون انفتحت، وأنا فضلت محبوس زي ما أنا؟!

- مقر لاظوغلي نفسه اتدمر في مارس السنة اللي فاتت.. بس أنت مكنتش في لاظوغلي نفسه.

أحاول استيعاب المتغيرات بصعوبة..

- أمال كنت فين؟

- سجن سري تحت الأرض ملهوش مدخل غير عن طريق بوابة في قاعة الحكمدار سليم زكي.. أقدم قاعة تعذيب في لاظوغلي، وتقدر تقول كمان أنها

أقدم قاعة تعذيب في مصر.

أظنها القاعة المظلمة، تلك التي عرفتني بصاحب اليد المصفحة كما سمعت بها صوت أسامة للمرة الأخيرة.. أقدم قاعة تعذيب في مصر!.. من الواضح أن لي في قلوب رجال الجهاز معزة خاصة..!

- أغلب الرجالة اللي كانوا واخدين أحكام رجعوا بيوتهم بعد فتح السجون.

تشعل سيجارة من أخرى وتكمل:

- بس للأسف مقدرناش نخرج الصاوي.. السجن اللي هو فيه متأمن تأمين ميخرش الميه.

- هو مش المفروض يكون خلّص مدته؟؟

أقولها وأنا غير متحمس.. فتجيبني وعلى شفتيها أول ابتسامة أراها منذ غادرت السجن:

- يخلصها الشهر الجاي.

مازال الصاوي يأكل عقلها، العالم كله تغير وهي كما هي.. عرفت أنها هربت لواشنطن بهوية مزيفة بعد القبض عليّ هرباً من الملاحقة الأمنية، ثم عادت في مارس من العام الماضي - أي بعد انتهاء هوجة يناير مباشرةً.. كما عرفت أنها عادت بعدما وصلت إليها معلومات عن عملية ضخمة (حسب قولها) أضخم عملية في حياتنا.

- ١٧ شهر وأنا ماورابيش في الدنيا غير التدوير عليك.

كانت تقود سيارتها بسرعة جنونية على طريق القاهرة إسكندرية الصحراوي، وأول الليل يرمي علينا بعض ظلمته.. صوت الأغنية الأجنبية المنبعث من المسجل لا يقطعه إلا جملنا المقتضبة:

- ليه مُصرّة نروح أسكندرية؟

- هنمشي نحب فـ بعض ع الكورنيش.

- فعلاً؟

أقولها مبتسماً فتتخلى عن لهجتها المرحة:
- فعلاً في عينك.. أولا إحنا مبقالناش عيش في القاهرة بعد ما وشك اتحرق واتعرفت ديّتك. وثانياً أنا قلت لك قبل كده بس أنت اللي دماغك مش فيك.. العملية الجديدة هتتنفذ في إسكندرية.
بيني وبينها سنوات من الغربة والضياع.
تمارينها الرياضية نجحت في علاج ضعف العصب وما يسببه من رعشة في الأطراف لكنها لم تنجح في إنقاص وزني بالشكل المطلوب.. ترفع صوت المسجل، صوت المطربة يكاد أن يعلن احتلاله للعالم.. تزيد من سرعة السيارة، وأرفع صوتي حتى تسمعني:
- الدقن دي شبهة.. كان لازم أحلقها.
- لا وأنت الصادق.. الدقن دي سُنّة، شبهة دي كانت زمان.
على شفتيها ابتسامة ساخرة تجعل كلامها يحمل من الهزل أكثر مما يحمل من الجدية. لحية - بناءً على رغبتها - بالكاد تصل لآخر قبضة يدي..
أخذنا شقة صغيرة في إحدى العمارات القديمة بمنطقة العصافرة القبلية، واشترينا عددًا من السيارات موديل العام وموديلات قديمة، استأجرنا لها جراجاً في المندرة.. رأيت أن الاستيلاء عليها أفضل، لكنها كلما اقترحتُ عليها أمراً مخالفاً للقانون كانت تكرر:
- بلاش نعمل دوشة.
دَوشة !.. المشاغِبة الصغيرة التي احترفت إزعاج طوب الأرض في يوم من الأيام صارت سيدة عاقلة تتصرف بحرص. أي لهو مارسته الحياة مع الناس لا يقارن بهذا أبداً.
وهكذا استقررْنا بالإسكندرية، ودقت ساعة العمل...
- المرة دي ميزانية التنفيذ هتكون اتنين مليون جنيه.
رقم خيالي.. !

كم مرة عرضنا فيها حياتنا للخطر من أجل نصف هذا المبلغ؟.. بنت المجنونة ستضيع شقا عمرنا.. قالت إن الحياة تتغير، والقيمة المادية تتقلص.. لم أتغيب أكثر من خمس سنوات.. مالها تتحدث وكأنني كنت نائمًا مع أهل الكهف؟.. الأمر الوحيد الذي يجعلني أقبل التفريط في كل هذا المبلغ أن تكون النسبة قائمة كما كان اتفاقنا منذ بداية عملنا معاً.. ميزانية التنفيذ لا تتجاوز بأي حال من الأحوال ربع الأرباح..

- وإحنا هنكسب كام بقى عشان نصرف كل ده؟

- مش أقل من مليار دولار.

يا دين النبي !!.. قالتها ببساطة كأنها لا تلقي لضخامة المبلغ بالاً !.. جملة أخرى خرجت من شفتيها بنفس النبرة الهادئة، جملة حاسمة قوية منجزة ناهية:

- إحنا هنسرق قبر فرعون.

❊ ❊ ❊

عقل مارينا معجون في نار جهنم.. !

- هو بقاله كتير ع الحالة دي؟

- أهو فاشخ ضبه كده على طول.

- كل يوم؟

- كل يوم.

- مش بياكل؟

- عايش ع المحاليل.

- وتشخيص الدكتور رضا؟

- الدكتورة إيناس حولته للتحقيق قبل ما يكتب تقريره.

صوت الطبيبة كتغريد العصافير في جنة الرحمن...

- قولي لعبد العزيز يجبهولي فـ مكتبي.

صوت نقرات كعبها العالي على البلاط أعظم من تواشيح النقشبندي.

- دكتورة أميمة.
- في حاجة يا سناء؟
- تفتكري هو ممكن يكون بيمثل فعلا؟
- نعم !
- أصل الناس في الشارع بيقولوا أنه يقدر يشتغل وزير الصحة نفسه.
زفرتها مست قلبي كريح من الفردوس الأعلى، أو كهبو من رماد النار.. !
- سناء.
- أيوه يا دكتورة.
- روحي قولي لعبد العزيز يجبهولي فـ مكتبي.

❊ ❊ ❊

أخبرتني أنها عرفت بوجود مقبرة فرعونية في أرض راقودة القديمة أو منطقة أبو قير كما تسمى حالياً، والمقبرة تقع في أرض مملوكة لعائلة القفاص، مناصفةً بين محمد القفاص وأسرة أخيه المرحوم محمود، هدفنا هو خالد.. خالد محمود القفاص وصاحباه حسن سليمان وياسر محفوظ.. ثلاثة شباب في مقتبل العمر من السهل خداعهم وإثارة طمعهم لضعف حالتهم المادية وقلة خبرتهم بأمور الحياة.

- منقدرشي نشتغل على خالد لوحده؟

هكذا سألت، فأجابتني على الفور:

- مستحيل.. لازم نعمل كنترول على التلاته، لأنه كده كده هيرجع لهم، ودا ممكن جدا يخليهم يأثروا عليه تأثير سلبي.

تحرياتها تؤكد أن محمود القفاص هو أول من عرف بأمر المقبرة، أخبره بها صديق من الأقصر، رجل خبير بهذه الأمور.. وطلب الصعيدي من صاحبه تولي فتح المقبرة، لكن محمود رفض بحزم ودون سبب واضح، وانتهى أمر المقبرة عند هذا الحد.

خطتها تعتمد في الأساس على الإبهار، وقد بدأت في تنفيذها بالفعل.. رسالة وصلت على هاتف حسن تفيد بوجود آثار فرعونية في قرية بالفيوم، تحمس لها خالد فطلب رقم المرسِل وحدد معه موعدًا.. الأحد القادم نبدأ في تنفيذ خطتنا، كل شيء مُعد كما خططت هي له.. لا يفوتها شيء.

في الليل، عند القرية البعيدة حيث وضعت الخطة لبدء الحكاية بالطريقة التي تناسبنا.. ارتديت جلبابًا أبيض ووضعت فوقه عباءة سوداء تزيدني مهابة، ورتبت شعيرات لحيتي أمام المرآة بعناية وحرص كأنها لحية مزيفة، وطوقت معصمي بساعة ذهبية مرصعة بالألماظ لم أرتدِها منذ تسعة سنوات، آخر مرة ارتديتها فيها كنت أنتحل شخصية مدير بنك أجنبي.. وتوقفت مليًا أمام رف النظارات بالدولاب ثم انتقيت نظارة عريضة تغطي جزءًا كبيرًا من ملامحي. ثم أمسكت عكازًا مناسبًا.. وخرجت من العشة لأجد السيارة تقف أمامي، تماماً كما اتفقت معها.. سيارة سوداء موديل العام يقودها سيف، مساعدي الجديد.

- مينفعش تدخّل بيننا غريب.

هكذا قالت يوم أن أصررت على رفض وصاية الغجر وحمايتهم، والاعتماد على سيف الذي أوقعه القدر في طريقي.. شاب عشريني طفولي الملامح معدوم الخبرة، دربته بنفسي وجعلته خادماً، أو مساعداً أفضل من سُكر الذي تم تعيينه ليقوم على خدمتي من قِبل الصاوي، أول خطوات الحرص هي الاستغناء عن سكر وكل غجري قد يعمل معي في موقع قريب للغاية من كل أسراري.

- أنا خارج من سجن دمر خمس سنين من عمري، سجن بالأمر.

- أسامة سجنك.. دا إيه علاقته بالهناجرة؟!

- أسامة مش أكتر من كلب سعران.. لازم أعرف مين سيّبه.

- ولو عرفته؟

- هافشخه.

ابتلعت ريقها بصعوبة بعدما قلتُ كلمتي الأخيرة، وحاولت أن تؤكد لي أن

الغجر ليس لهم مصلحة في إيذائي، لكن نظرة طويلة نقلت لكل منا ما يفكر به الآخر. "الغجر يتمنون قتلي". "أنت واهم.. السجن أفسد عقلك". "لا أباً لك فيهم ولا أهل.. إنهم لا ينتمون إلا لأنفسهم". "الصاوي أبي". "ملعون أبوكِ". "جبان وحاقد". "لست جباناً.. قد أكون حاقدًا". "تحقد على الصاوي". "أخاف عليكِ من مكره". "جبان وحاقد". "فليكن". "فليكن"..

- اعمل اللي أنت عايزه.. بس افتكر إني حذرتك.

بعدما وصلتني على هاتفي إشارة منها أمرت سيف الذي كان يقود السيارة في ذلك الوقت بالتحرك، ولكن ببطء.. ليصطدم الشباب الثلاثة بجانب السيارة أثناء خروجهم من المدق بملابس داخلية ممزقة وقد ظهرت آثار الخوف على ملامحهم. ينتفضون بمجرد أن تلامس أجسامهم السيارة وقد أفسد الرعب تركيزهم.. أنزلت الزجاج المعتم لأجد أعينهم مركزة على نظارتي السوداء أطلب من سيف أن يركبهم السيارة.. اتفقنا على أن يكون اسمه أمامهم (كارم)، وهو اسم يناسب هيئته البدوية. لكنه قبل أن ينفذ أمري وجدتهم يصيحون بجمل اعتراضية غير مفهومة، ميزت منها قول لياسر:

- أنت مين؟.. في إيـــــه؟

فبادرتهم بلهجة بدوية جاهدت بضعة أيام كي أتقن بعض كلماتها:

- ليكوا عِند العرب حق ما بيصير تروحوا بدونه.

نظروا ناحية السيارة بقلق، وبعد نظرة قصيرة ألقاها حسن على المكان أكدت له أنه لن يجد هنا صريخ ابن يومين ولو وقف على شعر رأسه، ولذلك دفع جسده بالسيارة ولحق به ياسر ثم ركب خالد بدون تردد. مرت لحظات من الصمت قطعها صوت حسن:

- لو رايح ناحية المركز يبقى كتر خيرك.

قال سيف أننا سنوصلهم لبيوتهم، فرفض حسن متعللاً ببعد المسافة.. ووسط إصرار سيف ورفض حسن تلقّت خالد ناحية ياسر، وصاح وكأنه بركان كان

يكتم حمماً لم يستطع أن يحملها بداخله أكثر من ذلك:
- أخدتنا على خوانة بنت الكلب.. ويمين الله لو شفتها تاني لأكلها بسناني.
ألمح من المرآة وجه ياسر الذي احتقن بالدماء وهو يبدل نظرات حذرة بيني وبين خالد، مما يعني أنه يطلب من صاحبه ألا يتفوه بكلمة أمامي، ولكن الوقت قد فات.. نعم، أعطونا بداية ممتازة لإدارة الحوار فاستحضرت بذهني كلمات مقتضبة بلهجة بدوية صحيحة:
- اسمها حورية، وهي حورية.. زينة بنات العرب.
جرت على لسان حسن كلمة بصوت خافت لم يصل لسمعي منها إلا حرف (ع)، قالها وهو يطل بعينيه على الطريق من النافذة المجاورة له، ورمقني سيف بنظرة ففهمت أنه يطلب الإذن.. فلما خفضت رأسي وقبضت بكفي على عصاي عرف أني أذنت له، وهنا بدأت الحكاية كما قالها سيف أو كارم:
- حورية بنت سيدنا.
بداية غير موفقة !.. خفت أن تطولني أيديهم بالانتقام، فقاطعته بقولي:
- سود الله وجهها يوم تبيضّ الوجوه.
فعاد يكمل حديثه:
- جدودنا قالوا "يخلق من ضهر العالم فاسد".. وسيدنا المختار...
قالها وهو يشير إليّ فقاطعه خالد موجهاً سؤاله إلى بنبرة حماسية:
ـ أنت المختار؟
هزة رأس خفيفة تؤدي الغرض، بداية رائعة.. عرفوا عن المختار ما جعلهم يكنون له قدراً ليس بقليل من التقدير والاحترام.. هذا وإن كان صمت صاحبيه يقلقني.. وقبضت بيدي على العصا مرة أخرى فأكمل سيف حديثه كما بدأه:
- سيدنا ما في بينه وبين ربنا حجاب.. وهي شيطانة، تغوى الجبل، لو مالت له بخصرها ينهد.. عشقها رجال أشراف، وهي ما عشقت حدا.
قليل من ضخامة الصوت تضفي على الجملة رهبة، هكذا قلتها مقاطعاً حديث

سيف:
- ثبر.. ملعون، نجس.
- مين؟
قالها خالد. فأجابه سيف:
- ثبر هادا عشيقها.. مرفقاه من ييجي عشر سنين.. شيطان من آل إبليس.. غوته فعاشرها معاشرة الأزواج، وختم عليها بختمه إن ما يقرب لها حدا إلا ويصير بين الخلايق مَرَة.
فجأة يثور حسن، فأرى بروز العروق برقبته:
- ملناش دعوة إحنا بالكلام الفارغ ده.. مدام هي بنتك يبقى أنت كبيرها، وحقنا عندك.
أجيبه بكلمات أحاول أن أهدئ بها ثورته، ثم أشير إلى الطريق وأنا أؤكد أنني سأعطيهم ما يرتضونه من الحق بعد أن يصلوا إلى ديارهم.
- لجل ما تفضلوا تايهين.
- بس إحنا مش تايهين على فكرة.
قالها خالد !.. أعرف أن ما فعلته بهم مارينا كفيل بإثارة غضبهم وثورتهم لأيام قادمة، أعرف هذا كما أعرف أنني مازلت أحمل لهم كثيرًا من الإبهار.. ولكن الطريق بدا خاوياً فأقلقني هذا، حتى أن كارم لاحظ قلقي فأراد أن يتعجل القادمين بكلاكس طويل يكاد يصل لسبع ثواني !.. قاعدة هامة: لا تثِر شكوك الفريسة بتصرف شاذ.
وكان لابد من معالجة غلطة سيف حتى لا تثير شكوكهم، فسألته:
- إيش بيك؟
تدارك خطأه فأجابني ببساطة بما يعني أنه خُيّل إليه أنه يرى في منتصف الطريق قطة.. ولم يطل انتظارنا أكثر من ذلك، بعد دقيقة أو أقل ظهر عدد كبير من الفلاحين رجالاً ونساءً بأعمار مختلفة يقطعون الطريق أمام السيارة، وهم

يهتفون (مدد يا سيدنا المختار مدد)، (شي لله يا حبيب الله)... إلى آخره من العبارات الصوفية يرمون بها حولي وهم يتدافعون على نافذة السيارة فيقبلون يدي تباعاً، وهنا نزلت من السيارة فانطلقوا يطوقون يديّ ويمطرونهما بالقبلات. وما طال الوقت وهم على هذه الحالة حتى سحبني سيف ناحية السيارة، وأنا أتطلع لوجوه الشباب مستغلاً عتمة الليل وذاك الحائل المظلم الذي توفره نظارتي، فرأيت الدهشة في عيونهم بلغت أقصى درجاتها.. وظلوا صامتين لبعض الوقت حتى تطوع ياسر لكسر الصمت:

- أنت مين؟

سؤال تقليدي تلزمه إجابة غير تقليدية، تنفست الهواء الرطب وقلت ببساطة:

- عبد فقير إلى الله.

وصل التوتر بهم إلى حد لا يوصف، انخرس خالد وأطلق حسن لسانه مشككاً في كل شيء، حتى دار بعينيه يتفقد تفاصيل الطريق ليؤكد أنه ليس نفس الطريق الذي جاء منه، قلت:

- قلنا ليكوا عند العرب حق وما بيصير نسيبكم تايهين.

- وأنا قلت لك إحنا مش تايهين.

هكذا صاح خالد محتجاً.. التوتر وصل إلى أقصاه، أكاد أفقد السيطرة على عقولهم.. (بين لهم كرامة) قالتها مارينا وأكدت أن إساءة اختيار الوقت المناسب قد يضر بمصداقية المختار في الأيام القادمة.. قالتها وأكدت على الوقت المناسب أكثر من مرة. رفعت يدي الممسكة بالمسبحة ورميت القنبلة في لحظة حاسمة:

- أنت أكتر واحد تايه يا خالد.

دارت بينهم نظرة حائرة رأيتها بوضوح من المرآة الأمامية.. تساءل مندهشاً:

- عرفت اسمي منين؟

تكلم سيف في وقت غير وقته، كلمة خاطئة في هذه اللحظة قد تفسد كل شيء:

- سيدنا يعر.....
قاطعته بصوت جهوري حاسم:
- وعلّم آدم الأسماء كلها.
ياسر: أنت عاوز تفـ.....
قاطعته هو الآخر.
لا وقت للجدال.. هذه ساعة للكرامات، من يقطع نفحة من الوحي في لحظة ملهمة !
- ليش يا خالد بتدور على ورث جدودنا وعنديك خير جدودك ما له حصر؟!
- أنت بتتكلم عن إيه؟
قالها خالد وقد أكل الفضول عقله، فأجبته وأنا أشم ريح النصر آتيا من المقعد الخلفي:
- الأرض خير.. وأرضك عمرها سبع تلاف سنة.. جسها حفار صعيدي من ربع قرن، وخبر والدك رحمة الله عليه أن خيرها كتير.. ورث جدودك، حقاتك.. تسيبه وتدور على مال الناس؟!
ودارت الأحاديث دورتها، ثم استقر الصمت وسط اضطرابهم وانبهارهم بما تأكدوا من أني أعرفه عنهم، كرامة لأحباب النبي.. "حـــــــــــي".. أطلقتها قوية يخشع لها الإسفلت وتطرب بها القلوب المطمئنة، وكأني درويش رفع الحجاب بينه وبين السماء السابعة، وفي الوقت نفسه مرت أصابعي على المسبحة بسرعة معقولة وأنا أتفحص وجوههم المضطربة في المرآة، ثم أخرجت من جيب الجلباب حبة أفيون، وضعتها تحت لساني وأخذت أتأمل الطريق المظلم وأعمدة الكهرباء الخربة على جانبيه..

* * *

- قالوا لي أنك مش عاوز تتكلم.
صوت الطبيبة أعظم من تواشيح النقشبندي.. !

- اسمي أميمة توفيق.. أنت بقى مولانا اللي بيقولوا عليه؟

مولـــــــــــــاي

إني ببابك قد بسطت يدي..

من لي ألوذ به إلاك يـا سندي..

❋ ❋ ❋

يومها تركتهم عند محل ياسر بعد أن رتبت معهم موعدًا عند فجر اليوم التالي متحججاً بضرورة إتمام حق العرب، ولم أزد..

وسلكت طريق العودة كما تم الاتفاق مع مارينا.. تركت سيف على شاطئ البحر بعد أن وضعت بيديه من النقود ما يكفيه حتى أقابله في اليوم التالي، وانطلقت بالسيارة ناحية الجراج الذي استأجرناه بالمندرة، تركتها هناك.. وبدلت ملابسي لأنطلق ناحية العصافرة بسيارة أخرى، وقضينا يومنا نحاول تحليل كل ما حدث.. وفي اليوم التالي استيقظت من النوم على رنة هاتفي.. وكان المتصل شخصًا واضحًا من صوته أنه خليجي يطلب شراء فرش حشيش، مطلوب على وجه السرعة وبأي سعر.. فحددت معه موعدًا، ونزلت لمقابلته ومارينا "رايحة في سابع نومة".. أخذت معي مسدسًا ومطواة زيادة في الاحتياط، وتابعته على الهاتف حتى وصلنا لمكان مناسب، كانا رجلين خليجيين، ومعهما صبي لم يتدخل في الحديث كأنه غير موجود.. سلمت لهم ما طلبوه واستلمت النقود، ومضيت في سلام.

ولما عدت للسكن، وجدتها جالسة أمام جهاز الكمبيوتر، وعدد السجائر بالمطفأة يدل على أنها في حالة مزاجية ليست متزنة، ووقع بصري على الشاشة فوجدتها تعرض المحل من أربعة زوايا مختلفة، والأصدقاء يتشاورون في أمر خطير.. وضّح لي هذا انفعالاتهم وحركات أيديهم.. فسألتها:

- أيه الأخبار؟

فرفعت السماعة عن أذنيها، وأخذت نفساً طويلاً من سيجارتها ثم راحت تنفخ

الدخان ببطء وتلذذ، وأجابت بنبرة هادئة:
- لحد دلوقتي كله كويس.. خالد مندفع، ومتحمس.. ودايماً مبيعرفش يرتب أفكاره.. المفاجأة شتت تركيزه، وده ممتاز..
تسحب من سيجارتها نفسًا آخر فأحثها على أن تكمل كلامها:
- وياسر؟
فتكمل بالنبرة نفسها:
- مرتب جداً.. بس مبيستوعبش كويس، وسرعة رد الفعل عنده رايحه فـ داهية.. والكلام ده مش معناه أنه غبي..
لم أستوعب تحليلها بشكل كامل، وقبل أن أطلب منها التوضيح كانت قد أخذت من سيجارتها النفس الأخير.. ودست العُقب بالمطفأة، وأخذت صورة تقريبية لحسن، وأشارت نحوه وهي تقول:
- المشكلة الكبيرة هنا.
فتساءلت مندهشاً:
- حسن؟!
- عبقري.. كلامه موزون.. متقدرشي أبداً تتوقع رد فعله، ولا تقدر تستوعب هو عاوز يوصل لأيه.. !
- طب والعمل؟
أقولها وأنا أقرب وجهي من الشاشة لأتأمل قسماته، وأغوص بنظري في عينيه الماكرتين اللتين لا تفلح نظارته الطبية في إخفاء نظرتهما.. وأنتظر منها جواباً فلا أجد إلا نظرة ثاقبة، تنتفض بعدها واقفةً، وتدفعني في صدري دفعة قوية تجعلني أتراجع للخلف بضعة خطوات، خطوة أخرى وأصطدم بالسرير، فتدفعني هذه المرة دفعة أقوى من الأولى لتوقعني على السرير، وتجلس على فخذي، وتداعب بيديها نصفي العلوي.. رغبة مفاجئة؟.. أتجتاحها رغبة مفاجئة بعد تمنع طال لسنوات؟.. آه من عوز النسوان !

- طب مش تقولي طيب؟.. صحيح صدق اللي قال: الحريم أمزجة. طب أقوم آخد شاور طاه.

أداعبها بقولي، فتمسك ياقة قميصي، وتجيبني بطريقة شاذة:

- إلا قول لي يا بيبي.. هو أنا قولت لك قبل كده إنك غبي؟

يدهشني سؤالها لغرابته، ولكن قبل أن أستفسر عن ذلك أرى يدها تتسلل خلف العروة الثالثة بقميصي وتخرج دبوسًا غريب الشكل.

- أيه ده؟

أسألها فتصيح بجنون وهي تدفعني بقوة ناحية الدولاب:

- أنت لسه بتسأل؟.. علقوا فيك جهاز تتبع يا خروف.

وقبل أن أفيق من دهشتي، وجدت يدها تقبض على رقبتي بعنف مما جعلني أتنفس بصعوبة شديدة وقالت وهي تضغط على الحروف:

- نضف المكان في ظرف ٣ دقايق وحصلني ع العربية.

هذه هى مارينا.. أحياناً أشعر أنها تتمنى أن تراني أقع في شر أعمالي لتقوم بدورها في إهانتي وتوبيخي بالشكل الكامل، وتستمتع وهي تراني متورطًا، مما يجعلني في نظرها تابعًا ذليلاً !

جمعت كل متعلقاتنا في الحقائب، وتركت أمر البصمات والأشياء الصغيرة التي دائماً ما تكون كفيلة بأن توقع بأخطر عصابة في العالم إن وضعت في يد محقق على القدر المطلوب من الذكاء، تركت ذلك الأمر لخمسة كبسولات إليكترونية شديدة الانفجار موزعة في أركان الشقة.. وضعت الحقائب بالسيارة، وأخرجت فلاشة صغيرة ناولتها لمارينا.. وضعتها هي بدورها في جهاز اللاب توب الخاص بها وهي تطلب مني للمرة الثالثة في أقل من دقيقة أن أزيد من سرعتي، ورأيتها - ككل مرة - تعبث بأصابعها على الجهاز، وتقوم بنقل مجموعة بيانات شديدة التعقيد، ثم تنفست الصعداء وضغطت على الزر (إنتر).. فسمعت صوت خمسة تفجيرات متتابعة، والنار تأكل البناية والشارع كله من خلفنا.

سألتني ونحن في طريقنا عن تفاصيل ما حدث.. فحكيت لها قصة الرجلين الخليجيين، وصاحبهما الصبي الذي لا يتكلم.. فأخذت تسألني عن تفاصيل الهدف منها إحراجي، وإظهاري في صورة العاجز أو الغبي:

- وصلوا لك إزاي؟

- يعني إيه اتصلوا بيك؟

- مفكرتش تسأل نفسك جابوا رقمك منين؟

- إزاي مشكيتش فيهم؟

وأخذت تعيد عليّ مأساتي: هذه هي المرة السابعة، دائمًا أتورط مع الجهاز مما يجعل الأمور تزداد سوءًا، دائمًا أتحرك دون تفكير أو إحساس بالخطر. كلما مرت السنوات يزداد الوضع سوءًا ويكبر وحش القسوة بداخلها وينمو حبها لنفسها بالشكل الذي يؤذي الآخرين..

فتحت جهازها على الكاميرات، فلمحت الأصدقاء الثلاثة مجتمعين بالمحل.. فرأيت الاهتمام واضحًا على وجهها وهي تضع السماعة على أذنيها، وبعد دقيقة أو أقل أشعلت سيجارة وأخذت تنصت باهتمام شديد لبعض الوقت قبل أن ترفع السماعة عن أذنيها وتنظر في ساعة هاتفها، وتقول:

- فاضل على معادك أقل من ساعة.. هتطلع دلوقتي على جراج المندرة تغير هدومك ومتعرضش عليهم أي حاجة النهاردة.

- ليه؟

- زي ما توقعت.. حسن شك فيك.

- طب والعمل؟

- هنتكلم بعدين.. الفلوس جاهزة معاك؟

- آه.

- خلص وتعالى لي على شقة كوم الدكة.

* * *

كانت تنظر ناحيتي كمن ينظر لمعجزة، وقالت كمن يختبر صحة الإعجاز:
- قالوا لي إنك اتكلمت وطلبت تقابلني.
انتظرت ردي وعيناها تحثاني عليه، فرفعت ناحيتها عينًا فاحصة متأملة، وقلت:
- أميمة توفيق.. أنتي أميمة توفيق؟
فابتسمت وجلست على المقعد المواجه لي، وهي تجيبني بحماس:
- أيوه يا مولانا.. أيوه أنا أميمة.
فأريح رأسي المتعب للوراء، وأرى بعينيّ وجه مارينا مشرق على الحائط المقابل.. فأقول وأنا أعني كل حرف نطقت به:
- مش صحيـــح.. أنتي الحكاية اللي كتبها الزمن على ضهر العويل.

* * *

دخلت المحل أتسند على كتف سيف.. ووصل إليّ صوت خالد يتعجل قدومي، فاسترجعت صوت المختار الجهوري، وقلت بعد أن تفحصت وجوههم من وراء النظارة بنظرة خاطفة:
- السلام على من اتّبع الهدى.
فردوا السلام.. كانوا أكثر اتزانًا من ليلة أمس، وكان الجو مهيأ لمناقشة الأمر الذي حذرتني مارينا من مناقشته.. لكنني أمسكت عن ذلك تلبيةً لرغبتها، وطلبت من سيف / كارم أن يحضر الشنطة، فتساءل خالد:
- شنطة أيه؟
تماماً كما قالت عنه مارينا.. متسرع ومندفع، ولما أحضر سيف الشنطة ناولتهم إياها وأنا أقول:
- هيدا حقكم.
- إيه ده؟
هكذا سأل حسن، فأجبته:

- ستين ألف.. حق العرب.. كرامة للرجال، ومرضاة لوجه الله.
أذهلتهم المفاجأة.. وانسحب خالد من لسانه ليبدأ ما صعب عليّ أن أبدأه في اللحظة التي كنت أستعد قبلها لمغادرة المكان، قال:
- ممكن سؤال يا سيدنا الشيخ؟
استوقفني بقوله هذا، وقبل أن أستدير له عائداً.. وقبل أن آذن له بالسؤال كان قد ألقى الحكاية كلها في ملعبي وكأنه حليف لا خصم:
- أنت متأكد أن الأرض فيها خير؟
تنفست الصعداء، وقلت وأنا أخفي سروري ببدء الحوار من طرفهم مما يبعد عني الشبهات:
- خير ما له أول من آخر.
- يعني نبدأ الحفر.
بالفعل يتفوه بكلمات أفضل مما يمكن أن يتفوه به أي حليف، أستغل الفرصة وأقول:
- إيش تعرف عن القبور يخليك تقلق راحة الأموات؟
- يعني أيه؟
هذه المرة كان السؤال لياسر الذي جعلني أشعر بأن الحظ نفسه أصبح حليفي، فقلت:
- مقابر الأجداد ليها حراس.. اللي يفكر يدخلها من غير إذنهم بتصيبه لعنة ما يخلصه منها مخلوق على وجه الأرض.
فتساءل خالد:
- حتى أنت.
مشوار أسبوع أو أكثر ينجز في كلمة ورد غطاها !.. فحق عليّ اختيار الرد بعناية:
- ما أنا إلا بشر مثلكم.. لكني نعرف ناخد الإذن من الحراس بأمر الله.

سأل خالد:
- يعني نقدر نبدأ الحفر إمتى؟
فأجبته:
- في الوقت اللي بتريدوه.. بكرة الضهر بنتقابل عِند مقام العارف بالله سيدنا المرسي أبو العباس.. نقرا له الفاتحة، ونصلي الجمعة جماعة.. وبعدين اللي فيه الخير يقدمه ربنا.
أعرف أن مارينا كانت تسمع كل ما قيل، وأن لديها إرشاداتها الخاصة وتوجيهاتها الغبية.. رغم أنني واثق من أني أجدت هذه المرة لدرجة أنني شعرت بأن شخص غيري كان يتكلم. ولكن القدر أكمل إبهاري في هذا اليوم الذي لا يتكرم الزمان بمثله مرتين.. دخلت الشقة لأجدها تنظر لي وعلى وجهها ابتسامة صافية، ثم فتحت ذراعيها وقالت:
- تعالى فـ حضني.. تعالى.
لم أفق من ذهولي وأنا أترك جسدي ينساب بين ذراعيها، وأغلب ظني أنها تهزأ بي.. ولكنها ضمتني في حضنها وقالت:
- هو دا مولانا اللي أنا أعرفه.. حمد لله ع السلامة يا قلبي.
هل هناك في هذه اللغة مصطلحات قادرة على أن تصف بدقة إحساس ابن الرصيف والشوارع الجائعة وهو يشعر بلذة الاحتواء في أحضان امرأة طالما تمناها من الدنيا؟!
وأخذنا نضع في الساعات القليلة المتبقية خطة العمل والخطة البديلة.. لأن الأحداث جرت بسرعة لم تكن في حسابنا. دائمًا تفضل مارينا أن ترسم الخطط على أسوأ الاحتمالات وتتعمد تجاهل أفضلها.. إذ إنها ترى أن وقوع الأفضل يسهل تطوير الخطة على أساسه بعكس وقوع الأسوأ.. وأصبح كل شيء جاهزًا كما خططنا له، كما جهزت الاحتمالات البديلة.. وناولتني سماعة بلوتوث بلون الجلد وفي حجم حبة العدس، تعلق بملقاط مخصص لها داخل الأذن حيث لا

يظهر منها شيء.. ساعدتني في تعليقها بأذني، وأضافت عليها لمسة خاصة بكريم الأساس بحيث أصبح لونها مطابقًا للون جلدي.. وطلبت مني أن أظل متصلاً بها طوال الوقت، لا أنكر أن هذا ضايقني بعض الشيء إذ إنني لم أستطع أن أرى في ذلك إلا قلة ثقة في قدرتي على التصرف بحكمة.. ولكني لم أملك إلا أن أنفذ لها رغبتها.

والأرض عبارة عن مساحة شاسعة مزروعة بالنجيلة المهملة، ومحاطة بأشجار الموز من كل جانب.. ويطوقها سور من الطوب الأبيض بارتفاع مترين تقريباً، وله بوابة حديدية صدئة.. والأصدقاء الثلاثة يحيطون بي، ليسمعوا الحكاية كما جرى الاتفاق بيني وبين مارينا على تفاصيلها. مقبرة فرعونية من الأسرة السادسة عشر، وخالفني حسن الرأي معتمداً على مرجعيته الثقافية، وأكد أن الإسكندرية قد أنشئت في عام ٣٣٢ قبل الميلاد، وهذا ما يعني أنها لم تكن موجودة من الأساس في عصر الأسر، مما يجعل وجود مقبرة فرعونية بأرض الإسكندرية فكرة لا ترتقي إلى أكثر من خرافة لا أساس لها من الصحة - على حد قوله. فأصررت على قولي، وأكدت أن المقبرة موجودة في هذه الأرض طبقاً لاسمها القديم "أرض راقودة".. وتحركت أتوكأ على عصا وأمرر حبات المسبحة بين يدي، وأتمتم بكلمات لم يسمعوها، ولو أنهم سمعوها لما فهموها.. وضربت الأرض بالعصا في أكثر من موضع، حتى وقفت بموضع منخفض نسبياً وأحطه بدائرة، وكتبت بها "عزاز" وأنا أؤكد لهم أن هذا هو مكان المقبرة.

- مين عزاز؟

تساءل ياسر، فأجبته:

- جني مُسلم.. ما بيحضر غير لعمل الخير.

فشعرت بعناد حسن يزداد وهو يسألني:

- وأنت عرفت منين إن ده مكان المقبرة؟

اقتربت منه، وحركت عصاي كأني أبحث عنه بها حتى لمست بها قدميه، ووضعت يدي على كتفه.. حركات مبررة لديهم أضيع بها أكبر قدر يمكنني إضاعته من الوقت لتعلم مارينا أنني واقع في ورطة اسمها حسن. وبالفعل، شعرت بذلك لما طال صمتي، فلقنتني كلمات رددتها خلفها بلهجة مناسبة:

- بنبدأ الحفر عن قريب بإذن الله تعالى.. وعدتكم بالخير. بس لي عِنديكم تلت حقوق.. إن وفيتم وفينا، وإن خالفتم خالفنا.

.. أول القول أن لا تسألوني فيما لن يبلغكم منه نفع ولا ضرر.

.. والتاني حق العالم على الجاهل، الزموا طاعتي فيما ليس لكم به علم.

.. والتالت حق الـمُبصِر على الأعمى، اتبعوني أهديكم سواءَ السبيل، وتبلغون حسن الخاتمة.. وهذا أجر المخلصين.

لمحت أثر كلماتي على وجوههم فتركت العصا تسقط من يدي، ورفعت راحتي أمام وجهي، وأنا أقول بنبرة أشد قوة:

- الفـــاتحة.

لما سألتني عن انطباعي قلت لها إن حسن هو مشكلتنا الكبرى.. ثم ندمت على ذلك التصريح لما كان يحمله من عفوية تصل لحد السذاجة، وكأني لا أعرفها جيداً.. وكأني لا أعرف أن الغواية أحد أهم أسلحتها.. وكأني لم أكن أتوقع أنها لا تمانع في أن تلقي بنفسها في أحضان حسن لتشغله بسحر أنوثتها عن التركيز في أي شيء آخر. وهذا ما أقدمت عليه بالفعل.. !

* * *

سألتني إن كنت أستطيع أن أمنحها ثقتي، فأخبرتها بأني لا أمنح ثقتي لأحد غيرها..

- أنا مضمنكيش.. ولا عندي أي دليل على أنك ممكن تصوني السر. ومش مضطر أثق في حد عشان أحكي له قصتي، بالعكس.. أنا اللي زيي لو جاله الموت أحسن له يموت فـ سكات.. بس أنا حاسس إني أعرفك من زمان،

وحاسس إني حابب أحكي لك.
- دي حاجه تبسطني أكيد.
- وأنا يبسطني إني أشوفك.
- أعتبره غزل؟
قالتها وهي ترسم على شفتيها ابتسامة صادقة.

* * *

نظرت في المرآة وأنا أكمل ارتداء ملابس المختار فوجدتها تقف خلفي مباشرةً.. كعادتها تتواجد في المكان ببساطة دخول الهواء إليه، يخيل إليّ أحياناً أن الصاوي علمها فنون السحر لا القتال.. ألتفت إليها فترفع هاتفها أمام عيني وتقول:
- تعرفهم؟
صورة لرجلين خليجيين.. هما نفس الرجلين اللذين قابلاني بحجة طلب الحشيش ووضعا جهاز التتبع بقميصي، فصحت متحمسًا:
- أيوه صح.. هما دول.. جبتيهم أزاي؟
وتخبرني بأن الرجلين ذهبا يحاولان شراء الأرض بأسرع وقت وبأي ثمن، ثم وقفت تعدل ملابسها أمام المرآة وهي تنظر لنفسها بإعجاب، وأشعلت سيجارة وهي تقول ببساطة:
- في حد شايفنا كويس وبيلعب قصادنا.
وعجبت لتعاملها مع الأمر ببساطة، وكدت أعبر لها عن مخاوفي.. لكنها - قبل أن أنطق بكلمة - عادت تقول بالبساطة نفسها:
- إحنا لازم نخلص الموضوع ده بسرعة.. أنت عارف هتعمل إيه؟
فوجدت الفرصة متاحة لأسألها:
- انتي متأكدة م الحكاية دي؟
فرأيت في عينيها ابتسامة عابثة، وقالت باستهزاء:

- خايف؟
فنفيت التهمة عن نفسي بقوة:
- أنا مخافش من الشيطان نفسه.. هخاف من حتة عفريت؟
ثم أخذت السيجارة من يدها وسحبت نفسًا طويلاً.. دائماً ما أفعل ذلك. أحب طعم الفلتر المبلل بشفتيها.
- أنا بس مش فاهم، إزاي واحد زيي عمره في حياته ما دخل في سكة زي دي ببساطة كده هيحضر عفريت؟!
- التعويذة اللي معاك من كتاب مشهور اسمه شمس المعارف.. حاجه متجربة وعمرها ما خيبت.. بس أهم حاجة متنساش الطلسم.
- متقلقيش.
قلتها لأداري بها قلقي من الحكاية كلها.. بداية بالتعويذة الغامضة والطلسم الغريب الذي حرمت عليّ فتحه، حتى النهاية التي لا أعرف كيف سنكتبها إلى هذه اللحظة.. يضايقني أنها دائماً ما تحتفظ بالنهايات لنفسها.
ووضعنا اللمسات الأخيرة طبقاً للتطورات.. ثم تركتها وذهبت.
جاءوا في موعدهم.. أخذت أنظر لحسن من خلف النظارة كما ينظر الغريم إلى غريمه.. هذا هو الشاب الوسيم ابن امبارح الذي أخذها مني، ولعنته في سري ألف مرة وأنا أسمع خالد يحكي لهم تفاصيل مقابلة الرجلين اللذين يرغبان في شراء الأرض، حاولت أن أبدو مستمعًا لما يقال باهتمام لكن وجه حسن كاد يطير عقلي من مكانه.. هل نام معها؟.. هل منحته ما رفضت أن تعطيه لي أكثر من مرة؟.. واندفعوا يثرثرون بكلام تافه مثلهم.. وطلب حسن منهما أن يفكرا معه في حيلة تمكنهم من إيقاف عملية البيع، وكأنه كان يعطيني إشارة البدء فقلت بنبرة من يستطيع السيطرة على الأمور:
- أجلوا لنا البيعة سبوعين.. بنكون خلصنا كُل شي.. وبعدين خلوهم يبيعوا الأرض ويستنفعوا بحقاتها.

وسألني ياسر متعجباً:
- أنت متأكد أننا نقدر نخلص في إسبوعين؟!
وقال خالد وكأنه يصر على أن يكون له دور في الحوار حتى لو لم يضف جديدًا:
- أسبوعين كفاية؟!
فأخذت أشرح لهم الخطوات التي ستتبع لفتح المقبرة - تماماً كما أكدت مارينا - دون زيادة أو نقصان.. فقاطعني خالد لما قلت لهم أن الهدية التي سيرسلها حرس المقبرة إن نحن قبلناها يحرم علينا الحفر.. قاطعني بجملة تافهة مثله.. ثم أشرت لياسر وقلت:
- بريدك عوني الليلة.. هتلاقي ورا ضهرك لوازم الحفر والتحضير.
- تمام.
ثم أشرت لحسن بورقة الطلسم، وقلت:
- خلي هادي معك.
- أيه دي؟
- الورقة هادي فيها طلسم، أول ما بشاور لك أننا نهينا طقوس التحضير بتحرقها وترميها فـ الحفرة اللي هنحفرها.. وإياك تفضها لجل ما تنضر.
ثم فتحت باب السيارة وأنا أقول:
- توكلنا على الله.
ثم وضعت يدي على كتف سيف وأشرت له قائلاً:
- نزلني يا كارم وخليك ما تغادر السيارة.
فهموا بالنزول وتعثر حسن، حتى أنني التفتّ بعيني ناحيته فجأة.. ثم تداركت خطأي على الفور.. لم يلاحظ أحد أنني صوبت نظري إليه مباشرة.. فارتحت لذلك.
وأنهى ياسر عمله.. صنع بالأرض حفرة عمقها متر ونصف المتر تقريباً وقطرها متران.. وخلال فترة الحفر كررت التعويذة في سري أكثر من مرة

حتى لا أنسى منها حرفًا، قالت مارينا إن التعويذة إن نقص منها حرف واحد كفيل بأن يبطل مفعولها كأنها لم تكن.. والطلسم مكمل للتعويذة.. مكمل ضروري، بدونه قد ينقلب السحر على الساحر ويؤذينا عزاز. وأخذت أنظر إلى الجمرات التي أشعلها ياسر بناءً على توجيهاتي.. لا أنكر أن فكرة تحضير عفريت في حد ذاتها كفيلة بإدخال الرعب في النفس.. حتى لو كانت نفس رجل ميت القلب مثلي.. اللعب مع الأشباح ليس كاللعب مع البشر. لكن ثقتي بنفسي هي ثروتي الوحيدة في ذلك الوقت، فلم أقدر على التراجع وإن كنت أتمناه.

أشرت لياسر بأن يلقي الفحم المشتعل بالحفرة، وبعد أن فعل ذلك أشرت له إشارة ثانية متفقًا عليها فألقى البخور عليه.. وتصاعد دخان كثيف أخذت أستنشقه حتى شعرت بالاختناق، والخدر يسري بأطرافي فأخذت أخرج طاقتي بالمسبحة، وأخرجت الزجاجة الصغيرة.. أكدت مارينا على ضرورة إظهار الزجاجة أمام أعينهم، كما قالت أن بالزئبق الأحمر نصف مهمة التحضير.. ولما ألقيت منه قطرات بالحفرة صدر عنه صوت غليان مرتفع لدرجة أنني كدت أجري مبتعداً لكنني تمالكت نفسي بصعوبة أمام كثافة الدخان المتزايدة والصوت الآخذ في الارتفاع، وقلت التعويذة:

- بسم الله.. خالق الإنس والجان، القادر في عُلاه.. سلام عليك عزاز بن صاقف بن قويصم.. سلام عليك وعلى سيدنا سليمان بن داوود بن يسى، ومن خدموه ومن اتبعوه من أجدادك الصالحين.. احضر بحق من قال للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرها.. طيخاش، أيوش، أبيوش، طيهوش، أطيهوش، أنتخوش..

وشعرت بارتياح عجيب لما أخرج حسن الورقة من جيبه وألقاها في الحفرة ببساطة دون أن يأخذه عناده لفتحها.

وعاد ابن اللئيمة لحضنها كما عدت لوحدتي.. من بيت الصاوي لسرير حسن يا مارينا وأنا الذي انتشلتك من الضياع أعيش وحيداً.. لا تتكرمين عليّ بكلمة حب تروي قلبي العطشان. هي لي، أنا صانعها ومعلمها الذي يتحمل عجرفتها

وسخافتها كأب رحيم بصغيرته وكعاشق يذوب في محبوبته.. ستدور بها الأرض كما تلف الخمر رأسي، وستعود بعدما ينتصر عليها الزمن ويرسم تجاعيد قاسية على وجهها الجميل.. ستعود وستجدني أفتح ذراعي وأقول: أخيراً؟.. ليس لها مكان إلا أرضي كما نشأت بها بالمرة الأولى.. أنا البداية والنهاية والآخرون تتحقق بوجودهم المصلحة.. أكل عيش لا أكثر.

في البار أماكن لأمثالي من الضائعين والمسحورين بفتنة النساء.. تعود النادل على أن يقابل من عينتي عشرات الناس كل يوم، فلا يبالي باحمرار عينيّ وروحي المهلهلة.. يعرض خدماته فأطلب زجاجة براندي، فيذهب ثم يعود بها مع قليل من الشيبسي والسوداني ومكعبات الثلج. وأصب الكأس بعد الكأس وأنا أحاول الاتصال بها فما يكمل الجرس رنته الثانية حتى تعلن شاشة الهاتف أنها رفضت المكالمة.. هي الآن في حضنه. تلوث كرامتي.. تستهين بكبريائي.. أحاول الاتصال بها مرات ومرات حتى تقبل المكالمة فأصيح بكل ما أوتيت من قوة:

- أيـــــــــــــــــه.

تسألني:

- مين؟

لأعلم أنها معه.. الغبية لا تعلم أنني أتصل لأني أعلم أنها معه.. فيزداد هياجي:

- يمين بالله لو لمس منك شعرة لأقتلك وأقتله.. أنتي بتهرجي؟

فتجيب بهدوء وتحفظ:

- أنا كويسة.

فيطير عقلي، وأصب الكأس في جوفي.. وأصرخ كأسد جريح:

- انتي تعملي الحركات دي على أي حد، مش على مولانا يا روح أمك.

فأنهت المكالمة.. وضربت الهاتف بالحائط المواجه لي فتطاير بالمكان قطعاً متفرقة.. وانهارت كل حصوني وأعلنت هزيمتي فانسابت الدموع من عينيّ.

أنا لا أهزم.. أنا مولانا الذي نشر الرعب في القلوب ونزع الأمن من الشوارع

ذات يوم.. أنا لا تهزمني امرأة حتى لو كانت مارينا. قال مرزوق ذات يوم: أول جريمة قتل حصلت على الأرض كانت عشان حُرمة. لماذا خلق الله النسوان؟.. هربت من قريتي بسبب امرأة، وقتلت صاحبي بسبب امرأة أخرى لم تحترم تضحيتي.. في الحقيقة أنا لم أرتح يوماً لحياتي معها.. النصب والاحتيال والمراوغة والتخفي هي كلها أمور تناسب النساء.. أما الرجال الحقيقيين أمثالي فالأجدر بهم أن ينشروا الرعب في النفوس والفوضى بالشوارع.. غيرت كاري واتّبعت هواها إرضاءً لها، لكنها لم تفكر في إرضائي يوما ما.. أحبها، والحب لعنة وضعف، أعشقها، والعشق مذلة وخضوع.. وليتني أستطيع أن أكرهها، لكنني لا أقدر على هذا.

❊ ❊ ❊

تأملتني بنظرة متعاطفة وقالت بحنان:

- صدقني أنا قلت لهم يوقفوا جلسات الكهربا.. والله العظيم أنا مش مسئولة عن اللي حصل.

اسمها أميمة توفيق.. هكذا قرأته على لوحة مكتبها.

❊ ❊ ❊

اللحظة الحاسمة.. الهدية / العطية.

وقفت أمام الحفرة المغطاة، ومعي الأصدقاء الثلاثة بوجوههم المتطلعة ونظراتهم المتحفزة.. حاولت أن أبدو هادئًا واثقاً من النتيجة رغم خوفي وقلقي من إخفاق التجربة، وقلت بثقة مصطنعة:

- هالحين بنخرج العطية.. سموا بسم الرحمن الرحيم واستعيذوا به من الشيطان الرجيم.

ثم أشرت لياسر وأنا أقول:

- توكل على الله فهو حسبك.

وبدأ في إزاحة الطبقة الأولى، ثم أخذ يرفع الألواح الخشبية بمعاونة خالد، وأنا

أبتلع ريقي بصعوبة.. شعرت أن الزمن توقف عند هذه اللحظة أو يمر ببطء شديد، فمرت وكأنها عام أو أكثر، ورأيت انتصاراتي الماضية تتحول بين لحظة وأخرى إلى تراب لا قيمة له.. ماذا أفعل لو وجدوا الحفرة خالية؟ رتبت كل شيء مع مارينا إلا هذا.. توقعنا أسوء الاحتمالات لكننا لم نفترض ولو للحظة أن الحفرة قد تُـخيب آمالنا، بل على العكس هي كانت واثـقة من أن الـحُـفرة ستخرج لنا أثراً ثميناً.. وتوقعت أثرًا بعينه.. !

- دا دهب؟

هكذا تساءل خالد بانبهار.. فأفقت من شرودي، ومددت يدي ليناولني الكأس وأنا أرمقه من خلف النظارة بإعجاب.. تماماً كما توقعت مارينا !!.. ومسكته بين يدي، ثم أخذت أقلبه وأنا أمرر أناملي على النقوش المحفورة عليه من الناحيتين. كأس من الذهب، نقش عليه من الجانبين كلام باللغة الهيروغليفية، وفي الجانب الأول رأيت فوق الكلمة رسم واضح لتاج الجنوب مع تاج الشمال (تاج المملكة المصرية القديمة).. ومن الناحية الثانية أعلى الكلمة رسمة لشعار غريب، فرحت أفسر ما يرونه تماماً كما أخبرتني مارينا.

- صواع الملك.. سّقاية العزيز يوسف بن يعقوب رضي الله عنهما.

فانتفض ياسر كمن ضربت الكهرباء جسده فجأة، وقال:

- نعم !.. يعني أيــه !.. أنت عاوز تقول أن دي مقبرة سيدنا يوسف؟!

كنت أتوقع رد الفعل نفسه من حسن الذي أكتفي بالمراقبة وهو يعقد ذراعيه ويحتفظ على شفتيه بابتسامة لم أفهمها.. وقلت لياسر وأنا أرمق حسن بطرف عيني:

- أنا ما لي حق القول.. التاريخ هو اللي بيقول.

فخرج حسن عن صمته.. تحرك ناحيتي بخطوات واثقة وهو يقول:

- نقطة بقى ومن اول السطر.. قول لنا بالظبط بقى، أيه هو اللي بيقوله التاريخ.

أوقعتني مارينا.. وأنا لا قبل لي بمواجهة حسن بثقافته وأضطلاعه على كتب

التاريخ وحكايات الأولين، لكنني لم أملك إلا أن أكمل دوري حتى النهاية، فقلت:
- بيقول أن يوسف بن يعقوب مكنه الله في الأرض من بعد سجنه، وفي مراسم التمكين قال له الملك: تمنى عليّ شي أحققهولك فـ الحال.. فقال يوسف للملك: هب لي من لدنك ساقيك وصاحب سجني، فإني أعلم أنك جواد كريم. يومها أتقدم الساقي بين الناس من حاشية الملك لحاشية يوسف، وهو شايل على كفينه هادي.
ورفعت الكأس أمام أعينهم، ثم أكملت:
- هدية الملك لابن يعقوب، وبعد حين وهبها يوسف لصاحبه.. ولما انقضى عهد يوسف أحب صاحبه الزهد في متع الدنيا، وكرس اللي باقي من حياته لدعوة الناس لعبادة الله الواحد، رب الصديق وأخوته.. هو قال يوسف قبل ما يموت قال له يا صاحب السجن والقصر بلغ دعوتي للناس، لكن الدنيا ما بتبقى على حالها.. القصر صار له صاحب ضعيف لاف على عقله الكهنة والغربان، خلو الكريم ينزل، خرجوه من داره منفي لهون.. هنا في راقودة عاش صاحب الصديق وأندفن.. وأندفنت معاه عطايا ما لها حصر، السقاية هادي وغيرها كتير من ثروة القصر..
فرفع ياسر حاجبيه وهو يقول:
- يعني دي مقبرة...
فقاطعته إمعاناً في تصدير الرهبة إلى نفوسهم:
- ساقي الملك خادم يوسف بن يعقوب وصاحبه.. هذا ما كتب أجدادنا الأولين على جدران المعابد.
فاندفع خالد كطفل فرح بلعبة:
- دا معناه أننا فعلاً وقعنا على كنز.
لم ينطق حسن.. تمت المهمة بنجاح.
- رجعوا العطية مكانها وأهيلوا عليها التراب.. بينا وبين فتح المقبرة خطوة.
ونطق حسن ليستوقف خالد الذي ترك جسده يسقط بالحفرة ومعه الكأس، نطق

بكلمات مقتضبة لا توضح ما يدور بعقله:
- ثانية واحدة.. محتاجين ناخد صورة للكاس.
أعرف أن مارينا سمعت كل ما يقال عن طريق الجهاز المعلق بأذني، لكننا كنا نحرص على ألا ندير أحاديثنا المهمة أمام سيف، فبمجرد أن ودعته وأنا في الطريق لجراج المندرة قلت:
- للمرة الأخيرة هسألك.. عرفتي منين إن المقبرة هتخرج الكاس بالذات؟
وجاءني صوتها من الجهة الأخرى:
- هتفرق معاك؟
- على الأقل مبقاش حاسس أني زي الأطرش فـ الزفة.
- توقعت.
- مش مقتنع.
- عنك ما اقتنعت.
مارينا.. مارينا.. مارينا.. ملعونة، وبنت كلب.
إلى متى سأظل أتبعها؟.. أمنحها كل ثقتي وأترك لها تدبير الأمور، فتكافئني بألا تظهر لي من الحدث إلا ما يكفي لتحركي خطوات معدودة، وكأننا لم نكن شريكين.. وكأني واحد من الغجر الخصيان الذين يجعلهم الصاوي دائماً في خدمتها.. امرأة تمشي بالطرقات وهي تعرف أنها محاطة في كل وقت برجال يحملون الأسلحة لحمايتها، هي لا تراهم.. لكنها إن وقعت في الخطر مرة يظهرون من كل مكان وهم على أتم استعداد لإبادة حي بأكمله في سبيل تأمينها وحمايتها. امرأة كهذه لا يمكن أبداً مقارنتها بالفتاة الصغيرة التي فشلت في تخليص نفسها من محاولة اغتصاب جماعية بالطريق العام.. لن تعترف بفضلي عليها أبداً، هي نفسها أصبحت خطر على وجودي.. معربدة، ماجنة، رخيصة بلا خُلُق.. هل تمانع في أن تنهي وجودي إن كان في هذا ازدياد قوتها؟.. سيخرج الصاوي من سجنه بين يوم وآخر، سيخرج ليجدها أكثر شراسة فيقوي شوكتها

وتتحول إلى وحش يأكل كل ما يقابله. مارينا يا مُعلِمة إبليس.. قد وجب على أن أتخلص من سحرك، لأثبت وجودي.. وتعظم قوتي، كما كانت في الزمن الجميل.
ذهبت إلى مكتبة الإسكندرية، لأبدء البحث بنفسي عن كل التفاصيل التي لقنتها لي، فتلقيتها وكأنها مسلمات.. كيف عرفت مارينا أن الأرض ستلد كأساً؟!.. كل الكتب تؤكد نفس المعلومة.. حتى هذا اليوم لم يعرف الباحثون زمن وجود العزيز يوسف بمصر لكنهم توقعوا أنه وجد في عصر الهكسوس بناءً على النص القرآني الذي لقب الحاكم بالملك ولم يلقبه بفرعون كما هو الحال في قصة النبي موسى عليه السلام، والهكسوس في اللغة المصرية القديمة "حكا خاسوت" وتعني الحكام الأجانب أو الملوك الرعاة. ولهذا الرأي رأي آخر يدعمه ويقويه، حيث قيل إن الوزير الأقوى بالدولة أو رئيس الوزراء بلغة الزمن الحالي لم يلقب بالعزيز إلا في عصر الانتقال الثاني الذي بدأ من الأسرة الثالثة عشر حتى الأسرة السابعة عشر، وهو نفسه عصر احتلال الهكسوس لمصر.. إذن أجمعت الآراء على أن يوسف دخل مصر في زمن الهكسوس دون تحديد أعوام حكمه أو الملك المعاصر له بشكل دقيق.. ومن العته أن أصدق أن الباحثين عجزوا عن تحديد زمن حكم يوسف وعجزوا عن معرفة الملك الحاكم، ولكنهم استطاعوا أن يعرفوا صاحب سجنه !.. ذلك الرجل لم يُذكر في كتب التاريخ إلا بصورة عابرة، مثله كمثل الكأس لا أثر لوجوده تقريباً. إذن خدعتني مارينا.. وبحثت في أرفف المكتبات عن الكتاب الذي يحمل بين صفحاته التعويذة، فوجدته بعد أن طال البحث بمساعدة مشرف القسم وفرد أمن.. كتاب من الورق الأصفر الضعيف، جلدته مفككة، مكتوب عليه بخط عريض "شمس المعارف الكبرى. تأليف الإمام أبي العباس أحمد بن علي البوني".. وأخذت أبحث عن التعويذة بين صفحاته وكلماته الصغيرة الحجم المكتوبة بخط معووج أوجع عيني، واستغرق البحث ساعتين أو أكثر حتى وجدتها.. بلى، وجدتها.. كانت تعويذة لتحضير عزاز جني من خدم سليمان

الأولين يحضر ليفك المربوط بعمل سفلي، ولا قيمة لها إن لم تقرأ بطقوس محددة ليس من بينها حرق طلسم !

اتضحت الأمور كلها.. أنا نفسي جزء من اللعبة. ما أخرجتني مارينا من سجني إلا لتستخدمني كستار لعمليتها الخطرة.. كما توقعت، القذرة تضعني تحت قدميها لترتفع هي وتزداد فُجراً.. فلحت تربيتك يا سيد يا صاوي. نجحت تجربتك، كبرت الفتاة العابثة على يديك وصارت قنبلة تفتك بأقرب الناس إليها. لا ترى إلا نفسها ولا تسمع إلا صوتك.. شعرت بذلك يوم عادت إليّ بجسد ممشوق ووجه صلب، وعينان إنطفء بريقهما الذي يشعرني بالألفة. لكنك لن تفرح بها يا صاوي.. تجربتك المدمرة ستنتهي على يدي.. نعم سأقتلها قبل أن تعيدني إلى السجن مرة أخرى.

هاتفها مغلق.. انتظرتها بالبيت يوم بعد يوم لكنها لا تأتي. أدير عيناي في كل اتجاه متوقعاً ظهورها فجأة في ركن من أركان الغرفة كما تفعل دائماً.. لكنها لا تفعل هذه المرة. أفكر في طرق متعددة للانتقام وأترك خيالي يسبح في دمائها المنسابة على بلاط الغرفة. أتخيل نفسي أطوّق جثتها بالكبسولات، وأسرع الخطى ناحية السيارة، فأفتح بابها وأجلس على عجلة القيادة ثم أفتح اللاب توب وأضع الفلاشة، ثم أتعامل بحرفية مع البيانات المعقدة وأضغط على زر إنتر وأنا أبتعد بالسيارة بعيداً عن البيت.. أتخيل أنني أقرأ في صفحة الحوادث خبر انفجار هائل بكوم الدكة والعثور على أشلاء جثة مشوهة، مع إضافة قليل من التحابيش اللازمة للتشويق من قِبل محرر الخبر.. أتخيل أنني أتزوجها وأراها تجلس في الكوشة بفستان الزفاف الأبيض، وأنا ارتدي بذلة سوداء وأمد إليها يدي وأحنى ظهري قليلاً كما يفعلون في الأفلام.. فتأتي إليّ حتى تلتصق بي وتضع يديها على كتفي وألف خصرها بذراعي ونرقص سلو وسط إعجاب المعازيم بنا ودعواتهم لنا بالتوفيق.. أتخيل أنها امرأتي. أتخيل أنها أم ولدي. أتخيل أنني قاتلها، وأنها قاتلتي.. يا مارينا يا بنت الكلب.

- كاس كمان والنبي يا مينا.
وشممت رائحة عطرها تداعب أنفي.. فكدت أفتح عينيّ، إلا أن صوتًا ما بداخلي أخذ يسخر ويؤكد أنها مجرد أمنية تتجسد في رائحة كاذبة.. وشعرت بأنامها تعبث بشعر صدري، ففتحت عيني هذه المرة لأراها حقيقة مؤكدة. وفي لمح البصر سحبت خنجري من تحت الوسادة ورفعت جسمها عن الأرض، ثم ألصقت ظهرها في الحائط بعزم ما عندي. فتوجعت، ولم أهتم لذلك.. كنت قد حسمت قراري وانتهى الأمر. وضعت الخنجر على رقبتها، وقلت بشراسة:
- جيتي لقدرك يا وسخة.
فقالت وهي تلهث بضعف لم أرها عليه من قبل:
- إهدى يا مولانا.. والله العظيم أنا اتضحك عليا زي ما اتضحك عليك.
لن آكل من هذه الحوارات مرة أخرى.. قديمة.
- الكلام ده تقوليه لحد غيري.. دا أنا عاجنك على إيدي يا روح أمك.
فقالت بصوت واهن مبحوح وكأني أمام واحدة غيرها:
- اقتلني لو مش مصدق.. أنا طول عمري حاسة أني هموت مقتولة..
الحرباء تغير لون جلدها إذا أحست بالخطر يقترب منها.
- تصدقي صعبتي عليا.
قلتها ساخراً، فأنزلت من عينيها دمعتين وقالت وهي تغالب البكاء:
- والله العظيم الموت أهون عليا من نظرة شك فـ عنيك.. يا مولانا دا أنت حب عمري اللي أنا مستحملشي قسوة الدنيا لحظة واحدة من غيره.
تراخت يدي القابضة على الخنجر، وانتفض قلبي بين الضلوع منتشياً.. حلم أم علم؟.. أهذه مارينا؟.. أهذا الكلام الذي قيل خرج من بين شفتيها؟.. أعيديها.. كرريها ألف مرة ولن أملّ.
- حب عمرك؟!
أخيراً يتحقق الحلم. أخيراً أفوز بقلبها بعدما أتعبتني الحياة وغربلتني الشكوك،

فصرت كالمجنون لا أعرف العدو من الحبيب، فحسبت الحبيب عدواً.. كذبت قلبي وتركت عقلي للظنون.. مارينا تحبني.. تحبني كما أحبها.. تدمع عينيها وتطلب مني أن اقتلها لأنها لا تحتمل سوء ظني وغباوتي.. مارينا صادقة.. أنا أصدقها. أحبها. أعشقها. أتمناها منذ عرفتها.. ثلاثون عاماً وأنا أراقب نموها وأنوثتها وأتمنى أن تأتي هذه الساعة التي تصارحني فيها بحبها.

- مقولتيش ليه من زمان؟

هكذا قلت وأنا أترك الخنجر يسقط على الأرض، وأجلس على مقعد قريب، فقالت مستسلمة:

- كنت خايفة.. الحب ضعف، وأنا مش بحب الضعف يا مولانا.

فنفيت قولها بحماس:

- لا يا ميري.. الحب مش ضعف.. أنا بحبك، وأنا مش ضعيف.

فسقطت الدموع من عينيها بلا حساب، وقالت بصوت أحببت ما به من أنوثة وحياء:

- وأنا بحبك يا مولانا.. بحبك أوي.

ولم تزد.. ففضلت ألا أجرح جلال الصمت في لحظة كتلك، وغبت في عالم مسحور.. أمنيات بعيدة تتجسد حقيقة ملموسة.. ومالت نفسي إلى حياة مستقرة، فقلت لها:

- إحنا لازم نهرب.. لازم نبعد عن كل اللي عاوزين رقبتنا، ونتمتع بحياتنا بقى.

فجلست على طرف السرير، وواجهتني بوجه مستكين وقالت:

- خلاص يا مولانا.. معدش ينفع.. إحنا طريقنا بقى اتجاه واحد بس.

- ليه يعني؟

- هنهرب من مين ولا من مين؟.. من الجهاز، ولا من الصاوي، ولا من صحاب العملية.

العملية لها أصحاب !.. أي لغز هذا؟!

- عملية أيه اللي أنا مش فاهم فيها حاجة دي؟
اقتربت مني، ووقفت خلفي تحتضنني بذراعيها، واستنشقت رائحتها لأملأ بها أنفي، وقالت:
- الموضوع كبير أوي يا حبيبي.. دول ناس من بره مصر، واتفقوا معايا أني أعمل كل اللي يقولوا لي عليه من غير ما أعرفك حاجة، وقالوا لي أني لو عرفتك أي حاجة ممكن يخلصوا علينا إحنا الاتنين.. كل الموضوع كان مترتب من عندهم، ومفيش كلمة طلعت من دماغي.. حتى التعويذة والورقة اللي أنت اديتها لحسن.
حق عليها الآن أن توضح سر الطلسم الذي أثار شكوكي ناحيتها، فقلت:
- أنتي عارفه إيه اللي كان مكتوب في الورقة؟
- آية قرآنية.

* * *

أعظم الاشتهاء قبلة ناضجة من شفتي مارينا.. كانت تلتهم شفتيّ متلذذة، وكنت أسكر بريقها.

* * *

بدأنا نعمل معًا لهدف مختلف أهم وأعظم من جمع الأموال.. تجمعنا رغبة في تدمير الأعداء، لنبدء بعد ذلك حياة طبيعية بعيدًا عن الصراعات مع من يعرفون عنا ما يؤذينا.. فاختارت أن نبدأ بتصفية الخليجيين الدخيلين لأنهما أضعف أعدائنا ولا نعرف لأي طرف يعملان.. وعرفت أن مارينا توصلت بمساعدة الغجر لرقم هاتف أحدهما، وحدثته في الأيام الماضية كفتاة تبحث عن مغامرة.. وأكل هو الطُعم.. فتحت على اللاب توب الخاص بها برنامج يتعقب الهاتف ويحدد موقعه أثناء إجراء مكالمة معه، فجعلت البرنامج يتصل بهاتفها، وسجلت به رقم هاتف الرجل، وعلمتني طريقة التعامل معه للبحث عن موقعه بعد فتح المكالمة مباشرةً.. وأجرت المكالمة، ثم نفذت تعليماتها، وقام البرنامج بتحميل بطيء

مكتوب فوقه "جاري البحث عن الموقع المطلوب".. فأشرت لها أن تطيل مكالمتها أكثر وقت ممكن.. كانت تتحدث مع الطرف الآخر كامرأة عاهرة. تكلمه عن الحب وتقول له إنها متزوجة، وأن زوجها ضعيف جنسيًا.. تقول له إنها بحاجة لرجل يفهمها.. والبرنامج مستمر في البحث والتحميل.. تقول له إنها تشعر بأنها تعرفه من زمن طويل وأنها تتمنى أن تقابله. تقول له إن كلامه حلو، وتسأله إن كان شكله حلوًا ككلامه؟.. ورسم البرنامج علامة صح، وكتب "تم تحديد الموقع بنجاح".. فأشرت لها بنجاح العملية. فقالت لمحدثها إن زوجها أتى من عمله، وأنها مضطرة لإنهاء المكالمة.. ووعدته أن تحدثه في وقت آخر.

وذهبنا إلى الإبراهيمية، عمارة ٣٩ شارع اللاجيتيه الطابق العاشر.. شقة رقم ١٠٩ كما هو موضح بالبرنامج.. اختبأت بآخر الممر ووقفت مارينا أمام باب الشقة المطلوبة، ضربت الجرس ففتح الباب.. سمعت صوتًا بلهجة خليجية يسألها عن هويتها، فرأيتها تمسك هاتفها، وترفعه أمام عينيها دون أن تنطق بكلمة.. فرن هاتف محدثها. وبدل الرجل عينيه بنظرة مستفهمة وهو يبدو عليه أنه لا يصدق حقيقة ما يراه، فقالت مشجعة كعاهرة محترفة:

- أها.. أنا نشوى.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة، وقال مرحباً وهو يكاد يطير فرحاً:

- يا هلا.. يـــا هـــلا وغـــلا.. والله الدنيا بحالها نورت.

قال الجملة الأخيرة وهو يستقبلها في الداخل ويغلق الباب. وكان عليّ أن أنتظر خمسة عشر دقيقة قبل أن أبدأ الهجوم.. اخترت لنفسي ركنًا آمنًا لا يعرضني لأعين الجيران إن فتح أحدهم باب شقته، وقفت في مكان الأسانسير المُعطّل وأخذت أعدل وضع القناع الأسود على وجهي بحيث لا يظهر منه إلا عيناي، وأخرجت المسدس، نزعت خزانته وكدت أخرج الرصاصات من جيبي لأعمر الخزانة لولا أن الفكرة لم تعجبني.. فأعدته لمكانه، وأخرجت الخنجر.. وأخذت أقلب نصله اللامع أمام عينيّ. ثم نظرت لساعتي فعرفت أن الموعد قد حان..

ضربت باب الشقة بقدمي ضربة واحدة ناهية، ففتح محدثاً صوتًا قويًا بعد اصطدامه بالحائط. واجهت الأول.. يجلس بملابسه الداخلية أمام طاولة عليها زجاجات بيرة وأشياء أخرى لزوم القعدة. حاول أن يهاجمني وهو يغالب خوفه، فرفعت جسده بيد واحدة وألصقته بالحائط ثم أخرجت الخنجر، ومررته بحركة خاطفة على رقبته فتفجرت منها الدماء، وتركته على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة.. واقتحمت الغرفة الوحيدة المغلقة، فرأيتها تتمدد على الفراش بقميص نوم أسود قصير ومثير، ورأيته - بكرشه المدلى أمامه - يشرع في خلع ملابسه الداخلية.. فتجمد الدم في عروقه وتراجع للخلف وهو يرمي ناحية خنجري الملوث بالدماء نظرة خاطفة، ويستجمع ما تبقى له من شجاعته ليسألني:

- أنت مين؟

فلوحت له بالخنجر، وأنا أقول متصنعاً صوتًا آخر غير صوتي، أكثر خشونة وغلظة:

- نائب عزرائيل.

فوقع على الأرض وزحف بيديه متراجعًا للخلف، وهو يهتف بصوت مبحوح يجاهد ليخرجه:

- يا نواف.. يـا خـــــوي.

- أنا وعدته أنك هتروح له بسرعة.

ومررت الخنجر على رقبته كما فعلت بالأول.. وقبل أن ألتفت لمارينا شعرت بشيء ثقيل يصطدم بمؤخرة رأسي، ودارت الغرفة بي.. ثم أظلمت.

* * *

هذا النمل المنتشر برأسي يتمخطر بحرية كأنه في موطنه المألوف، والمصباح المعلق بأعلى الحجرة يخرج محتوياته على السقف والجدران.. ثعابين حمراء، وأعقاب سجائر، ودياصورات في حجم علب الكوكاكولا، وصراصير بأجنحة دجاج. وعزاز الذي أضاع شبابه في خدمة سيدنا سليمان يأتيني من الحائط

المجاور ويجلس بجواري، ثم يضع ساقًا على الأخرى.
- خوزقوك يا مغفل؟
يقولها ساخراً، فأقول:
- خرجني من هنا.
فيضحك ويتساءل دون أن يتخلى عن لهجته الساخرة:
- ليه؟.. أنت فاكرني عفريت؟
فأنظر ناحيته باستنكار، وأسأله:
- أمال أنت أيه؟
فتتسع ابتسامته، ويقول:
- أقول لك ومتزعلش؟
فتشتعل النار داخلي، وانظر ناحيته لأوبخه فأجده قد اختفى !.. وأعود لمراقبة الكائنات التي تخرج من المصباح. كأس العزيز يُسقِط خمراً. وكائنات فضائية يسيل من أعينها سائل مخاطي. ونجوم.. نجوم كثيرة خضراء وزرقاء وبيضاء، مختلفة الأحجام.. تصطدم ببعضها فتحدث شررًا يكاد يحرق بي الحجرة.

❊ ❊ ❊

فتحت عينيّ لأسمع صوت أقدام كثيرة تقترب، وأخذت أنظر في المكان حولي، فرأيت جثة الرجل السمين تلوثني بالدماء.. فتذكرت كل ما حدث. مارينا.. هل نجحت في الهرب أم أصابها مكروه؟.. من الذي عرف مكاننا، فهاجمنا قبل أن نشعر بوجوده؟.. أم جاءتني الضربة من مارينا؟!.. كيف؟.. مارينا تحبني كما أحبها. هي قالت ذلك وأنا أصدقها.. هل يدفعني غبائي لأن أظن بها السوء مرة أخرى؟!
وسمعت صوت سيارات الشرطة، وقبل أن استعد للفرار وجدتهم أمامي يرفعون البنادق الآلية في وجهي، فصرخت كأسد وقع بالمصيدة:
- أيـــه.. في أيـــــــه !

❊ ❊ ❊

- ٢ -

أنا حسن سليمان.

شاعر سكندري.. فرد من جيل الانكسار. جيل تنصل من الهزيمة فتنصلت منه الحياة !.. أنا ابن الرصيف، ومقاهي وسط البلد، والشوارع الضائعة تحت أقدام الحفاة العابرين إثر المطر.. ابن شرعي لديوان الشعر العربي، تطور منطقي لامرئ القيس وكعب بن زهير والمعري وابن زيدون وأحمد شوقي وبيرم أفندي.. دليل مادي ملموس لانحطاط العصر منذ بداية نشأتي الأولى ببيت عائلة الصايغ، وحتى سنوات الشيب المبكر والرغبة في الانسحاب الهادئ من حياة القطيع.

أول الغيث قطرة، وأول القصيدة كلمة معلقة بجيد فتاة يحبها الصبي حبًا يباغت عذريته ويتلصص على بلوغه.. عرفت مها. عرفت أبجديات الحب في عينيها العسليتين.. صغيرة لها من الأعوام عشرة، ولها من الضفائر اثنتان. لحضورها تأثير لم أعهده من قبل. تتزايد بالقلب خفقات لتتجسد على شفتيّ اضطراباً حين أقرأها السلام. وتتلبس يدي رعشة ما أنزل الله بها من سلطان. أنثاي الأولى.. صغيرة بالكاد يتفهم عقلي البسيط احمرار وجنتيها في ساعة المصافحة.. !

ظهورها في حياتي كان حدثاً له قدر من التميز والخصوصية، طفلة في الصف الرابع بمدرستي، أكبرها بعام واحد.. استطاعت ببراءتها وعفويتها أن تجتذب اهتمامي، وتثنيني عن الاعتكاف الدائم على روايات الجيب.

ومثل كل مواليد الثمانينات عشت طفولة تآمروا على تشويهها.. (الثمانينات وما أدراك ما الثمانينات).. حقيبة مدرسية تزن ألف طن. طابور الصباح بطقوسه العسكرية حمام شمس مقيت !. تربويون تتبرأ منهم التربية، وصبية ضائعون أمام حاضر مهترئ ومستقبل مظلم. لم أستطع الصمود أمام كل هذا العفن، فآثرت العزلة.. حكايات الروايات خلقت لي عالماً يليق بي.. وفي المدرسة

الإعدادية فقدت صحبة مها، أو - لدقة التعبير - فقدت ملازمتها الدائمة، كما فقدت قدراً لا يستهان به من الاحترام حين نعتني بعض الطلبة بالفيلسوف، فحاولت معالجة الأمر.. مارست القراءة في الخفاء كما يمارس الاستمناء. طلبت من والدي أن يبدل نظارتي العريضة بأخرى صغيرة تليق بسني.. عاند في البداية لأني لم أطلعه على السبب الحقيقي وراء ذلك، تحرجت.. المهم أنه وافقني على طلبي في نهاية الأمر.. ورغم ما فعلته إلا أنني لم أستطع أن أغير معاملتهم. ظللت في نظرهم الفيلسوف (مع ضحكة هازئة أو سبة عابرة)..

في ذلك الزمن كان النظر في عيني فتاة عاشقة أعظم من الاستماع لأغاني الحب وأجمل من كل قصائد الغزل. أقول صدقاً أنني لم أتجرأ على مواعدة مها إلا بعد زمن ليس بقليل من الحيرة والتردد. ليس ثمة مبالغة إن قلت إن تلك الفتاة التي بدأت تتكشف لي تفاصيلها وهي بنت أربعة عشر عاماً تختلف كثيراً عن الفتاة التي سكنت مخيلتي، الأولى - صاحبة المدرسة الابتدائية - كانت صورة حية لصبية أخرى استوطنت بتفاصيلها المنمقة في أحلامي الوردية، بجرأتها ورغبتها العارمة في التعبير عن حبها، بغضبها الدائم من سلطة الأهل وتعنت المدرسين.. لا، هذه ليست مها.. فمها ليست بنت أفكاري، هي شخصية مستقلة.. بالأحرى خليق بي أن أعترف بأنها بنت أفكارها المتواضعة.. لن أنكر أن طبعها الهادئ وشخصيتها المستسلمة تسببا لي في قدر لا يستهان به من الإحباط.. إحباط سرعان ما وأده ذلك الحب المتقد في قلبي.. هو طبع المحبين، مهما تنافرت عقولهم فإن القلوب تبقى لها من الأسباب ما يصنع التآلف الحتمي، والتجانس المحمود.

لحظة..

هل كنت - بعقلي الصغير آنذاك - أفكر في كل هذه الأمور حقاً، أم أن ما حملته لنا الأيام ترك بصمة شائكة على حقيبة الذاكرة؟...

* * *

أشتاق إلى حضن أمي..

هو ذا الإحساس بالدفء الذي لم يعترني يوما ما، إن مرارة اليتم في قلب اليتيم غصة تتجدد في كل ساعة، وجع أبدي يصحبه من وقت فقدان رحمة الإله المتجسدة في أمه حتى تذهب روحه إلى بارئها ويستريح جسده المنهك في قبر أعد خصيصاً ليضمه حتى يوم النفخ في السور العظيم. أنا ابن منال. تلك المرأة التي ماتت وهي تلدني. كل ما بلغني عنها صور بألبوم أبي، وروحها الطيبة التي تسكن ذكرياته كما يسكن الرحيق بزهور الربيع.

- كانت أجمل بنت في محرم بيه.

هكذا يقول دائماً، فأحثه على الاستطراد. ربما هذا هو الوقت الوحيد الذي أحث فيه أبي على الاستطراد. بشكل عام يروقني حديثه عن الذكريات، لكن ربما لا يعجبني أنه دائماً ما يتناول الأمور من وجهة نظره. سليمان الصايغ - أبي - رجل مثالي أكثر مما ينبغي.. فقط حين يكون كلامه عن منال أتركه يسترسل بدون حساب أو مجادلة. أول مرة تقابلا فيها بنادي الجياد، الكلام الذي سكن في قلبيهما ولم يجري على اللسانين. انتظاره لها على محطة ترام الرصافة بالساعات في أيام متكررة. الصديقة المشتركة التي سهلت له التقرب منها. تأنقه الزائد عن الحد حين يكون ذاهب لمقابلتها. ابتسامتها التي تبث البهجة في القلوب. صوتها الذي كان يطرب له موج البحر. القبلة الأولى. تعانق الكفين.. الحب في عصر السلام. زمانهما كان رائعاً، أما هذا الزمان فيغتال براءة الحب في القلوب العاشقة. الأنثى سلعة مشتهاة، والرجل عابث شبق.. في بحث لا ينتهي عن لذة مناسبة. زمن اللهو المقيت.

للذين يبحثون عن الأصل والنسب والجذور العائلية.. "منال طه محمد الغريب".. هكذا ينطق اسمها كاملاً.. بلى، هي بنت طه الغريب الرجل الجنوبي الذي جاء إلى الإسكندرية ليعمل شيالاً بالميناء ثم ارتقى إلى القاع !

الإسكندرية كلها تعرف أنه جمع ثروته من تجارة المخدرات، وهذا لا يمنع أن

مصانع الأسمنت تدر عليه أرباحاً خرافية.. وخصوصاً أنه كان مقرباً من السلطة في السنوات الأخيرة من حكم السادات.. يقال إن قربه من الرئيس شخصياً جعله يتحكم في سعر مواد البناء.. ويشاع عنه أن الرئيس السادات شخصياً قال له ذات مرة:

- إسكندرية أمانة في رقبتك يا طه.

هذا هو طه غريب.. جدي الذي لم أتشرف به يوماً ما، ربما يرجع كرهي له وتنصلي من أي صلة تربطني به لما فعله مع أمي حين قررت أن تتزوج أبي.

أنا لا أصدق الحكايات الرومانسية المفتعلة، والأزمات ذات الأبعاد الميتافزياقية التي يبتدعها صناع الدراما بكل أشكالها.. ولكن هذا ما حدث بالفعل، فتاة ارستقراطية تصر على الزواج من شاب يساري له ملف ملغم في أمن الدولة، ومصنف لدى الجهاز القمعي من المشاغبين الخطرين على الأمن العام !.. شاب يقضي نصف العام بين أهله وذويه، والنصف الآخر يقضيه بالمعتقل.. فقير؟.. كلا. عائلته عرفت دائماً بأنها من أعرق وأغنى عائلات الإسكندرية، لكنهم محض تجار ولا علاقة لهم بالسياسة وأهلها، فلا سند لهم يقربهم من السلطة ولا عدو لهم يحاربهم ويفسد تجارتهم، هذا ما كان قبل أن يأتي سليمان إلى الدنيا ويتسبب في شقائهم.. سليمان الذي أسر قلب الفتاة فأصرت على الزواج منه، وهو المغضوب عليه من أهله لإصراره الدائم على الخوض في مخاطر المعترك السياسي، إذن فلا كبير له. الرجل قد جرب كل الحيل مع ابنته لعدم إتمام الزيجة، والشاب عنيد لا يقبل بأي نوع من أنواع التفاوض.. فتزوجا رغم أنف الجميع.

وبدأ طه في تضييق الخناق..

كتب في وصيته أن تحرم أمي من الميراث، ولكنه لم يكتفِ.. أقسم أن يراها بائسة وهو مازال على قيد الحياة.. فقُبض على أبي هذه المرة بتدخل مباشر منه. وطالت غيبة رب بيتنا لكنه عاد على أية حال.. عاد مختلفاً.. عاد بكسر في

الحوض أسكنه على مقعد متحرك لآخر عمره. وقتها كنت أنا لم أكمل أسبوعي العاشر في بطن أمي.. قال لي سليمان إنه تمنى أن يقف على قدميه مرة أخرى حتى تعود لها بسمتها الصافية.. لم ينكر إحساسه بقدر من المسؤولية تجاه تعاستها رغم أنه دفع الثمن بعجز لا أمل في الشفاء منه.

هل موت منال الغريب كان نتاج النزيف الحاد الذي تبع الولادة العسيرة كما جاء في التقرير الطبي، أم قتلها طمع الجنوبي الذي كره الحفاء وطابت له حياة الترف حتى تملك منه الرعب فتحاشى غضب أولي نعمته؟

* * *

لي حديث يحمل قدراً من الخصوصية عن سليمان الصايغ وصاحبه.

ذلك الرجل القعيد بجلسته المعتادة خلف نافذة مغلقة لا تسمح بعبور الشمس إلا من خصاصها الضيق.. هكذا استقر بمنزله الذي يقع في الطابق الرابع من بناية مكونة من خمسة طوابق مملوكة لوالده، وقد انتقلت إليه ملكيتها بالتبعية وسط خلافات عائلية متعلقة بالإرث.. بناية مصممة على الطراز الأوربي القديم، تقع على ناصية شارع منشا بمحرم بك. ودائماً ما أراه بهيئته المألوفة. بشعره الأبيض المرسل إلى كتفيه، ونظارته الطبية. جالساً على مقعده المتحرك، يقرأ الجريدة في الصباح، ثم يطالع أحد الكتب التي قرأها أكثر من مرة حتى أظنه حفظ فحواها عن ظهر قلب.. وطابت له الحياة على هذا النحو رغم ما يحمله له من رتابة قاتلة، هذا بعد أن ضيع عمره في العمل العام.. يوماً ما كان يذكر اليساريون اسمه بقدر عظيم من التقدير "الرفيق سليمان الصايغ.. أمين تنظيم الحزب الشيوعي المصري بالإسكندرية".. هو كبير أخويه (عفت ومنى)، الكبير الذي آل إليه نصيبه من إرث عائلة الصايغ. ذلك الإرث الذي لم يتبق منه غير البيت العتيق، الذي ينازعه أخوه على أحقية ملكيته، والذي يعيش به وحيداً.. وحساب بنكي بالكاد يدر علينا أرباحًا سنوية توفر لنا الستر بين الناس.. وابتعادي عنه قبل أن أبلغ عامي العشرين كان خياره الذي تمسك به بعدما

دمرت الملاحقة الأمنية حياته، فاخترت سكناً بالحي ذاته حتى أتمكن من الاطمئنان عليه من حين لآخر.. إلا أنني لم أكف يوماً عن إعلان سخطي على أفكاره وتصرفاته، وبرغم ذلك لم أنجح أبداً في أن أجعله يندم على ماضيه.. فقد تعود الرجل على ذلك الغضب الأسري من والديه ثم زوجته، وأخيراً أنا. أظنهم كانوا محقين. أحتج:

- أنت ضيعت فلوس العيلة ع الشيوعيين.

- اليسار هو صمام الأمان.. من غيره هينام الأغنيا بتقلهم على قلب الكرة الأرضية.. كان لازم حد يتحمل المسئولية ويدفع ضريبة الإيمان بالقضية.

أصيح وقد أفقدني هدوءه المستفز قدرتي على التحكم في انفعالاتي:

- مين قال إن الحد ده هو أنت؟!.. أبوك ساب لك ثروة وأنت عايز تسيب لي الجوع متغمس بشوية شعارات؟!!

- اشتغل.. اتعب.. كُل من عرق جبينك.

- أنت مش حاسس بأي ندم؟

- لو رجع بيا الزمن هعمل نفس اللي عملته.

دائرة مفرغة.. لغو لا ينتهي.. نفس الحوار يبدأ في كل مرة لأتفه الأسباب، ويدار بنفس الطريقة تقريباً، ثم ينتهي بخصومة تؤدي لقطيعة لا تطول أكثر من بضعة أيام.. لا أنكر أنني لا أستطيع مخاصمته.. سليمان الصايغ هو صديق الطفولة، هو ذا العجوز المتمرد الذي لا يستريح قلبي حين أغضبه، وإذا اشتدت الخصومة بيننا وقررت مقاطعته نهائياً لا يمر على خصامنا أكثر من أسبوع حتى أجده يهاتفني.

- قلبك بقى أسود يا ابن الكلب.

هكذا يبادرني في كل مرة، فأضحك وتتملك قلبي بهجة غير عادية وتدور الأحاديث بيننا كأن شيئاً لم يكن. لا أحد يمكنه أن يعوض بحضوره غياب سليمان، حتى مها التي تطورت العلاقة بيننا في أيام الجامعة بعدما جمعتنا

مدرجات كلية التجارة. العلاقات تختلف باختلاف طبيعتها.
تضحيات أبي زرعت بداخلي كرهاً للشيوعية والشيوعيين، إلا أنني لم أستطع أن أحمل الكره ذاته لناجي عياد صديق عمره ورفيق كفاحه، فقد كان الدكتور ناجي بمثابة حقيبة ذكريات، بخلاف روحه المرحة ونفسه الطيبة وعلمه الواسع فالرجل صاحب رؤية مغايرة، وذو ملكة غير عادية تمكنه من الإلمام بأدق تفاصيل تاريخ الوطن والعائلة ويقوم بسردها بطريقة محببة لقلبي. دائماً لا أمل حديثه، ربما لأنني أثق ثقة غير مبررة في قدرته على التأريخ بمنتهى الأمانة..
يعتدل في جلسته المفضلة على المقعد المواجه للنافذة الزجاجية المطلة على البحر في اتينيوس، ويقول:
- كنا عيال خايبة.. افتكرنا أننا ممكن نغير الإمبراطورية اللي بناها فرعون في سبع تلاف سنة.
ثم يلعن الدنيا والنصيب والفساد وأيام المعتقل، تلك الأيام حيث عناد الشباب وقسوة التعذيب التي عجزت والدي، وأفقدتهما واحدًا من أعز أصدقائهما.. تكبدا في سبيل دفاعهما عما يؤمنان به - حسب قول ناجي - خسائر فادحة لا يمكن تعويضها بأية حال من الأحوال.
- تعبت؟
أسأله فيتنهد بحرقة وهو شاخص ببصره نحو قرص الشمس المشوب بحمرة الخجل في ساعة الغروب، ثم يباغتني:
- أنا هسافر فرنسا أول الشهر الجاي.
ويأخذ من فنجان قهوته رشفة قبل أن يستدرك وهو باسم:
- هتوحشني قعدتك يا حسن.
هذا ما دار بيننا في حديثنا الأخير. يومها شعرت - أكثر من أي يوم آخر - بأنه يعتبرني بمثابة الابن الذي تمناه من الدنيا.. وبرغم توطد علاقتنا إلا أنني لم أتجرأ يومًا على اقتحام حياته بالأسئلة.. لذلك فأنا أجهل السبب الذي جعل ناجي

عياد يتخذ قراره بالعزوف عن الزواج. أذكر أنه قال ذات يوم أن الزواج مفسدة اجتماعية وأن إنجاب الأولاد هو ميزته الوحيدة.. يومها قابلته بحضرة والدي وهما يشربان القهوة ببيت العائلة.. كانت مها بصحبتي، وكان جو ديسمبر يمنع شعاع الشمس من التسلل عبر خصاص النافذة.. دار بعينيه بين مها ووالدي بعد أن عرفت كل منهما بالآخر، وقال بعدما ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة:

- خلاص؟.. هنفرح فيك قريب يا ابن سليمان؟

مؤكد لم يكن يعلم أن مقولته ستستخدم من قبل مها كفخ لصناعة مزحة ثقيلة لتفضح بها ما يكمن في نفسه وتدخله في جدل لا نهائي.. مارست عليه هوايتها في إلقاء خُطبة مطولة عن قناعاتها بضرورة الحفاظ على الأعراف المجتمعية وما شابه. لكنه لم يتخلّ عن ابتسامته رغم عصبيتها المفرطة، وبدأ يطرح أفكاره عن رفض فكرة الزواج شكلاً ومضموناً، ذلك الرفض الذي لم ير أنه يتعارض مع الحب بأي حال من الأحوال.. يومها لم أستطع أن أتفهم موقفه، فالشيوعيون -كل الشيوعيين- مخلوقات سفسطائية بطبيعة تكوينهم المعقد.. !

أما مها فإني أعرفها وأعرف ميلها الدائم لفلسفة أفكارها حتى لا تأخذ طابع النمطية أو تتهم بالرجعية.. رغم أنها ببساطة تميل إلى فكر التيار المحافظ خوفاً من الاصطدام بأفكار القاعدة العريضة من الناس المحيطين بها. أعلم هذا وأتقبلها كما هي.

باختصار.. يومها رأيت ضدان مصران على الالتقاء بقاعدة مشتركة رغم تنافرهما البيّن.. !

* * *

الجامعة.

لا أستطيع أن أذكر أهم الأوقات المؤثرة في حياتي دون أن أتطرق بالحديث لأيام الجامعة.

عرفت ياسر محفوظ.. عرفته في اليوم الأول مجاوراً لي بالمدرج، لعبت

المصادفة دورها في لقائنا الأول. كلانا بلا صديق، والسبب واحد، فكل منا انطوائي قليل الكلام عدو العلاقات المفتوحة مع الآخرين. ثم تطورت علاقتنا مع الأيام وتوطدت صداقتنا.. وجدت فيه العقل الراجح، وأبهرني تناوله للأمور بشكل هادئ ومتزن. دائماً ما كان يمدني بالرأي الصائب فاعتمدته كحافظ لأسراري قبل أن ينقضي عامنا الدراسي الأول، وكأنني كنت بحاجة لشخص مثله يستشار ويؤتمن.. تقاربنا رغم أنه لم يكن مثقفاً بالمعنى المفهوم، أي أنه لم يكن من هواة القراءة. أذكر هذا لمن يقولون إن الطيور على أشكالها تقع.. فياسر محفوظ لم يكن على شاكلتي، أو بالأحرى لم نكن متطابقين.. وهذا لا يعني أنه لم تكن لنا اهتمامات مشتركة، فقد حلمنا معاً بوطن حقيقي، ومستقبل أفضل بعيداً عن مثالية الشيوعيين وجشع الإسلاميين. لم ننجذب يوماً إلى تيار بعينه، بل على العكس كلما تطرق أحدهم إلى أحاديث السياسة أخذنا نهزأ سوياً من جميع الأحزاب والتيارات، سب الجميع كانت هوايتنا المفضلة. انتعلنا الأيدلوجيات - كل الأيدلوجيات - بضمير مستريح.

هذه هي الجامعة.. سخافة البعض طاقة سلبية تطيح بجنبات البنايات العتيقة، وتعنت الأساتذة لم يهونه إلا رفقة مها وصحبة ياسر. دائماً ما يتملكني الضحك حين أتذكر ذلك التحول الذي حدث بعد فوزي بالمركز الأول في جائزة شعراء العامية التي تنظمها إدارة الجامعة كل عام. الكوادر الطلابية للتيارات السياسية هم نفس الأشخاص الذين كانوا يتجاهلون جنوحي إلى السخرية والاستهزاء من أفكارهم، أصبحوا يتتبعون خطاي ويعترضون على أفكاري التي لا أطرحها إلا في دوائر ضيقة من الزملاء. إلا أن الهالة التي أحاطتني بها الجائزة لم تستمر أكثر من شهر، يبدو أن قياداتهم قد ألزمتهم بتجاهلي بعدما بدا لهم أنني لست أكثر من مثقف ساخر لا يمتلك قاعدة جماهيرية يمكنه التأثير بها. ولكن هذا التجاهل لم يدم كثيراً، فقد عادت ملاحقتي أشد وطأة من المرة الأولى بعدما كشف محمد عبد التواب رئيس اتحاد الطلبة المنتمي لجماعة الإخوان ماهية

أبي.. وسرعان ما تفشى الخبر كالنار في الهشيم، ليجر خلفه مجموعة من المتاعب لا يمكن حصرها. قال وهو يرمقني بنظرة ماكرة وعلى شفتيه ابتسامة سمجة:

- حسن سليمان الصايغ.. أفتكر أن الوالد يبقى سليمان الصايغ رئيس اتحاد الطلبة سنة ٧٦. واحد من أكبر قيادات الحركة الشيوعية في مصر.

قال جملته الأخيرة وهو لا يستطيع أن يخفي إحساساً بالانتصار وهو يقلب عينيه في أوجه الزملاء، وبالفعل وقعت على آذانهم كلمة شيوعية كما لو أن حممًا بركانية اصطدمت بكرات ثلجية. فقد نجح الإسلاميون طوال العقود الماضية في خلط الشيوعية بالإلحاد عند قاعدة عريضة من ضعاف الثقافة الخاضعين بطبيعتهم للابتزاز الديني.

لم تعد الحياة لسابق عهدها، ما فعله عبد التواب - ذو الملامح النحاسية - كان كفيلاً بأن يجعلني محسوباً على تيار بعينه. اليساريون باتوا يتعاملون معي بلطف مبالغ فيه، ويسبقون اسمي بمصطلح (الرفيق). أما الإسلاميون فقد أثاروا حولي اتهامات بالإلحاد والزندقة. وبين قطبي الصراع الأبدي ظللت متمسكاً بالـ (طظ) شعاراً للمرحلة ولكل مرحلة، كما شاركني ياسر في رفع الشعار ذاته مشاركة صادقة، لا مجاملة فيها ولا رياء.. حتى أن مها كانت إذا قابلتنا في أحد شوارع المُجمع رسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، وتتبعها بمزحتها الثقيلة:

- أهلا بأحفاد الأستاذ محجوب عبد الدايم.

مشيرة بذلك لبطل رواية نجيب محفوظ "القاهرة الجديدة".. وهو الذي كان يتخذ الشعار ذاته كأسلوب حياة.

وظلت الأيام تمضي على هذا النحو حتى قابلت خالد القفاص..

* * *

يوم استقرت به الشمس في كبد السماء وكأنها استسلمت لسويعات منتصف النهار فأرسلت من لدنها أشعة حارقة لا تشفي منها علب الكولا، ولا نجح

التسكع على الكورنيش في التخفيف من شدة وطأتها.. وأخذتني قدماي حتى منطقة سيدي بشر لأجد عددًا كبيرًا من الناس يطوق بئر مسعود. عادةً ما يجتمع السائحون والأرستقراطيون والأحبة حول هذا البئر ليرموا العملات طمعاً في استرضاء الحظ، وفي أوقات أخرى يجتمع حوله الحرافيش ليبحروا به فيلتقطون العملات ويمارسون هوايتهم المفضلة: (تحدي الموت) !.. مسابقة العبور إلى الجهة الأخرى من البحر عبر المدق الضيق، أو الموت اختناقاً بتسارع الأمواج !.. يومها كان التجمع أكبر من المعتاد مما أثار فضولي، وحينما سألت عن سبب الحشد عرفت أن أحدهم قد خاض مغامرة العبور إلى الجهة الأخرى لكنه لم يظهر، مما يعني أنه قد احتجز بالداخل، فقررت مساعدته وسط هذا الموقف السلبي من جميع الحاضرين، هكذا يكتفون بالمشاهدة وإبداء الأسف وهم يرون أمامهم شخصًا يحتضر في وضح النهار، وعلى بعد أمتار قليلة !

وقبل أن أكمل خلع ملابسي استوقفني رجل عجوز، وقال محذراً:

- يا ابني الممر ضيق جدا.. أنا نزلته لما كنت في سنك.. ده لا يمكن يساع إلا واحد بس.. طول ما هو لوحده ممكن يخرج، لكن دخولك معاه جوه ملهوش غير معنى واحد.

ثم أسبل جفنيه لوهلة، وقطب جبينه قبل أن يستطرد:

-.... أنكوا تموتوا أنتوا الاتنين.

لا أنكر أن كلماته جعلتني أفكر في التراجع، فسألته:

- طب إحنا ممكن نساعده أزاي؟

- أدعي ربنا أن البحر يسطح وهو ساعتها هيخرج لوحده.

بمجرد أن أنهى كلمته الأخيرة أكملت خلع ملابسي، وأنا أصيح بعصبية:

- أنا لسة هستنى لما تحصل المعجزة؟؟.. لو أنت محتاج تدعي ربنا، أدعيه يخرجنا منها سُلام.

قلتها وتركت جسدي يسقط في البئر.
لا أنكر أن إحساسي بمصارعة الموت كان أشد من رغبتي في معاندة الأمواج، بمجرد أن دخلت المدق الصخري وجدت الظلام يتحالف مع الأمواج ضدي، ظلام دامس عنيد لا يبالي بموضع الشمس في كبد السماء !.. انعدمت الرؤية كما صعب عليّ التنفس، ودار بخلدي أنني لن أجني من محاولتي هذه إلا الإخفاق، فقد ازداد يقيني بأن أي إنسان لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة بمكان كهذا أكثر من بضع دقائق.. وما أضعته مع العجوز من وقت - فضلاً عن الوقت الذي أُهدِر قبل قدومي - كفيلاً بإزهاق روح الغريق، ولكن قبل أن يتملكني اليأس تملكًا تامًا وجدت الممر يتسع قليلاً وارتطم جسدي بقدم الغريق، فوجدته جسداً مستسلماً.. حاولت اجتذابه للخلف كي أعود به لفتحة البئر، ففشلت.. فأدرت جسده ناحيتي حتى صار وجهه مواجهاً لوجهي فضربت أنفه بجبهتي ضربة قاسية بقصد إفاقته وأنا أصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. صرخة تداعت لها الموجات المتتابعة على الصخر الذي تفوح منه رائحة اليود المعتق من ألف عام أو يزيد !.. أما هو فلم يحرك ساكناً، وما أكملت صرختي الثانية حتى تدافع الماء بحلقي وكأنه يطالبني بالصمت.. لحظة بدا فيها الموت متجسداً في أبشع صوره وأشدها وحشية.. حاولت تنظيم نفسي لثواني معدودات، ثم لاح لي بصيص من النور في آخر الممر فعرفت أن الطريق إلى البحر أقرب إليّ من طريق العودة، جربت دفع جسد الغريق للأمام ونجحت المحاولة رغم صعوبتها لما بها من قدر لا يستهان به من تحدي الموج، ولكن ما جعل الأمر أكثر مرونة من المحاولة الأولى أن الممر أخذ في الاتساع بالشكل الذي جعلني قادرًا على التنفس بحرية.
أنقذته.. ولا أنكر أنه قد تملكني شعور بالانتصار لما وجدت قلبه مازال ينبض. محاولات مستميتة لإفاقته خاضها الذين عزفوا عن مد يد العون له.. ضغطات متقطعة على القفص الصدري.. تنفس صناعي.. ضربات خفيفة على الخدين،

مع تمرير الأصابع على الجبهة بحركة دائرية. إلا أن ثقافتهم السينمائية لم تنصفهم في محاولة إسعافه.. فغالبت إرهاقي وصحت بهم:

- بطلوا هري، وأي حد يتهبب يتصل بالإسعاف.

وبعدما اتصلوا بالإسعاف تطوع أحدهم بأن يعبث بمحتويات جيب بنطاله، ليجد ما يساعدهم على التواصل مع ذويه.. ولكنني رفضت ذلك، فقد قررت أن أصطحبه بعربة الإسعاف.. من يعرفني جيدًا يدرك أنني بعيد كل البعد عن فكرة فعل الخير والإحسان إلى الناس وما شابه ذلك من الأفكار المثالية.. أنا نفسي لم أتوصل حتى هذه اللحظة للسبب الذي جعلني أصطحبه في عربة الإسعاف، ثم ألازمه بالمشفى حتى يسترد عافيته. ربما هي رغبة في الإحساس بالتفرد، رغبة المثقف في إثبات تميزه عن العوام بالإقدام على إصلاح الأمور، لا مشاهدتها من زاوية رؤيته الضيقة وهي تزداد سوءاً. وربما هو إغراء معنوي باتخاذ قبس من إرادة الله، الإقدام على إنقاذ إنسان في لحظة الفناء الحتمي هو شيء أقرب إلى فكرة البعث.. منع الموت ما هو إلا شكل من أشكال منح الحياة. هل راقبته في لحظة استفاقته لرغبة مني في مشاهدة الصورة وهي تكتمل كأني خالق يتباهى بما صنعت يداه؟... لا أعلم.

- أنا فين؟.. أنا مُت ولا أيـه؟... لا لا ، لأ ، لأ.. أنا مش عايز أتحـاسب دلوقتي.

هكذا قال خالد بمجرد أن فتح عينيه، قالها وعلى وجهه أمارات الذعر.. فلم أتمالك نفسي من كثرة الضحك.

هذا هو خالد القفاص، طفل في التاسعة عشرة من عمره. مرح، لحوح، طيب، مشاغب، كثير الكلام، قليل السمع، متواضع الذكاء.. هذه هي بعض صفاته الواضحة للعيان.

وظننت أن معرفتي به ستنتهي عند هذا الحد، لكنه أصر على ملاحقتي كما كان طلبة العلم يلاحقون أساتذتهم في الزمن القديم. ولأنه ليس طالب علم كما أنني لست مانحه فقد صعب عليّ تفهّم إصراره على أن يتبعني، بدا لي تصرفه شاذًا

ولا يمت للمنطق بصلة.. مما جعلني أندم في بعض الأوقات على إنقاذي له.. أستطيع أن أقول أنه كان ممتناً لي أكثر مما يجب..!

غريب الأطوار؟.. ربما. نحيف، وله رقبة طويلة ووجه مثلث، بشعر حائر بين اللونين الأسود والأصفر، أما النمش الظاهر على وجنتيه فبدا وكأنه مكمل حتمي لهذا التكوين السريالي.. قال عنه ياسر حين رآه في المرة الأولى:

- مين الواد اللي شبه الكابوريايه الميتة ده؟

أضحكتني دقة التعبير، وأدهشني تقبل ياسر له بعد ذلك. صارا صديقين بعدما وقفا على أرضية مشتركة.. جمعتهما جلسات الحشيش في محل ياسر، وكان الأخير يصر على أن شرب الحشيش مع خالد متعة من طراز خاص، فيحرضني وعلى شفتيه ابتسامة صادقة:

- يا ابني طاوعني وتعالى أقعد معانا.. محدش قال لك اشرب.. أنا عاوزك تتفرج بس.. الواد فقرة، ملهوش حل.. يشرب واتفرج عليه. تحس إنه اتحوّل لبطريق بفَرو وبيقوم يمشي ع الحيط.

ثم يستطرد وهو يضحك:

- طب وربنا أنا بابقى قاعد مش قادر أمسك نفسي من كتر الضحك.

هكذا أستطيع أن أقول إن العلاقة بينهما نشأت على أساس من المنفعة، قد يكون هذا من طرف ياسر فقط.. إذ بدا لي من حديثه المتكرر أنه يرى أن مجالسة خالد في ساعة السُطل بمثابة مشاهدة فيلم كوميدي في صالة عرض تضج بالضحك.. وهذا ما كنت أرى أنه غير أخلاقي بالمرة.

ياسر يعرف أنني أكره المثالية والمثاليين لذلك أدهشه رأيي، وحاولت تبرير ذلك لكنه لم يقتنع.. أنا نفسي لم أقتنع. هل كنت أحمل شعوراً بالمسئولية الأبوية تجاه خالد؟.. لا أعلم.

* * *

ثمة نوع من النساء يثير بداخل الرجل رغبة مُلحة لفعل شيء ما. شيء من نوع خاص.. عابر، ومختلف.
على سبيل المثال، تلك المرأة التي بمجرد أن تتفحص تضاريسها الخلفية تجد نفسك تتمنى أن يكون بينكما ذلك النوع من الصداقة الذي يسمح لك بأن تضرب مؤخرتها في المصعد.
شيء من هذا القبيل اعتراني حين قابلت سماح للمرة الأولى.. تعارفنا في صالون الأستاذ جابر السلاموني. وجه جديد عرفت نفسها للحضور حين طُلب منها ذلك.. وبدا واضحاً أنها حريصة على أن يعرفها الآخرون بصفتها الأدبية، (الشاعرة سماح زايد) هكذا قالت وهي ترفع صوتها وتضغط على مخارج الحروف السبعة للكلمة الأولى، إلا أن هذا لم يكن ذا قيمة بالنسبة لي، فقد شرد عقلي وأنا أمشط بناظري تفاصيلها الجسدية في بحث دؤوب عما قصده لسان العرب بكلمة (حُرمة). ولست بصدد دراسة معجمية للكلمة، بل طاب لي أن أتساءل عما تحمله في طياتها من فلسفات شبقة خبيثة. وخاض عقلي في معتركه فصرت بمعزل عن حديث الزملاء وثرثرتهم فيما ليس من ورائه طائل، ورحت أدقق النظر بتقاسيم جسدها الذي يحمل بثنياته أربعة عقود أو أكثر، وحاولت أن أتخيل كيف كانت في سنوات بلوغها الأولى فعجز عقلي عن التوصل لصورة غير التي تتجسد أمامي واضحة جلية، وكأن آية صانعها تتمثل في كلمة (حُرمة) !.. كأنها ما خلقت إلا لتكون وعاءً طيبًا نفيسًا كلما ألقى فيه من مَني الرجال صاع قال: هل من مزيد؟.. إلا أنني وبرغم كل ما توطن داخلي من رغبات جسدية صارخة تلبي نداء الطبيعة لم أطمح بخيالي النهم إلا في لحظات عابرة، لحظات فاحشة وسوقية.. فإني لم أكن يوماً مِمن ينشدون العلاقات الحميمة مع امرأة عابرة.
وانتبهت لصوت الأستاذ السلاموني يضع حدا لتخيلاتي وهو يسألها أن تلقي على الحاضرين قصيدة من أشعارها.. فراحت تتحرك ناحية رأس الطاولة وهي

تتمايل ذات اليمين وذات اليسار لتتمايل معها رغبتي المكبوتة وأنا أسترق النظر لمؤخرتها المكتنزة، وتتدافع الرغبات داخلي كتدافع جيوش النصر ناحية الأندلس المنشود !.. وتكلمت فتجنت على ديوان العرب بكلمات ملفقة لا يرتضيها الشعر ولا يستحسنها النثر لركاكتها، كلمات بالكاد تصلح للاستعمال في خطاب رومانسي من فتاة مراهقة لحبيبها الذي لا يقرأ !.. وسرت نوبة ضحك بين الزملاء كتمها البعض وأفلتت على استحياء من آخرين.. ولما أنهت حديثها أذن لهم الأستاذ بالتعليق فما كان منهم إلا أن تكالبوا عليها يفندون ويعلنون استياءهم ويمارسون هوايتهم في النصح والإرشاد بأستاذية متكلفة، وباغتني الأستاذ مورطًا إياي:

- طب نسمع رأي الأستاذ حسن سليمان؟

وقوع غير مأمون العواقب بين مجاملة تؤخذ عليّ من الآخرين نفاقاً، وصراحة تضمن لي مناصبتها العداء قبل تمام التعارف، فآثرت السلامة:

- كويس.. كويس.

هكذا رددت وعلى شفتي شبح ابتسامة غير متضحة المعالم، فتمادى الأستاذ جابر في محاولة توريطي:

- (الشِعر) كويس؟

أعلم أنه ماكر، ولكنه يدرك أنني لست بالغر اليسير. حافظت على الابتسامة نفسها، وأجبته بلسان متزن ولهجة غارقة في الحيادية:

- الشِعر؟.. اها، مفيش ثوابت يا أستاذ جابر.. وإحنا كلنا طول الوقت بنتعلم.

فأشاح بوجهه عني باحثاً عن صيد يسير، وقرأت في عينيها أنها راضية، فوسط الهجوم الذي تعرضت له لم تكن تطمح في أكثر مما منحتها إياه. كما نجوت من شبهة الرياء إذ ظن الزملاء أنني قلت ما قلته هازئاً بها. وتعارفنا بشكل أفضل بعد انتهاء الندوة، ثم حملت لنا الأيام قدراً من التقارب وصداقة توطدت بحكم ما تعانيه من وحدة وملل، فهي امرأة ثرية مطلقة وتعيش

بمفردها، لا قبل لها بمشقة العمل ولا حاجة لها بما سيجلبه من مال.. فاقتات الفراغ على أيامها وسط انشغال ذويها من الأهل والأصدقاء بمتاعب الحياة. مقدمة عبقرية لشاب طامع في سويعات للهو والعبث.

وفي الجانب الآخر من حياتي بات توديع أسوار الجامعة لشخصي المتواضع أمراً وشيكاً، إذ كنت أقضي آخر أيامي بالفرقة الرابعة.. وكأن تلك الأسوار أقسمت أن تأخذ معها أحلى الأوقات وتجردني من أقرب الناس لنفسي. أخذت الهوة في الاتساع بيني وبين مها.. عشت عامين أكاد أرى بعيني العمق المتزايد للفجوة الذهنية والعاطفية بيننا، إلا أنني لم أتخيل يوماً أن حكايتنا قد تنتهي ليبقى كل منا لدى الآخر مجرد ذكرى لا أكثر. لا أنكر أن وجود سماح في حياتي بدأ يشغل حيزًا من الوقت الذي كنت أمنحه كله لمها، ولكنني لا أظن أن هذا هو السبب وراء حالة الخمول التي باتت تعترينا، وقد زادت هي من صعوبة الأمر عندما حاولت وضعي تحت ضغط الابتزاز العاطفي.

- أنا جاي لي عريس.

- مبروك.

- أنا مش بهزر على فكرة.

- ولا أنا.

- مش فاهماك.

- مطلوب مني أعمل أيه يعني، أزرغط لك؟.. مبعرفش للأسف.

وإمعاناً في الابتزاز قابلت عصبيتي بالدموع، وبح صوتها وهي تقول:

- أنا مش عارفه أتصرف.. بابا شايفه مناسب ومستقبله مضمون.. أنت لازم تتحرك.

- أتحرك أزاي يعني؟.. أجي أتقدم لك وأنا أيد ورا وأيد قدام؟.. طب أقول لابوكي أيه؟؟

فقالت ما اقتحمت به ثوابتي المجتمعية بمنتهى الوقاحة، وكأنها شخص آخر لا

يقيم لمحرماتي وزنًا يذكر.
- روح لحد من خلانك، هما هيلاقوا لك شغل.
للوهلة الأولى وقعت جملتها من أذني موقعاً غريباً كأنها قيلت بلغة لا علم لي بها، ولكني سرعان ما تيقنت من حقيقة قولها، فجن جنوني وتجسدت أمامي صورة أمي وسنوات شقائها كأنني عايشتها يوم بيوم وساعة بساعة. وكأن رفيقة عمري الماثلة أمامي تجهل هذا التاريخ، أو أنها تضعني مرغماً في موضع المجبر على إذلال نفسه لأجل الفوز بها !. فتدافعت الكلمات على لساني أشبه بالصراخ:
- أنتي أكيد أتجننتي.. أقسم بالله العلي العظيم لو قلتي حاجة زي دي تاني لاخسرك وأنا مش ندمان.
فهالها ما سمعت، وصعب عليها أن تتخيلني أهدد بالفراق كأن السنوات التي عشناها نحلم بأن يتوج حبنا بالزواج استحالت في ناظري هباءً منثورا. ولم آسف على ما تفوهت به، إذ بدت لي في هذا الوقت على قدر من الأنانية يصغر أمامه شأني، وتضمحل آلامي وآلام عائلتي. لحظة بنيت فيها السدود بيننا، ووقف كل منا من صاحبه موقف المتحفز.. فتركت جسدي بين أحضان سماح يُسكّن ما أصاب القلب من جرح دامي. سماح التي يوم تجرأت على ضرب مؤخرتها في حارة مظلمة اتقدت شهوتها وطالبتني بالمزيد !. صددتها في بادئ الأمر، ثم وجدت في شدة عوزها مستقراً لنفسي الملتاعة وروحي الضائعة.
وظلت الحياة تمضي هكذا بين فتاة لحوح لا تضع لمتطلباتي وزناً، وامرأة شبقة تستنزف ماء ظهري وكأنه حقها المكتسب. حتى استيقظت في أحد الأيام على صوت هاتفي يرن بإصرار مزعج، وكان المتصل عم سعيد خادم أبي.. أخبرني أن مخدومه يمر بوعكة صحية ألزمته الفراش.. فهرعت إليه آسفاً على انغماسي في شئوني للدرجة التي جعلني أنقطع عن زيارته لثلاثة أشهر متصلة.. ووجدته شاحب الوجه، هزيل البدن كنجم يشرع في الأفول.. فغالبت تأثري، ومحوت

عبرة كادت تسقط من حدقة عيني، وواجهته باسماً:
- جرا أيه يا سليمان يا صايغ.. وحشتك كلمني يا جدع مش تعمل لي فيها عيان وتجبني على ملا وشي !
- أنت اللي عيان.. أنا هعيش ١٠٠ سنة يا ابن الكلب.
قالها بصوت واهن، فتأكدت من تدهور حالته، وظللنا نتبادل الدعابات هرباً من مواجهة ما أقره الطبيب "إن هي إلا أيام معدودات".. حقيقة مؤلمة لا أجني من مواجهتها إلا إحساساً بانعدام قيمة الحياة وفقد الرغبة في البقاء. ويبدو أنني فشلت في إخفاء تأثري بما يدور بخلدي، فرأيته يحول وجهه عني، ثم شخص بنظره ناحية سقف الحجرة واكتست نبرته بجدية مفاجأة:
- أمك وحشتني.. جت لي أمبارح في المنام فاتحه دراعاتها، ووشها منور زي البدر.. قالت لي تعالى يا سليمان، تعالى استريح في حضني زي زمان. وأنا كنت فرحان.. صوتها بيضحك وجسمها طاير. ولاقتني بروح لها، جسمي ساب واتحرك لوحده ناحيتها كأني في بحر والموج بيحدفني عليها... بس فجأة وقفت. قلت لها: وابنك؟.. قالت لي: تايه. قلت لها: التايه يرجع، أصله مش ابن حرام. قالت: طب خليك، عشان لما يرجع لازم يلاقيك قاعد ومستنيه.
ورفع يمناه يجفف بها الدمع المنساب على خديه، ثم كور يسراه وضربني بها في كتفي وقال بحزم:
- متعيطش ياض خليك راجل.
يبهرني تماسكه المزعوم. ظننته بصدد السؤال عن التيه الذي حدثته به والدتي لكنه - كعهدي به - آثر الصمت تاركاً لي حرية الإفصاح، فتجاهلت الأمر برمته حتى أوشكت الزيارة على الانتهاء، فلم أجد من الإفصاح بد، وبلا تمهيد بادرته بلسان مضطرب:
- الحكاية بتخلص.
- قرارك ولا قرارها؟

- مش عارف.
- مرتاح؟
- حبها مرض مجنون.
- وسماح؟
أزعجني تفوهه باسمها لأني لم أحدثه عنها من قبل، وانتفضت كأن صاعقاً كهربياً ضرب أطرافي دون سابق إنذار، فاندفعت أسأله بحنق:
- أنت بتراقبني؟
- أنا مش محتاج أراقبك عشان أعرف أنت بتتنفس كام نفس فـ الدقيقة.. أنت ابني.
لم أجد في كلامه مبررًا كافيًا، فازدادت نبرة صوتي حدة وأنا أطالبه بالتوضيح، فقال:
- أنت عارف أن الكلام دايماً بيجيلي.. أنا مبروحلوش.
فوقفت مستعداً للرحيل وقد بلغت من الغضب مكانة عظيمة وصحت به:
- لحد إمتى هتفضل تتعامل على إنك إله.. أنت لو آخر إله ع الأرض هيقتلوك لو وجودك تعارض مع مصالحهم الشخصية.
وتركته متجهاً إلى الباب فأوقفني محتداً:
- مش هيتصلح حالك إلا أما تفهم إن في حاجة اسمها المصلحة العامة.
تأملته بعيني لثوانٍ معدودات، وأنا أضم شفتيّ مشمئزاً.
- ضيعت عمرك في اليوتوبيا.
قلتها آسفاً، ورحلت.
ومرت أيام آثرت فيها العزلة، أغلقت هاتفي وقبعت بمنزلي هرباً من حسنات أهل الأرض وسيئاتهم، وكأني كتب عليّ أن أمضي في الحياة مطارداً من رغبات الآخرين، تلك الرغبات التي تنال من كينونتي واستقلالي الكامل.. لماذا لم أفكر يوماً في (نظرية تبادل المنفعة)؟.. الأمر في ظاهره يبدو بسيطاً لكنه

يضم في طياته دوافع على قدر لا يستهان به من الحقارة. لا شيء بدون مقابل، لا عطاء بلا ثمن.. الحبيبة تمنح العاطفة لأنها بحاجة لمن يمنحها العاطفة، بذلك تكتمل أنوثتها. الحبيب المُكمِل، جزء من كل !.. الأمر لا يتعلق بك أنت دون غيرك.. لو لم تكن أمك قد ولدتك من الأساس، أو لو لم تكن الصدفة أوقعتك في طريقها لكانت بادلت غيرك المشاعر ذاتها والقبلات ذاتها والنظرات الهائمة التي تفصح بها عن ما هو كامن في قلبها.. أنت كغيرك.. أحمد مثل الحاج أحمد !. والصديق الذي يحتاج لمن يسأله المشورة ويشاركه اللهو ويتقاسم معه الأغنيات والسجائر هو أيضاً يبادلك المنفعة. حتى لغة الجسد بين العاشقين منفعة متبادلة، تقضي وطرك وتمنحها اعتزازًا بجسدها، وكلما أغرقت نفسك في تفاصيلها كلما زاد تقديرها لك. حتى الأب، كلهم لا يمنحون بلا ثمن.. أنت جزء من تكوينهم، وهم جزء من تكوينك.. فأنت أيضاً تسألهم الثمن الذي يرضيك.. معجون من الطينة نفسها، لست شهيداً على أية حال.

* * *

تخرجت في الجامعة.. وبدأت رحلة البحث عن عمل مناسب، وظننت أن تقديري المرتفع خليق بأن يضعني في مرتبة واحدة مع أصحاب المعارف من أهل الثقة، لكن الأشهر المتعاقبة أكدت لي كما أكدت لمن سبقوني أن الشهادة بلا وساطة حبر على ورق.

- امتياز مع مرتبة الشرف.

- سيب رقم تليفونك، وهنبقى نتصل بيك.

أهكذا يعامل من كان أبوه إلهاً؟!.. ما قولك يا صاحب المدينة الفاضلة يا وريث أفلاطون؟.. حدثني مرة أخرى عن المصلحة العامة في زمن الوساطة.

ولما كانت في ساعة صفو تداعب بأصابعها شعيرات صدري اقترحت أن تتوسط لي عند أحد معارفها المقربين، فرفضت ذلك رفضاً قاطعاً.

- أنا مش هشتغل بالطريقة دي يا سماح.

- بلدك كلها ماشية بالطريقة دي، وأنت شفت بنفسك.

لم يسعني أن أكشف لها عن حقيقة دوافعي الباعثة على الرفض، فأنا وإن كنت لا أقيم للمثالية وزناً يذكر إلا أنني لا آتي فعلا ينال من كبريائي مهما حدث، ومن أين لي باحترام نفسي - فضلاً عن احترام الناس لي - إذا قبضت راتبي الشهري بشفاعة امرأة كسماح؟.. ولا أستبعد في موضع كهذا أن تتفحصني عيون الزملاء وهم يتغامزون ويقولون: يا بخت من كانت الحريم تتمنى له الرضا.

قال ياسر:

- اشتغل أي حاجة.

وعقب خالد كأنه صدى صوت:

- كل الناس بتشتغل أي حاجة !

وقلت إن الراتب الشهري الذي يصلني من والدي لم ينقطع بعد.. ومحاسب عاطل خير من محارب في معركة لا تعنيه، وما لي حاجة ببذل الجهد في أروقة الصعاليك، فإن الشقاء لم ينل مني مأربه بعد، وغايتي من العمل هي تحقيق ذاتي لا إيجاد قوت يومي. فهز الأول منكبيه ولم ينبس بكلمة، أما الثاني فراح يتحدث بحماس عن فوائد الشاي الأخضر وقدرته العظيمة - على حد زعمه - في علاج البواسير !.. وهاتفني سليمان وقد بدا لي من قوة صوته أن حالته الصحية بلغت تحسن لا بأس به. ودار كلامه عن ضرورة العمل وإن كان عملاً غير مناسب. فضحكت وأنا أقول مقاطعاً حديثه:

- بتطبق عليا نظرياتك، ولا بتفكر تقطع عني المعونة؟

فضحك بشدة وقال ساخراً:

- معونة؟.. أنت شايفني أوباما يا ابن الكلب؟

ولملمت أطراف المكالمة أملاً في إنهائها بشكل لائق ليفهم أني اتخذت قراري النهائي الذي لا يقبل المناقشة في مسألة العمل.. لكنه استوقفني قبل إغلاق

الخط، وقال بلسان مضطرب ينذر بخطورة حقة:
- أفتح التليفزيون !
ما طالت دهشتي من لهجته الغامضة، لأني بمجرد أن أذعنت لإرادته هالني ما رأيت.. تونس الخضراء تحترق!!
أحقاً آن للناس أن تغضب؟.. هل يفلح أخيراً تحريض الشعراء في تحريك النفوس المُتكئة على هوانها؟.. أحقاً يثور العرب، ومن أين لي بتصديق ما أرى ونحن نخضع لبطش السلطة طوال قرون لا تحصى. نحن أهل العرب بفرقتيهما (الأصليون، والمُعرَبون) عشنا نتواكل على الجند في تقويم الحاكم أو خلعه إن لزم الأمر لنطير فرحاً بأن الجند قاموا بالثورة عنا !.. والآن ها هي تونس قطعة نفيسة من المغرب العربي تعلن أن الكيل قد فاض بأصحابها وأن نهاية الحاكم الأب تكتب الآن في شوارعها بدبيب الأقدام الغاضبة، هي الإرادة لا مزيد.. !
ونحن نجلس أمام شاشات التلفاز لنشاهد ساعات ستدون في كتب التاريخ، الشعب يقول كلمته.. والأمم لا تحترم إلا شعبًا لديه ما يُقال. والديمقراطية الحقة تتزين في القيروان كعروس آن وقت زفافها.
لم تخلُ زيارتي لسليمان من إشارة عابرة للأمر، ختمها بسؤال تحريضي:
- هتعمل أيه يوم التلات الجاي؟
- أشمعنى التلات الجاي؟
فأجابني وقد أدهشه جهلي:
- عيد الشرطة، ودعوات التظاهر ضد الحكومة منتشرة في كل حتة.. أنت مش عايش فـ الدنيا ولا أيه؟!
وبالفعل راحت الدعوات في الساعات الأخيرة تخرج من العالم الافتراضي الذي خلقت فيه لتطفو على السطح، فغدت تلوكها أفواه البسطاء وهم يشكون قلة حيلتهم ويتندرون بالأولاد أبناء الأمس الذين يظنون أنه من اليسير إجبار الحكومة على الإذعان لطلباتهم.. أولا يعرفون ما هي الحكومة؟!.. وبدأت

رايات الشؤم تلوح في الأفق.. هم الدهماء، شر لابد منه. قبح يسكن التاريخ بلا استحياء.. جبناء وجهلاء ومغيبون، طفيليون كحشرات تقتات على وساخة الأرض.. سطحيون، عبيد لمن غَلَب. فبات الحلم التونسي بعيد المنال، فأي سبب خليق بصناعة ثورة في أرض الفراعين !. الشهيد؟.. خالد سعيد لم يكن أفضل حالاً من محمد البوعزيزي.. الجهل، الفقر، المرض؟.. كلها أشياء تتفوق فيها مصر على جميع دول المنطقة.. وربما هي أشياء تدفع للخنوع لا تحفز على الثورة !

* * *

الثلاثاء، ٢٥ يناير ٢٠١١

اليوم المنشود، الطريق إلى الميادين العامة.. مناوشات مع الشرطة (الشيء لزوم الشيء).. وهتافات تخرج من الحناجر بحماس رغم قلة عدد المحتشدين.. المتمرسون على تنظيم المظاهرات كانوا يرون أن تجمع الآلاف بالميادين أمر جلل، ولكن الصورة بالنسبة لي تبقى كما هي.. القاعدة العريضة من الشعب لم تتحرك، الخمول والبلادة والتواكل سادة الموقف بلا منازع، والمنظر بدا عبثياً مقارنةً بضخامة المطالب المعلنة.. (إقالة وزير الداخلية، وإقالة وزير الصحة، وإسقاط قانون الطوارئ).. ومر اليوم ليتبعه يوم أشد صعوبة، فقد أعلن الاعتصام بالقاهرة، وصعب علينا تنفيذ أمر مماثل بالإسكندرية لقلة عددنا مقارنة بالأعداد في القاهرة، كما أن التقسيم العرضي للإسكندرية لا يجعل السبب الأول من الاعتصام يتحقق بأي شكل من الأشكال، وهو إحداث شلل كلي أو جزئي بالمحافظة. ورغم أننا أقل ضرراً للنظام إلا أن شراسة الشرطة لم تميز بين المتظاهرين هنا والمتظاهرين هناك، وكنا أنا وياسر وخالد نشبك أيدينا إذا اشتد الضرب فنحتمي ببعضنا ويكون كل منا لصاحبيه معينا. وانتهى الخميس مخلفاً جرحًا بجبين ياسر وكدمة بساعدي الأيسر، وأتممنا يومنا بمحل ياسر وقد استقر عزمنا على أن نقضي هناك ليلتنا، لنكمل المسيرة في الصباح..

والدعوات قد رجت أرجاء المعمورة للتظاهر بعد صلاة الجمعة للمطالبة بإقالة الحكومة.. ونظر ياسر لخالد نظرة متفحص وقال:

- أنت الوحيد فينا اللي طلع منها سليم.. على رأي اللي قال: تيجي مع الهبل دُبل.

وأخذنا نضحك سوياً.. كانت الساعة الثانية صباحاً عندما سمعنا صوتًا يطرق الباب الخارجي للمحل طرقات واثقة وقوية، فأخذنا ننظر لبعضنا البعض وقد تملكنا القلق ثم اندفع خالد يسأل الطارق عن هويته، وعرفنا أنه عم سعيد.. فاستقبلناه مرحبين، وأبلغني الرجل برسالته:

- أنا دورت عليك في كل حتة.. والدك عاوز يشوفك.

- هو كويس؟

- كويس جدا، بس بعتني أدور عليك أول ما الاتصالات اتقطعت.. وأنا من ساعتها لحد دلوقتي بالف عليك في كل حتة.

- معلش يا راجل يا طيب.. تعبناك.

فيقول بإلحاح:

- أنا مش تعبان.. أنا عاوزك تيجي معايا دلوقتي، أبوك قلقان عليك وقال لي مترجعش من غيره.

- خلاص روح وأنا جاي وراك.

- مهو أصل أنـ....

فأقاطعه وقد نفد صبري:

- جرا أيه يا عم سعيد، أنا مش هتوه لو جيت لوحدي.. قلت لك روح وهتلاقيني وراك.

ومضي الرجل في طريق العودة، وبمجرد أن خرج صاح ياسر:

- الراجل ده لو ربنا بيحبه هيوصل من هنا لمحرم بيه قبل الضهر.. الشارع مفيهوش غير البلطجية واللجان الشعبية.

- أنا أبويا اتجنن باين.

قلتها وأنا أجلس على مقعد قريب.. ثم دار بيننا النقاش عن الحراك الشعبي، وتوقعاتنا لردود فعل الحكومة حتى أشرقت الشمس، وتحركنا على كورنيش البحر ناحية وسط البلد ونحن نمسح الطريق بحثاً عن سيارة.. وبعد الصلاة طاحت الشرطة في الشوارع كوحش أُخرج من قفصه، فكان يومًا فاضت فيه الدماء، وتدافع الناس في الطرقات منهم من يداوون جراح المصابين ومنهم من يلملموا الأشلاء.. وآخرون اتخذوا موقعهم كمهاجمين. رجال ونساء عزل يواجهون الغاز والخرطوش والرصاص الحي بصدور عارية، يلوحون باسم الوطن في وجوه القتلة.

* * *

جمعة الغضب..

نذير الموت. انكسرت ذراع النظام بانكسار وزارة الداخلية. يوم تبلورت فيه المطالب كلها في مطلب واحد واضح وصريح، لا يقبل لبس أو تأويل. "الشعب يريد إسقاط النظام"، صيحة صدرت عن الملايين المحتشدة بالميادين. صرخة ضد السلطة الأبوية الزائفة، وضد الأب ذاته اندفعنا نهتف بحماس: "ارحـــــــــل". انكسر القصر نفسه !.. وأعلنت الميادين والطرقات انصياعها للقوة الفاعلة، قوة الشعب. فتتابعت الأيام ونحن نتلقى من النظام وزبانيته كلمات تتهمنا بالعمالة وتحرض الناس ضدنا فتراءى للبعض أن القوة الغاشمة المستترة بالصحاري قد تحسم الموقف لأحد الطرفين في أي وقت، فاستحضروها بالهتافات "واحد، اتنين.. الجيش المصري فين". "يا مشير، يا مشير.. قتلوا ولادك فـ التحرير" سلطة أبوية جديدة تُدس بين الناس كسُم يبدو لناظريه عسل مُقطّر. ودارت برأسي كلمات خطها أمل دنقل في ديوان شعراء الرفض موضحاً رأيه في القضية برمتها كوصية لأمة لا تقرأ، فأسندت يدي اليمنى على كتف ياسر وتأبطت باليسرى ذراع خالد ومضيت وسط الحشود لألهج بالوصية رغم علمي بأنهم لا يودون سماعها:

- "قلت لكم في السنة البعيدة
عن خطر الجندي
عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة
يحرس من يمنحه راتبه الشهري
وزيه الرسمي
ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء
والقعقعة الشديدة"

ولكن الجموع المتدافعة نحو الهاوية لا تأبه لأجيال الشعراء كافة وما يورثونه لبعضهم من كلمات !.. فراح الهتاف يعلو. حتى انتهى كل شيء.. نزل الجيش للميادين !

اشتدت المعركة في لحظة الالتحام. والعرق والأنات سيدان يفرضان سطوتهما على المشهد. بيت سماح. سرير سماح.. حيث الهتافات تعلو في الشوارع القريبة: "ارحل يعني إمشي.. ياللي مبتفهمشي".. والغنج عند أهل الهوى درجات، ليس امتصاص رحيق اللسان بأقلها منزلةً. "الجيش والشعب إيد واحدة". والوطء عند أهل الهوى درجات، ليس إتيان النساء من دبورهن بأعظمها فحشاً... ولما انقضى وطري تمددت بجوارها، وأخذت أبحث حولي عن علبة السجائر، فوجدتها تسألني:

- تفتكر هيمشي؟

وجدت سجائري، لكني فشلت في إيجاد الولاعة، فسألتها بدوري:

- ولاعتي معاكي؟

أخرجتها من تحت الوسادة.. أشعلت سيجارتي وهي تعيد عليّ السؤال، فأجبتها ممتعضاً:

- دا بيتوقف على الإرادة العسكرية.

- الجيش مع الناس.

سماح تتكلم عن الجيش. (إن كان لابد من هذه الذرية اللعينة...) !.. نشرات الأخبار. جنازير المدرعات. أرواح الشهداء. قصر الاتحادية. الخطاب العاطفي. موقعة الجمل !.. الجيش مع الناس. كيف تجرأت الخيول والجمال على دخول الميدان مخترقين بذلك قوات حماية الصينية؟!.. لماذا سمح لهم الجيش - الحليف - باختراق الميدان وضرب المتظاهرين؟. ضابط واحد وقف يشهر مسدسه في وجه الخيانة، ضابط سيتجرأ التاريخ على طمس اسمه.

وجلسنا نلوك الكلام ببيت العائلة، خالد وياسر وأنا، وسليمان على مقعده بجوار النافذة التي آن لها أن تفتح على مصراعيها، وصوت مذيع نشرة الأخبار بقناة الجزيرة يأتينا واضحاً من التلفاز القريب. قلت:

- أنا شخصياً مش مستني منه خطاب تنحي، دا مش عبد الناصر.

- الجيش هيخليه يمشي.

قالها خالد بحماس، وقال ياسر:

- أنا بقى شخصياً موقف الجيش بالنسبالي مقلق وغامض.

فقلت ساخراً:

- قوات عدم الانحياز !

فقال سليمان:

- الجيش هينحاز للأقوى، والسلمية ضعف.. الشارع لازم يكون أشرس من كده.

وتدخل عم سعيد في الحوار:

- ربنا معانا وهينصرنا.

وأخذ الحديث يدور بشراهة غير مسبوقة..

- أنا مش متفائل.

- لازم نفسنا يبقى طويل.

- الجيش بيحمي الثورة.

- الجيش مع الشرعية.

- الشرعية الشعبية ولا الشرعية الدستورية؟
- الثورات تسقط الدساتير.
- في أخبار أنهم هيطلقوا الأسود من حديقة الحيوان ع الميدان.
- كارثة.
- الإخوان طلع لهم صوت.
- كارثة تانية.
- أنا عاوز أنام.
- نام مكانك.
- الشرعية الدستورية ولا الشرعية الشعبية؟
- قلبك أبيض.
- تفتكر...؟
- مفتكرش.

وتتابعت الأيام، وانخرطت الجموع في حراكها الثوري، يعلنون الغضب حتى أفول الشمس ويتشاركون في الآمال والأغنيات حتى مطلع فجر يوم جديد.. يريحون أبدانهم في الخيام المُعدة بالميادين، ويتعاونون على طرد اليأس كلما حاول التسلل بين صفوفهم.. أمة واحدة، حلم واحد، رغبة عارمة في الارتقاء من القاع. ولجأت إلى بيت سماح لأدفن بين أحضانها قلقي وقلة حيلتي. بالخمر والنسوان تكتمل الحياة.

- وطي صوت التليفزيون.

هكذا قلت وأنا آتي على الكأس السابعة. سألتني مزيدًا من الحب. لقد فرضوا حالة الطوارئ يا سماح.. هل تذوقتِ الحب يوماً في ساعات الطوارئ؟!.. أنا سأذيقك إياه. عندما تسكن الدولة في الميادين، ويستقر العجائز والجبناء أمام شاشات التلفاز يحق للغنج أن يفرض سيطرته على الموقف. كدمة في الساعد الأيسر خليق بها أن تدوم كصك وطنية أبدي لا يمحوه الدهر. "... تخليه عن

منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات الـ..." التلفاز، خرافة العصر الحديث، ماكينة أشد تأثيراً على العقول من الخمر.. تستطيع أن تنقلك في جزء من الثانية إلى عالم موازٍ !. "... فإن المجلس الأعلى للقوات المسلحة يتوجه بكل التحية والإعزاز لأرواح الشهداء.."، وطاب لي لعق شبح الحقيقة من بين فخذيها. لعن الله الفودكا..

* * *

للمرة الرابعة أستقبل بعد منتصف الليل مكالمة من عم سعيد يخبرني فيها أن الحالة الصحية لسليمان سيئة للغاية. بت أشم رائحة الموت في بيت الصايغ أكثر مما يمكنني أن أشمها في المقابر. أصبح الشؤم يغلف حياتي بصورة لا تحتمل، والرجل رغم تدهور حالته الصحية إلا أنه لم يتقاعد يوماً عن المشاركة في المظاهرات منذ قامت الثورة، تحول عجيب من النقيض إلى النقيض. بعدما أنس مصاحبة الظلام والركن الهادئ بجوار النافذة المغلقة عاد إلى الساحة الجماهيرية أبا لليساريين، ونجماً بالاجتماعات الحزبية والحركات الشبابية. فسألته أن يستريح إذعاناً لمشيئة الطبيب، لكنه - بمثاليته المعهودة - كان يشيح عني بوجهه ويقول:

- أستريح ليه والبلد لسه تعبانه؟

فأكظم غيظي وأتجاهل الخوض في حوار عبثي. لكن الأمر لا يخلو من حين لآخر من بعض المناقشات السياسية، فأقول مثلاً:

- الإخوان أعلنوا امبارح أنهم مش هينزّلوا من عندهم مرشح للرئاسة.

فيقول بثقة خبير:

- متطمّنش.. الإخوان ناس معندهمش شرف.. وأقذر منافس ممكن تواجهه في حياتك هو اللي معندوش شرف.

أتفق معه في ذلك، ولكن الأمر لا يخلو دائماً من بعض المداعبات الثقيلة، فأسأله ضاحكاً:

- حتى أخوك؟
فيرسم على شفتيه ابتسامة صفراء، ويؤكد:
- أولهم أخويا.
ثم دار الحديث عن المجلس العسكري، واحتمالية دعمه لأحد المرشحين. رجل ذو خلفية عسكرية. برجماتي مستعد لتقديم كافة التنازلات المطلوبة حتى لو أدى ذلك لحصوله على مقعد بدون صلاحيات حقيقية.
- الإخوان؟
أسأله، فيجيب:
- اللي بين العسكر والإخوان ما صنع الحداد.
- حد تاني؟
- بلياتشو مأصل، من ضهر أراجوز فهلوي.. رجل المرحلة.
وكأن الثورة قد قامت لتدخل الشعب بأكمله في دهاليز السياسة، ولنصبح وجبة مستباحة على موائد الماكرين.. حتى جلساتي مع خالد وياسر لم تكن تخلو من أحاديث السياسة، وأروقة الشعراء باتت أماكن لإلقاء الخطب الحماسية الموزونة !.. هذا بخلاف حملات التخوين، والاتهامات المتبادلة.. في أيام معدودات أصبح من حق أي شخص أن يحسب محدثه على فلول النظام السابق.. !
وانتهت المسرحية الهزلية بعد تسابق ثلاثة عشر رجلاً نحو مقعد الرئاسة. وبات السقوط وشيكاً بجولة الإعادة بين رجلين. الأول مندوب النظام السابق، والثاني مندوب جماعة الإخوان. فأي مستقبل يمكن للمرء أن يحلم به وهو واقع بين مطرقة معاوية وسندان الخوارج؟!.. وسقط سليمان في ساحة المعركة.. سقط وهو يشاهد مظاهرة للإخوان تلتحم مع مظاهرة أخرى لأنصار المرشح المنافس، وقال جملته الأخيرة بأداء أقل ما يقال عنه أنه صادق إلى أقصى درجة:

- المصريين بيموتوا بعض.
بعد ذلك سيتحول لأيقونة، سترسم ملامح وجهه بالجرافيتي على حوائط المدينة وتحتها كلمة "مكملين"، ولتذهب السياسة وأهلها إلى أقذر بقعة على وجه الأرض.
سليمان صعد !
انتهت رحلة الأب الحكيم، سيد المثاليين وإمام الشيوعيين.. وراح الشباب يغنون أمام سرادق العزاء: "جيفارا مات". وظهر من بين المعزين وجه كنت أظن أنني لن ألقاه مرة أخرى بعدما شاهدته في المرة الأخيرة يهدد أبي ويتوعده بالانتقام، حدث هذا وأنا لم أتم عامي العاشر بعد، كان يعلن غضبه بطريقة مسرحية ذكرتني وقتها بصوت الثعبان أونيكس في كارتون البوكيمون.. هو عفت الصايغ، ذلك العم الذي ربت على راحتي وهو يتمتم بكلمات الرثاء التقليدية، ثم مضى يتخذ لنفسه مقعداً بجوار المُقرئ، واستند إلى النادل يهمس في أذنه.. فمضى الشاب وعاد إليه بعد أقل من دقيقتين ليناوله كوب ينسون.
عرفت عفت رغم كل السنوات التي مضت، فملامح وجهه السمج لا تنسى بسهولة.
وجاءني بعد انتهاء العزاء ببيت الصايغ. هاتفني عم سعيد ليخبرني بأنه - عفت - في انتظاري منذ نصف ساعة تقريبًا.. فذهبت إليه، وقابلته بالطريقة التي يستحقها:
- إيه اللي حدفك علينا يا عمي؟
فجز على أسنانه وقال:
- هو دا بردو استقبالك لعمك يا ابن أخويا؟
ثم دس سبابته بفتحة أنفه واستطرد:
- بيني وبينك رحم أمرني الله بوصله.
ككل أبناء طينته سمج وسخيف. قلت وأنا أجلس أمامه واضعاً ساقاً على

الأخرى:
- إيه اللي جابك؟.. اختصر، أنا حسن ابن أخوك الشيوعي. يعني سكة (قال الله وقال الرسول) اللي أنت داير تاكل بيها عيش على قفا التيوس بتوعك مش هتنفع معايا.
تمتم مستغفراً، وأخذ يحرك يديه بما معناه: ما باليد حيلة. وقال بنبرة مصطنعة:
- إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهـ...
فانتفضت واقفاً وصحت به:
- جرا أيه يا عمي ما تظبط !.. أنت فاكر نفسك قاعد بتصور مع منى الشاذلي؟
- أنت إزاي تتكلم معايا كده؟
صاح بدوره، فاتخذت قراري بإنهاء المقابلة حيث وقفت ومددت له يدي مصافحاً وأنا أقول:
- شكر الله سعيكم يا سيد عفت.
لم يحرك ساكناً، وكأني أواجه جبلاً ثلجيًا.. لم يحرك سوى شفتيه وهو يقول:
- أنت بتطردني من بيتي يا حسن؟
- قلت لي أنك جاي توصل الرحم؟!
- نوصل الرحم، ونتحاسب.. ميجراش حاجة.
- نتحاسب !
- المثل بيقول إن كنتوا أخوات اتحاسبوا.
فمرت أمام عيني كل مشاداته مع أبي، وبين شهيق وزفير تذكرت كل محاولاته المستميتة للاستحواذ على البيت، أخبرني سليمان ذات يوم بأن الإرث حق، وأنه لو كان يأمن شر أخيه لوافقه على بيع البيت منذ زمن..
- بس أنا مليش أخوات، وأنت أخوك مات.
وأمد له يدي مرة أخرى، وأنا أحثه على الرحيل بلهجة أشد عدوانية:
- شكر الله سعيكم يا عفت بيه.

فيغادر مقعده، ويتحرك بخطوات ثقيلة ناحية الباب قبل أن يستدر ناحيتي كاشفاً عن قبح وجهه:

- أنا ماشي.. بس خليك فاكر، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها يا ابن أخويا.

- لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت يا عمي.

فارتفع صوته وهو يقول:

- أنا قرفت بقى م الحدوتة دي، اسمع يا ابن سليمان.. حقي أنا مش عايزه لكن حق ولادي ربنا يحاسبني عليه لو اتنازلت عنه.. وأنت عارف كويس أني ليا حق في البيت ده زيي زي أبوك الله يرحمه.

لوح الثعبان بنفحة من سمه، فتبسمت وقد ارتحت لفضح ما يكمن بقلبه.. وقلت بنبرة ناعمة بعدما تذكرت حكاية ضياع الحُجة من شكمجية الصايغ كما قصها عليّ والدي:

- والله يا عمي أنا معرفشي غير أن حُجة البيت معاك، وأننا مُلاك بالأونطة.

فرمقني بنظرة ثاقبة وقال بمكر:

- خلاص.. نبيع البيت، وكل حي ياخد نصيبه.

لأول مرة منذ عهد ضياع الحُجة يعترف عفت باستحواذه عليها. أهذا ما يقال عنه (اللعب على المكشوف)؟.. وتجلت لي صورة سليمان واضحة على مقعده القريب، ولسانه ينطق بالجملة ذاتها: "الإخوان ناس معندهمش شرف"، فرمقته مستريباً وأنا أسأله:

- وعمتي؟

- هي كمان هتاخد نصيبها.

قالها وهو يرفع حاجبيه بما يعني أن الأمر من المسلمات. وصوت سليمان يأتيني من الجهة نفسها مرة أخرى: "أقذر منافس ممكن تقابله في حياتك هو اللي معندوش شرف".

- طب سيبني أفكر.. وهبقى أرد عليك.

فجز على أسنانه، ومرر أصابع يمناه بشعر رأسه قبل أن يرحل مخلفاً وراءه ذكريات من الماضي الكريه، مات سليمان لتخرج الفئران من جحورها. ولما استشرت ياسر في الأمر رأي أن الموافقة على ذلك العرض خسارة فادحة.. فالأمر مُعقد والبيت يخضع لإشراف هيئة الآثار باعتباره من المنشآت التراثية، وغالباً لا يتقدم لشرائه إلا منتفع بهدمه.. واحد من أولئك المقاولين الذين يحترفون تشييد الأبراج المرتفعة.

- عمك ممكن يلبسك مصيبة.. مش بعيد بعد ما يبيع البيت يرميك في السجن.. دا إخوانجي يا حبيبي، يعني سمه على طرف لسانه.

فوافقته الرأي:

- سليمان بردو كان شايف كده.

وتواصلت مع عمتي المقيمة بكندا لما هاتفتني لتقدم لي واجب العزاء.. عرضت عليها الأمر برمته فلم أجد منها حماسًا للقبول أو ميلاً للرفض، قالت ما معناه: تصرف كما يحلو لك. وبعد أقل من أسبوع هاتفني عفت فأخبرته برفضي لعرضه رفضًا نهائيًا لا جدال فيه.. فثار وهاج وحاول تهديدي تارة كما حاول إقناعي تارة أخرى، ولكنه في النهاية أذعن لإرادتي، واستسلم للأمر الواقع. ووفرت إيجار شقتي وانتقلت للبيت الكبير أتخذه مستقراً أبدياً.. فأعدت ترتيب غرفتي القديمة بالصورة التي تناسبني، ومنحت عم سعيد مبلغاً معقولاً، وطلبت منه أن يعتبره مكافأة نهاية الخدمة. وعز على الرجل العجوز مغادرة البيت الذي شهد عقودًا من عمره، لكنني اعتبرت وجود شخص يقوم على خدمتي نوعًا من الترف السخيف لم ترتح له نفسي.

هاتفت محامي والدي، واحد من أصدقائه القدامى الأستاذ أيمن المحمدي، وهو أيضاً عضو بالحزب الشيوعي المصري. طلبت تحديد موعد بمكتبه، لكنه فضل مقابلتي بمقهى التجارية في وسط البلد. فاستنكرت ذلك ووضحت له أن المقابلة رسمية: الأمر يتعلق بالإرث. فأصر على أن تتم المقابلة في المكان الذي ترتاح

إليه نفسه، ولولا أنني عليم بفوضوية الشيوعيين لاعتبرته يوجه إلي إهانة مقصودة. وكنت هناك في الموعد المحدد، فلحق بي بعد وصولي بعشر دقائق، وسألني عن صحتي، وراح يسهب في الكلام عن سليمان ونضاله الصادق، ثم تطرق بالحديث للحالة العامة، وسألني:

- هتنتخب مين؟

فأجبته باقتضاب:

- مقاطع.

فقال بلهجة من هو ذو علم ببواطن الأمور وخبايا البشر:

- نص الناس هينتخبوا شفيق بالعند فـ الإخوان، والنص التاني هينتخب مرسي بالعند فـ الفلول.. ودي تبقى ديمقراطية دي؟!

فكتمت غيظي، ودفعته نحو مأربي دفعاً:

- أستاذ أيمن.. خلينا في المهم.

فاتخذت ملامحه طابع الجدية، واعتدل في جلسته وهو يقول:

- قلت لي في التليفون أنك عاوز تتكلم عن الورث.

فأومأت برأسي مؤيداً، وراح يستطرد:

- أنا مش عارف عندك خبر ولا لأ.. والدك الله يرحمه كان من أهم الممولين لحملة علاء خيري.

فارتسمت الدهشة على ملامحي وقلت وأنا غير قادر على استيعاب ما اسمع:

- حملة مين ولا مؤاخذة؟

فرفع حاجبيه مندهشاً، ثم أكد بحماس غير مبرر:

- علاء خيري.. اللي كان مرشح للرئاسة في الجولة الأولى !

فأقابل حماسه بسخرية يستحقها:

- أيوه يطلع أيه دا يعني فـ الكوتشينا.. قبل الآس ولا بعده؟

يتحرك في مقعده مرتبكاً ويقول محاولاً الحفاظ على وقاره:

- متهيألي أنت مطلبتش تقابلني عشان نقعد نألش مع بعض.
أضحكني قوله ورحت أخوض معه في اللغو:
- أنا بردو اللي بألش !.. طب ماشي، هصدق أن أبويا عمل اللي أنت بتقول عليه ده.. قول لي بقى، صرف كام سليمان الصايغ على حملة المحروس؟
- كل فلوسه.
وصل الحوار إلى أقصى درجات العبث، فصحت:
- نعـــم.. !!
- في خلال فترة الدعاية الانتخابية الوالد عمل أربع حوالات بنكية لرقم حساب الحملة.
وأخرج من حقيبة يده أوراقًا، ناولني إياها وهو يردف:
- ودي تقارير البنك.
التقارير حقيقة مفزعة نجحت في إشعال ثورتي، وتملكني الجنون وأنا أصيح:
- أيه الهبل ده؟.. أنا أبويا اتعبط على آخر أيامه؟!
- إهدا يا حسن.
استفزني بروده، فصرخت وقد بلغت من الغيظ درجة لا أحسد عليها:
- أحـــا.. لا بجد والله العظيم أحـــــا.
- جرى لك أيه يا حسن.. أنت أتجننت؟.. إهدا شوية، الناس بتتفرج علينا.
أي ناس؟.. الناس الذين سأمضي بينهم كالمتسول بعد قليل؟.. سلمتني للفقر بمبادئك العقيمة يا سليمان؟؟
- نص مليون جنيه يا سليمان يا صايغ !.. رايح تتبرع لعلاء خيري بنص مليون جنيه؟!
- طب ممكن تهدا عشان تعرف تفكر؟
فأردفت وكأنني لم أسمع قوله:
- دا علاء خيري نفسه لو كان يحتكم على نص مليون جنيه مكانش رشح نفسه

للرئاسة !
أمام المعطيات الجديدة، وبحسابات العهد الجديد صرت فقيراً يسكن بيتاً يقدر بملايين الجنيهات !.. أهذا ما يسمونه "عبث الأقدار"؟!.. عرفت مصاحبة الظلام والوحدة بين الأصدقاء، وعافت نفسي الخمر والنساء فهجرت سماح. الأمر لا يحتاج إلى قائمة طويلة من المبررات، فإن جل أهميتها كانت تكمن في قدرتها على تلبية رغباتي الجسدية، ولما انشغل العقل بما هو أعظم من رفاهيات الجسد مللت رفقتها.
ونطق خالد برأيه القديم.. بات اقتراحه وجيها رغم سخافته، لابد أن أبحث عن أي عمل يقيني شر الجوع.. وأخذت أقدم تنازلات لم أتخيل أنني قد أقدمها في يوم من الأيام. ودرت بالشوارع كالمشردين أطرق من الأبواب ما يتيسر لي طرقه، ولا مجيب.. !
هاتفتني مها بعدما طالت قطيعتنا. بدا صوتها مترددا وخجولاً:
- البقية في حياتك.. أنا لسه عارفه دلوقتي.
- وحياتك الباقية، تسلمي يا ست الكل.
حاولت أن أبدو طبيعياً، صوتها آية في الأنوثة. أخبرتني بأنها خُطِبت وكأنها تختبر وقع ذلك على نفسي.. مجرد التفكير في أن فتاتي ستنتمي لرجل آخر فذلك أمر جدير بأن يضاف إلى قائمة هزائمي. رجل تتأبط ذراعه في الطرقات، وتراقصه في الحفلات، وتورطه أمام الفتارين، وترتب ملابسه، وتشاركه الطعام والسرير والتخطيط لتأمين مستقبل الأولاد !
- أنتي بتتصلي عشان تعزيني ولا عشان تحرقي دمي؟!
- أنت بتزعق ليه؟.. هي دي مبروك بتاعتك؟.. وأنا اللي كنت فاكرة أننا صحا....
أقاطعها:
- لا مش صحاب يا مها.. أنا وأنتي اللي بينا مكانشي صحوبية. متستعبطيش.

بدا واضحاً أنها لم تتوقع مني مباغتتها بهذه الصراحة، فاحتل الصمت مساحة من الوقت ليست بهينة.. مساحة قادرة على أن تنهش ذكرياتي نهشاً مفزعاً. واستيقظ كبريائي إثر سؤالها:

- حسن.. أنت كويس؟

حسن سليمان الصايغ.. (أنا)، رجل لا يملك إلا كرامته.

- كويس جداً.. المهم أنتي تكوني كويسة. أعذريني.. شوية مشاكل مخلياني متوتر حبتين. مبروك.. ألف مبروك.. مع السلامة.

عرفت جلسات الحشيش بمحل ياسر، ورأيت خالد في ساعة السُطل يُحلِق في الكواكب المجاورة !.. ورأيت مُرشح الإخوان يدخل قصر الاتحادية، فتذكرت غطرسة عفت ونضال سليمان، وضحكت.. ضحكت كما يضحك المساطيل إثر إلقاء أحدهم لنكتة قديمة.

كل النساء اللواتي عرفتهن في العهد الجديد لم تتجاوز علاقتي بهن حدود قضاء الحاجة، والرغبة العارمة في اكتشاف الآخر لم تكن أكثر من نزوة لمراهق شيب الدهر قلبه.

التحقت بوظيفة مؤقتة براتب زهيد بالكاد يكفي متطلبات الحياة الأساسية. كاشير بمطعم شعبي. وظيفة تحقق نجاحاً منقطع النظير في قتل الطاقات والأحلام. وأصبح إلقاء الشعر في الندوات والأمسيات ملاذي الوحيد، انسحبت روحي تدريجياً لأصير واحدًا مِمَن يلوذون بالغرف المغلقة، ومقاهي وسط البلد حيث يقبع حرافيش الفن والأدب والسياسة.

وظلت الحياة تمضي على هذا النحو حتى تتابعت الأحداث بصورة سينمائية بدأت بمشادة بيني وبين صاحب المطعم إثر إهانته لي بزعم المزاح، فتشابكنا بالأيدي وكسرت ذراعه كما أصبته بشرخ في الفك السفلي.. الأمر الذي أودى به إلى المشفى، وعدت إلى البيت - مرة أخرى - أحمل معي لقب عاطل. لست عدوانياً بطبعي، هذه حقيقة مؤكدة.. ومؤكد أيضاً أنني أملك كبرياء لا قبل لي

بأن أجعله عرضة لألسنة الحمقى والسفهاء. لا أحب اللجوء للعنف لكنني لست نادمًا على ما فعلت.. أنا شخص لا يعرف الندم.

قابلت خالد.. ودار الحديث بيننا في أمور عامة، ثم أخبرته بمكالمة وصلتني من سماح بحجة رغبتها في الاطمئنان على حالي، أخبرته بذلك على سبيل المزاح، وعقبت:

- تماحيك نسوان.

وضحكنا، ثم تذكرت نكتة أخرى.. رسالة وصلتني بعد انتهاء مكالمة سماح مباشرةً.. رسالة من رقم مجهول، وفحواها: "بقول لك يا محمد أنا علي واد عمك. إحنا فتحنا المقبرة ولقينا فيها أثرات ومساخيط كتيرة، شوف وأنت في مصر حد حداك يشتري". أخبرته بذلك على سبيل التنكيت لا أكثر، وكأني نسيت أن صاحبي متهور نال الطيش من عقله قدراً عظيماً. وهو الذي يأخذ كثير من اللهو على محمل الجد، ويوظف بعض اللغو في غير موضعه.. طلب مشاهدة الرسالة وهو متحمس، فأقلقني حماسه.. إلا أنه في ثواني كان قد خطف هاتفي وفتح الرسالة، تأملها قليلاً.. ثم اتصل برقم المُرسِل !.. فتركته يعبث وأنا كظيم.. وأخذ يفاوض محدثه ثم أنهى المكالمة وقال بجدية لا تليق به:

- هنسافر الفيوم.

فتبسمت لما أظهره من اهتمام لا يليق بغرابة الحدث، وأخذ يقنعني بضرورة السفر وأخذ في ذلك وقتاً أطول مما يمكنني تحمله.. ولما انتصف الليل وذهبنا لمقابلة ياسر في محله اندفع يعرض عليه ما حدث ويطلب منه إقناعي بالسفر.. فأومأ صاحبنا برأسه موافقاً. فاستنكرت ذلك، وسألته مستوضحاً:

- هتسيب أكل عيشك وتسافر عشان حدوته ميصدقهاش عيل صغير !

فصمت قليلاً وهو يتأمل ملامحي قبل أن يجيب بنبرة لا تخلو من استياء واضح:

- مبقاش فيها أكل عيش يا حسن.. صاحبك دا باينه بومة، من يوم ما حط رجله

في الاتحادية والنحس ملازمنا زي ضلنا.. الحالة مريّحة والناس بقوا مكلبشين فـ الربع جنيه كأنه عيل من عيالهم.

ثم سحب نفساً من سيجارته ومال برأسه إلى الوراء واستدرك:

- أنا محتاج أغير جو.. الفيوم حلوة.

وبدأت رحلتنا لقضاء إجازة نريح بها أعصابنا بعيدا عن متطلبات الحياة وشوارع المدينة التي باتت تذكرنا في كل جزء منها بحبيب ضائع أو عزيز مفقود، وكدنا ننسى أمر الرسالة والمُرسِل لولا إلحاح خالد، ورغبته الصبيانية في تنفيذ ما يريد. فاستأجرنا ميكروباص من المركز، وقصدنا به "أرض المختار" بناءً على وصف صاحب الرسالة.. بلدة صغيرة في وسط المزارع لم يتعرف عليها إلا سائق واحد فقط، قال إنها تقع على طريق عزبة فوز، واشترط علينا أن يتقاضى منا عشرين جنيهًا قبل أن يتحرك من مكانه. فألزمنا خالد بالأجر عملاً بمَثَل إباحي يقال في مثل هذه المواقف.

ووسط الطريق الوعر والظلام الدامس بدأت روح المغامرة تتوهج بداخلي، وخصوصاً بعدما تجاوزنا عزبة فوز وبدأنا نشعر بأنا ضائعون وسط مداخل القرى والطرق الفرعية الوعرة شديدة التشابه، السائق نفسه أقر بأن القرى تشابهت عليه، وارتكنا للمشاة العابرين على قلتهم نستدل بهم.. فما يقع ذكر المختار وأرضه على مسامع أحدهم حتى يتلبسه شيطان الدروشة ويصيح: "حـــــــــــي".. أو يطلب المدد، أو يمضى إلى حال سبيله وهو مستكين ولسانه يلهج بذكر الرحمن، أو يردد: "شي لله يا سيدنا يا ولي النعم" !.. فطال بحثنا وطلب السائق زيادة في الأجر، واقترح ياسر أن نكف عن البحث ونعود للمركز، لكن الأمر برمته بدا مبهراً ومثيراً للدرجة التي جعلتني أرفض اقتراح ياسر وبالطبع دعم خالد رأيي بحرارة.. وطلبت من السائق أن يوضح لنا ما يعرفه عن ذلك السيد المهيمن على عقول الناس وقلوبهم وكأنه نبي مُرسَل، فلاذ بالصمت برهة، ثم بدأ يقص حكايته كما يليق بسفير ذويه إلى الغرباء:

- الحكاية أنا مندراش عنها حاجة.. أكتر من اللي بيقولوه الناس مندراش.. والناس بيقولوا راجل من عرب سينا.. مر من ييجي عشر سنين أو أكتر.. أيام أزمة البذور الفاسدة اللي وزعتها الجمعية الزراعية ع الفلاحين.. مسمعتوش عن الحكاية دي؟.. دي نزلت أياميها فـ كل الجرانين.

واستوقف خالد أحدهم.. أخيراً وجدنا من تطوع بوصف الطريق، سمعه السائق واستوضح منه.. ثم مضى يكمل طريقه، وطالبته بأن يتمم قصته، فاستطرد:

- الحكاية كانت كبيرة قوي، وفسدت فيها طينة الأرض، وأراضي كتيرة كان واجب لها التبوير، وأراضي تانية كانت محتاجة معالجة تربة بالسنين.. يومها عدى سيدنا المختار علي أرض ولاد راشد، اللي كان وجب لها التبوير.. وملس بأيده علي طينتها وقرا من كتاب الله عدية ياسين، ودخل البلد.. يقولوا اللي شافوه يومها أنه كان داخل زي ما يكون فارس علي حصانه... حمد لله ع السلامة، هي دي أرض المختار.

وأشار بيده إلى مدق يقطع أرضًا زراعية مترامية الأطراف، ففتح خالد الباب وهم بالنزول.. فاستوقفته وحثثت السائق على إكمال ما بدأه، فأردف:

- كان داخل على الناس في سواد الليل، رمى السلام على أهل البلد.. وطلب بيت محمد راشد.. ولما شافه قال له كلمة واحده ومكترشي، اللي حضروه قالوا أنه قالها من جوفه زي ما يكون صوت من عِند اللي خلق الخلق.. قال له: أزرع أرضك يا راشد.. إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين. باقي الحكاية تقدروا أنتوا تفهموها لوحدكوا.. لما الناس اللي شافوه بيقرا ع الأرض بلغوا محمد راشد بالحكاية جاب مهندس زراعي يكشف ع التربة وقال له أنها بخير، وتقدر تزرعها من بكرة.. سعى في زراعة الأرض، ودور علي الراجل الصالح في كل مكان بس معرفش يوصل له، ولما طرحت الأرض خير مطرحتهوش من سنين طويلة حضر المختار في موسم الحصاد.. ودعا لأصحاب الأرض بالخير والبركة، ومن يومها وهو ضيف ع البلد.. اسمه المختار.. وكرامة للضيف

الكريم سموا البلد باسمه..
- يعني نقدر نقول أن المختار ده يبقى....
قالها ياسر، فقاطعه السائق بحماس:
- وليّ.. من أولياء الله الصالحين.
وظلت جملته تلك تتردد في أذني وسط عتمة الليل والسكون التام، حتى بعد أن غادرنا السيارة إلى المدق الطويل المؤدي إلى القرية.. مدق بالكاد يسعنا أو يسع - بدلاً منا - سيارة واحدة متوسطة الحجم، وعيدان القصب المزروعة على الجانبين تستدعي لذاكرتي كل المحاولات الأمريكية لصناعة أفلام الرعب والإثارة.. كل الذين يخرجون من بين أعواد القصب في المزارع الواقعة على أطراف القرى المهجورة.. جثث الأجداد. المستذئبون. الكائن الزومبي. مصاص الدماء وعشيقته ذات الرقبة المرمرية.. !
دخان أبيض بدون رائحة، ونباح كلاب.. كلا، لم يكن هذا من تداعيات الخيال المهيأ بالفعل لاستقبال أي مؤثر خارجي مهما كانت غرابته.. هذا ما حدث بالفعل، وأكده صياح صاحبيّ. فأخذت ألوح بذراعيّ في كل اتجاه، وتشبث كل منا برفيقيه.. حتى بدأت سحب الدخان تتبدد تدريجياً، واتضحت الصورة رغم ضبابية الرؤية. امرأة منتقبة بجلباب بدوي تمسك بيديها سلاسل مربوطة من الجهة الأخرى بأعناق أربعة كلاب لا يترددون في الفتك بنا إن واتتهم الفرصة.. تكلمت بلهجة بدوية أظنها متقنة ونبرة تضاهي في صرامتها نبرة صوت مارشال متقاعد واتته الفرصة لممارسة مهامه المعهودة، وسألتنا عن سبب مجيئنا للقرية، وتطوع ياسر بمناصبتها العداء.
- وأنتي مالك؟
فتركت أحد كلابها لينقض عليه ويجثم على صدره، ثم باحت بما في جوفها كله دفعة واحدة وكأنها تُنبئنا بأنها لا تملك وقتاً تضيعه مع من هم مثلنا:
- هو مالي ومال جدودي.. ما هو مال محمد راشد.

محمد راشد.. نفس الاسم الذي سمعناه من السائق، وهو أيضاً مُرسِل الرسالة.. المرأة تعلم هدفنا من الزيارة وتعاملنا كما يحق لها أن تعامل الأعداء !

- إحنا ضيوفكم.

قلتها في محاولة غير مجدية للتضليل فأشاحت عني بوجهها واستطردت:

- المساخيط ورث جدودنا، وإحنا حراسها ليوم الدين نحميها بالنار والدم.

حاولنا التراجع أمام عنادها، لكنها أبت علينا أن نخرج من موقعنا هذا سالمين.. فمجرد أن قمنا بالرجوع للخلف عدة خطوات ازداد نباح الكلاب وارتفع صوتها وهي تقول:

- والله ما بيصير تدخلوها باغيين وتخرجوا منها كرام.

وحررت كلابها ليندفعوا نحونا، وباءت بالفشل كل محاولاتنا للفرار أو الاستجداء أمام تلك الأنياب التي تمزق ملابسنا وتجرح جلودنا.

ثم نجحنا أخيراً في أن نندفع هاربين بما تبقى لنا من ملابس داخلية ممزقة، ونباح الكلاب يلاحقنا ونحن نركض باتجاه الطريق الرئيس تدفعنا غريزة الخوف، وهذا ما جعلنا لا ننتبه لسيارة سوداء تبطئ من حركتها أمام المدق.. فاصطدمنا بجانبها. سيارة فارهة بزجاج فاميه أسود يخفي من بداخلها، لكنه سرعان ما انفتح لنرى صاحبها...

كانت هذه هي لحظة لقائنا الأول بالمختار.. رجل ضرير ملتحٍ يصدِّر لمحدثه إحساساً بالهيبة ويفرض أهميته على الآخرين عمداً. رائحة عطره مميزة، وابتسامته أيضاً !.. وتحدث فأحسن الحديث حيث قال:

- ليكوا عند العرب حق ما بيصير تروحوا بدونه.

وأمر سائقه بأن يفتح لنا الباب الخلفي للسيارة وسط ذهولنا، ففي تلك اللحظة لم نكن قد عرفنا هويته بعد.

وفي الطريق بدأت أتمالك أعصابي وأعدت النظر للسيد صاحب الهيبة بعين فاحصة. لحيته تتخللها شعيرات بيضاء مع بعض التشققات في شفته السفلى

بالإضافة إلى نظارته السوداء العريضة. تفاصيل صغيرة تضفي على وجهه ذي البشرة الخمرية وقارًا من طراز فريد، وتفاصيل أخرى كمسبحته التي تبدو وكأنها صنعت خصيصاً لأجله والتي لا يكف عن العبث بحباتها، وعصاه المذهبة، وساعة يده المرصعة بالألماظ، ونظارته الريبان.. كل هذا يدل على أننا لسنا أمام درويش زاهد.. هذا الرجل يقدر قيمة الأشياء النفيسة. إلا أنني - ورغم كل شيء - لم أسترح لطريقته في الكلام، ارتكانه على الآيات القرآنية في الحديث معنا بصورة مبالغ فيها جعلني أتذكر عفت.. وإن كان الأخير يفعل ذلك بقدر من المباهاة لا يتوفر في صاحب السيارة والطريق.. الطريق !

- مش دا الطريق اللي إحنا جايين منه.. أنت مودينا على فين؟!

هكذا قلت، ليجيبني بهدوئه المستفز:

- أنتوا ضيوفنا.. من ها الحين ما بنسيبكم إلا عند دياركم.

حكايات عن الجن الذي سكن جسد المنتقبة. ابنته التي حين ذكر سائقه اسمها اندفع هو بالقول الحسم:

- سوّد الله وجهها يوم تبيض الوجوه.

لوهلة شعرت بأن الرجل يمتهن التمثيل المسرحي بطريقته التي تحمل قدراً كبيراً من المبالغة. وشرعت في إعلان تذمري من الأمر برمته قبل أن ينقشع الظلام عن أهل القرى وهم يهرعون ناحية السيارة، فيأمر سائقه بأن يهدئ من سرعته لأراهم يتكالبون على نافذته كما تتكالب الديدان على الجيفة النتنة.. ورأيتهم يلثمون يده، ويتشبثون بها طلباً للبركة والمدد، فيغادر السيارة ويغوص بينهم وهو يرفع يديه للسماء ويدعو لهم بكلمات مقتضبة.. ثم يستزيدونه فيزيدهم !.. فهالني ما رأيت، وزاد نفوري منه.. وعجبت للجهل يصنع خرافته ويطوقها بسياج من العقول المظلمة، فيكسبها قوة ما أنزل الله بها من سلطان.

هو المختار.. سيد الدراويش، وصاحب الشفاعة لمن يتقربون إلى الله زلفى. رجل تتجلى فيه السلطة الدينية حين تفرض على أصحابها حصانة أبدية..

رسول الهداية ومعبود الدهماء الذين يصنعون بينهم وبين ربهم طبقات حاجبات.. !

بعدها أخذت حذري وأنا أتحدث إليه، فلتختلف التوقعات. نصدق ما نراه بأعيننا أو نكذبه.. هذا لن يغير من الأمر الواقع والحقيقة الثابتة شيئًا.. والحقيقة الثابتة هنا أن الرجل محاط بمجاذيب لا يترددون في نسف الهرم الأكبر لينالوا رضاءه !.. فأخذنا نستمع إليه بحذر، فراح يحدثنا عن التيه في أرض الأجداد، فلما طلبنا منه أن يوضح مقصده توجه بحديثه لخالد، ليكاشفه بوضوح:

- الأرض خير.. وأرضك عمرها سبع تلاف سنة. جسها حفار صعيدي من ربع قرن، وقال لوالدك إن خيرها كتير.. ورث جدودك. حقاتك.. تسيبه وتدور على مال الناس؟!

فعقدت المفاجأة لسان صاحبي، واكتفيت بمشاركة ياسر نظرة مستريبة.. ورحت أراقب تبعات هذه اللحظة التي أبصر فيها الضرير من الماضي أمورًا لا يأتي صاحبها على ذكرها.

ووصلنا إلى الإسكندرية في ساعة الشروق، وأنزلتنا السيارة أمام محل ياسر ولسان المختار ينطق بكلماته الأخيرة في ذلك اليوم:

- هادا أول الحق، نسأل الله أن نكون من المخلصين.

وشكرناه فاستدرك بحزم:

- بنعاود لكم بكرة قبل صلاة الفجر، لاجل ما نوفي لكم بقية حقاتكم.

هكذا ألزمنا بموعد جديد ليعلن أن الحكاية لم تنتهِ عند هذا الحد. وصعد ياسر إلى شقته بالطابق الأول عن طريق سلم خشبي حلزوني يشغل من الركن الأيسر بالمحل حيزًا صغيرًا.. ثم عاد ومعه بعض الملابس لنستر بها أنفسنا قبل أن يعود كل منا إلى منزله. ولما وصلت إلى المنزل تدثرت ورحت في ثبات عميق كمن لم يذق للنوم طعماً منذ عام أو أكثر.. !

وحينما استيقظت وجدت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. كما أشار

الهاتف إلى ثلاث محاولات اتصال من ياسر وسبع وعشرين محاولة من خالد، وهو رقم غير مبالغ فيه بالنسبة للأخير.. وتذكرت موعد المختار، فاتصلت بياسر الذي أخبرني بأنه في ذلك الوقت يجالس خالد بالمقهى، وأنهما سيتحركان بعد قليل ناحية المحل التزاماً بموعدنا مع الرجل الضرير. فارتديت ملابسي متعجلاً لألحق بهما قبل الموعد.

وفي المحل جلسنا معاً نستعيد تفاصيل الليلة الماضية، فازداد يقيني بأن ما نتعرض له محض خداع، فقلت:

- كل اللي حصل إمبارح كان مدبر، ومبني على تلت عناصر.. المفاجأة، والصدفة، والإبهار.. وده معناه أننا قدام ناس عارفين كويس هما بيعملوا أيه.

- بمعنى؟

سألني ياسر فأجبته:

- بمعنى أننا دخلنا برجلينا لعبة مش مفهومه..

- أيوه بس ده عرف اسمي وكل حاجة عن الأرض رغم إنه أول مره يشوفني.. !

قالها خالد مدافعاً عن صاحب السيارة فتبسمت وأنا أقول:

- اللي أنت بتقوله ده يدينه ميبرأهوش.

فتساءل ياسر وهو يضع كنكة البُن على الموقد ويبتسم ابتسامة بلا معنى:

- ولنفترض أن كلامك صح.. الراجل ده هيعوز مننا أيه؟

فأشعلت سيجارة وناولت كل منهما واحدة، ثم أجبته وأنا أضم شفتي متحيراً:

- لحد دلوقتي مش عارف.. بس أكيد كل حاجة هتبان.

فأخذ يضحك مقهقهاً ثم قال بسخرية من لا يبالي بالأمر كله:

- إيش ياخد الريح م البلاط يا أبو علي؟

فسألته أن يتحلى بالصبر حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود في ساعة قد يعلن بها الرمادي الخدّاع التزامه الحياد. واستفسر خالد عن موعد

الرجل أكثر من مرة حتى ضقنا به، وشربنا القهوة ولف ياسر سيجارة حشيش، فلم أزد عن نفسين ثم ناولتها لخالد الذي التهم الدخان بشراهة مدمن في فيلم عربي قديم وهابط، فضحكت وضحك ياسر طويلا حتى دمعت عيناه.. ثم أخذ يُسمعنا نكات عن المساطيل. وأخذ خالد يسأل بإلحاح عن سر تأخر الرجل حتى وجد ياسر في سؤاله مادة جديدة للسخرية والتنكيت.. ثم وجدنا الغريب فجأة يقف أمامنا وهو يستند على كتف معاونه.

- السلام على من اتبع الهدى.

قالها بصوته الرنان، فاستقبلناه بكلمات الترحيب.. ثم طلب من خادمه أن يذهب ليحضر الأمانة، فخرج الخادم بالفعل وسأله خالد عما يقصده بالـ (أمانة) فضحك الشيخ وطالبه بالصبر.. وفي أقل من دقيقتين عاد الخادم بحقيبة صغيرة ناولها لسيده الذي سلمها لنا بدوره وهو يقول:

- تلاتين ألف.. حق العرب، كرامة للرجال ومرضاة لوجه الله.

فتبادلنا نظرة حائرة ومد خالد يده ليسحب الحقيبة من يد الرجل، ثم فتحها وأخرج منها ثلاثة رزم من فئة العشرة جنيهات، وفي الوقت نفسه استدار الرجل ناحية الباب وهو يقول بصوت خافت:

- بالإذن.

لمعت في عيني خالد نظرة حائرة، ثم استوقف الرجل ليسأله:

- هي الأرض صحيح فيها خير؟

وتملكني فجأة شعور بالحنق، ورغبة مُلحة في أن أسدد لأنفه لكمة قوية ليكف عن تصرفاته الهوجاء، لكن الرجل كان أسرع من أي رد فعل قد أقوم به حين أجابه مؤكداً:

- خير ما له أول من آخر.

- يعني ممكن نبدأ الحفر؟

- أيش اللي بتعرفه عن مقابر الأجداد يخليك تقلق راحة الحراس؟!

هكذا تساءل الرجل وهو يرفع يده ملوحاً بمسبحته أمام أعيننا، فلما استوضح منه ياسر ليتفهم مقصده قال:

- مقابر الأجداد ليها حراس، ما بيقرب لها إنسان إلا ويصيبه من لعنتهم نصيب.

فساله خالد وعلى وجهه دهشة لا محل لها من الإعراب:

- حتى أنت؟

فابتسم الشيخ، وقال:

- ما أنا إلا بشر مثلكم، ولكني نقدر ناخد الإذن من الحراس بأمر الله.

هكذا فرض الغريب نفسه علينا كلعنة القدر المشؤوم وبإرادة واحد منا لا يكف لسانه عن التفوه بما لا يعنيه.. وتطور الأمر أسرع مما توقعت إذ تمادى خالد في توريطنا بقوله:

- نقدر نبدأ الحفر إمتى؟

نيران صديقة.. أسوء أنواع النيران بلا منافس !

- في الوقت اللي بتريدوه.

قالها الشيخ ولم يترك لنا فرصة الاختيار، فأردف:

- بكرة الضهر بنتقابل عند مقام سيدنا المرسي أبو العباس.. نصلي الجمعة جماعة وبعدين اللي فيه الخير يقدمه ربنا.

قُضي الأمر، وحسمت المعركة قبل أن تبدأ.. غادرنا الرجل قبل أن نستوعب نبرته الآمرة.. غادرنا وهو يعلم في قرارة نفسه أن الكرة صارت في ملعبه، وأنه قد انتصر على نفوسنا الضعيفة بأسرع مما كان يتخيل.. فسددت لخالد لكمة قاسية أخطأت طريقها إلى فكه وأنا أصرخ:

- يلعن أبوك ابن كلب غبي.

هناك احتمال - حسب ظن ياسر - أن أكون مخطئًا فيما أعتقده، فربما يكون الرجل صادق في كل ما قاله. إلا أن هذا الاحتمال يظل ضعيفاً للغاية أمام إحساسي المتزايد بعدم الارتياح.. إني أكاد أشم رائحة عفت، ثلاثون ألف جنيه

مبلغ عظيم، أو ثمن بخس أمام قيمة أكبر.. لا أحد يفرط في المال بهذه البساطة من أجل الحق، كما لا يوجد من يقطع الطريق من الفيوم إلى الإسكندرية من أجل العدل.. ما كانت هذه التصرفات من فعل البشر مهما بلغ بهم الإنصاف.. الأقرب للمنطق هنا أن نتبع نظرية (الطُعم)، أي أنه بالقدر الذي تكون عليه دسامة الطُعم وكلما كان أكثر إغراءً كلما عظمت الفريسة، وللإنصاف فقد أجاد الرجل إلقاء الطُعم المناسب لصيد غر كخالد، أخذنا معه في طريق وعر لا نعرف نهايته.

* * *

صوت طرقات سريعة وقوية على باب الشقة، أسمعها وأنا أغط في النوم.. فلا أستطيع أن أميز إن كانت تأتيني من الحلم أم هي حقيقة مؤكدة.. ويرتاح عقلي لمزجها بعالم الأحلام كأن الواقع أصبح أثقل من أن يتحمل متغيرات جديدة. والطرقات تتزايد حتى تنال من قدرتي على التحمل والمقاومة.. ثم أرى أمامي دهليزًا مظلمًا لا أتبين معالمه، يقف بمنتصفه كلب أسود. واحد من الكلاب الأربعة التي كانت تمسك بها المرأة البدوية.. أتراجع للخلف خطوتين فتهبط من السماء جنازير مشتعلة ومربوطة ببعضها على هيئة مشنقة. فتباغتني بالتحرك ناحيتي قبل أن أفكر في الفرار وتطوق رقبتي.. أصرخ فينبح الكلب ويركض ناحيتي بلسانه المدلى ولعابه السائل على جانبي فكه وعيناه المضيئتان.. لا مفر. أستيقظ من النوم مذعوراً لأسمع صوت الطرقات على باب الشقة يكاد يحطمه.. تماماً كما أتاني في الحلم، أو كما ظننته في الحلم !.. فانتفضت منزعجاً وأنا أسأل الطارق عن هويته، لكن لا مجيب.. وتتحول الطرقات إلى صدمات عنيفة، فينفتح الباب على مصرعيه.. ويقتحم الشقة مجموعة من الرجال يطوقون المكان، فأصيح:

- أنتوا مين؟

يدنو مني الذي يطبع على جبهته زبيبة ويرسم على شفتيه نفس الابتسامة

السمجة التي طالما رأيتها على شفتي عفت ومحمد عبد التواب رئيس اتحاد الطلبة، يضع راحته على كتفي ويقول ببساطة:

- إحنا الـمُلاك الجُداد.

سرعان ما بدأت أستجمع شتات أفكاري، ولكني فشلت في التوصل إلى حقيقة الأمر، فصحت به:

- نعم يا روح أمك؟!

فبادرني أحدهم بصفعة قوية على صدغي وهو يقول:

- اتأدب وأنت بتكلم سيدنا الشيخ يا كافر يا ابن الكافر.

فشعرت بطعم الدم المنساب في حلقي، فبصقته وعدت أدير بينهم عينيّ لأرى كبيرهم مازال محتفظاً بابتسامته ونظر لخادمه معاتباً، ثم قال:

- بالراحة عليه يا مُسعد، حسن بيفهم ومش هيتعبنا.

في اللحظة ذاتها رأيت الآخرين يرفعون أثاث البيت ويلقون به من النوافذ.. أولاد الزنى يتجرأون على ذكرياتي كأنها حق مستباح، ورأيتهم يحملون مقعد سليمان فصرخت متوسلاً وأنا أندفع ناحيتهم، لكن الكائن العملاق المدعو مسعد طوقني من الخلف بكل ما أوتي من قوة حتى كادت عظامي تتهشم بين ساعديه وعجزت عن الإتيان بأي حركة، فشعرت بالاختناق.. وأمرهم شيخهم بالتوقف أمام توسلي والعبرات المنسابة من عيني. وقال:

- شوف يا حسن.. إحنا زي ما قلت لك الـمُلاك الجداد للبيت.. عمك صاحب البيت ومالك الحجة، يعني وجودك هنا طول الفترة اللي فاتت يعتبر بلطجة، ودا ضد القانون وميرضيش ربنا.. بس إحنا عشان ناس عندنا رحمة هنسيبك وأنت ماشي تاخد معاك كل اللي يلزمك من العفش بدل ما نرميه.. إحنا أشترينا البيت مش العفش.

في هذه اللحظة تمنيت أن يكون الكابوس مستمراً، الكلب والمشنقة المشتعلة أهون على النفس من كل هذا. وجع البدن - وإن كان عظيماً - أهون على

الأعزاء من وجع الكرامة.. الموت نفسه أهون على من هم مثلي من المذلة.
هكذا عدت إلى شقتي القديمة.. بعد أن طالبني مالكها بضعف الأجر.. عدت لا أحمل معي إلا كتبي وأوراقي ومعظم ملابسي ومقعد سليمان. أرأيت ما يفعل الأخ بابن أخيه يا أبي؟.. أمازلت تحلم باليوتوبيا؟.. ضيعتني بحماقتك وضيق أفقك وإيمانك بالناس. لم تؤمن بأخيك قط؟.. أجل، أعلم هذا ولا أبالي به فإن معظم النار من مستصغر الشرر، وما كان سيتمكن اللئيم من مضغ لحمك حياً وميتاً لولا إيمانك بأن المجتمع إذا صلح كله سيضمر العضو الفاسد فيه من تلقاء نفسه. المجتمع يقوي الفاسدين ويرفعهم إلى مقاعد السلطة يا سليمان.. أولم تؤمن بعد؟!.. لكن المقاعد الخاوية لا تنوب عن أصحابها بالإجابة أبداً !
وهاتفني ياسر ليخبرني أنه مع خالد في مسجد أبي العباس ينتظران الرجل الغريب ليكملا ما بدأناه بشأن الأرض.. وأنهيت المكالمة بعدما وعدته بأن ألحق بهما.. لم أحب أن يحدث خلل ما فأثير بتغيبي التساؤلات. مرارة الهزيمة تزداد كلما زاد عدد من يعلمون بها، حتى لو كانوا من الأصدقاء.. فالنصيحة والشماتة لدى المغلوب على أمره يتساويان. كما أنني صرت أملك ناحية المختار فضولاً يتزايد بعدما تبين لي أثر الحدث الأخير أنه ليس مبعوث من عند عفت كما كنت أظن.. لكن يقيني بكونه مخادعاً لم يتزعزع لحظة واحدة. لكن أي نوع من المخادعين هذا، ولصالح من يعمل؟.. وهل كانت أرض خالد غايته حقاً أم إنه أذعن لإرادة صاحبنا طمعاً منه فيما هو أعظم؟.. كل هذه التساؤلات لا قبل لي بالإجابة عليها الآن، الأمر يحتاج إلى قدرٍ من المثابرة ومجاراة الأحداث إلى أن تصل إلى ذروتها. وربما أستطيع ولو لمرة واحدة في العمر أن أسجل إنتصاراً يليق بي.. ربما...
قابلتهم عند الأرض.. مر الرجل من بوابتها الحديدية وأوصانا أن ندخل بأقدامنا اليمنى، ثم قرأ الفاتحة والمعوذتين وآية الكرسي.. ومضى يحسب خطواته لليمين تارة ولليسار تارة، ثم يتقدم للأمام ويعود للخلف وهو يضرب بعصاه

الأرض في أماكن متفرقة ويتمتم بكلمات لم استبنها.. ثم توقف في بقعة تكاثر فيها براز الكلاب والقطط الضالة ورسم على شفتيه ابتسامة كما رسم على الأرض دائرة وكتب بداخلها (عزام).. وقال بارتياح المنتصر:

- هادا مكان المقبرة.

فسأله ياسر عن عزام، فقال:

- عزام جني من خدم سيدنا سليمان.. ما بيحضر غير لمساعدة عباد الله الصالحين.

فسألته كالمتربص:

- وأنت عرفت منين إن ده مكان المقبرة؟

فلوح بعصاه ناحيتي حتى لامست ساقي.. ثم دنى مني، ووضع راحته على كتفي وقال:

- عن قريب بنبدأ الحفر بإذن الله تعالى.. وعدتكم بالخير تجدوه. بس لي عنديكم حق العالم على الجاهل، أطيعوني فيما ليس لكم به علم تبلغون حسن الخاتمة، واهديكم سواء السبيل.

ثم أخرج من جيب جلبابه حبة أفيون، وضعها في فمه وأردف:

- إن وفيتم وفينا.. وإن خالفتم خالفنا.

ثم رفع راحتيه أمام وجهه مطوقاً اليمنى بمسبحته، وترك عصاه تسقط من يسراه.. وقال بلهجة من لا يسمح بالمراجعة:

- الفاتحة.

فالتقت أعيننا في نظرة مترددة، ثم سلمنا بتنازل مؤقت ورفعنا راحاتنا مثلما فعل، ورحنا نقرأ الفاتحة.

التسكع على كورنيش البحر هوايتي المفضلة، وملاذي، ضاق حي محرم بك وضاقت شوارعه ومقاهيه بذكرياتي وهزائمي المتعاقبة، وأخذ حلم البحث عن عمل مناسب يراودني من جديد، فأجريت عدة مكالمات لزملاء الدراسة القدماء،

وخصوصاً أصحاب الشفاعة منهم الذين نمى إلى علمي تعيينهم بمراكز مرموقة لأسألهم وظيفة مناسبة.. فلم أجد عند أحدهم جوابًا يرضيني. وسلمت عقلي للبراح عند كوبري ستانلي، ورحت أنظم بعض الكلمات الإباحية لأمزجها مع تشبيهات ماجنة.. فأعجبتني اللعبة، وأخرجت ورقة وقلم لأدون مطلع القصيدة، ثم أمسك شيطان الشعر عني الوحي بعد السطر السابع، فأخذت تراودني بعض الأحلام والأمنيات.. تنازلت عن حرصي ونسجت من الخيال حبال أطول بها عنان السماء. ماذا لو أخرجت الأرض آثاراً فرعونية كما تنبأ الشيخ والجنوبي من قبل؟.. هو الثراء الفاحش، العظمة والمجد والشهرة.. السيارات والملابس الأنيقة والنساء الحسنوات والخمر الغالي.. جنة أصنعها على الأرض بنفسي ولنفسي. أصبح راعي الأدب وداعم الفنون.. يردد اسمي في المحافل الدولية. "صالون الأستاذ حسن سليمان". "جائزة حسن سليمان لشعر العامية".. وظلت الأحلام تراودني حتى لاح أول ضوء للفجر في الأفق البعيد. وما قطع حبل أفكاري وأخرجني من جنتي إلا صوت احتكاك عجلات سيارة ما بالأسفلت.. فالتفت لأجد السيارة تقف خلفي تماماً، وتخرج منها حورية من الجنة، تهرع ناحيتي وتتكئ على سور الكورنيش، وتحاول أن تستفرغ أكثر من مرة.. ثم تسقط مغشياً عليها.. وأحاول إسعافها دون فائدة، أحاول أن أستنجد بأحد المارة فلا أجد على مرمى البصر جنس مخلوق.. فلا أعلم أيصطفيني القدر بها أم يبتليني. وعلى كل حال لم أجد أمامي حلاً أفضل من حملها على ساعدي ووضعها بالسيارة، ثم ركبت على عجلة القيادة وانطلقت بها ناحية مسكني.. رائحة الخمرة التي كانت تفوح منها جعلتني أعرف أن ما أصابها ليس أكثر من إغماءة ناتجة عن تعاطيها لكمية كبيرة من الكحول، لا أعرف التوصيف الطبي الدقيق لهذا لكنني تعرضت لحالة مشابهة عندما كنت حديث العهد بالمشروبات الروحية. حملتها إلى سريري وجلست بجوارها أتأملها بإعجاب.. آية في الجمال ببشرتها الخمرية وجسدها المتناسق وشعرها الأسود الممتد حتى خصرها.

ترتدي فستانًا أسود قصيرًا يكشف عن ساقين منحوتتين بعناية وركبتين كأفضل ما يكون العنوان لفخذين مثيرين. وضمت في نومها ذراعيها على نهدين مكتنزين كما ضمت جفنيها لتبرز - بمعاونة الكُحل الذي لم يفسد كله - رسمة العينين كما لو أنها أجمل ملكة فرعونية، وأنفها المنمق الرفيع إغريقي الطراز، والشفتان يكملان فتنتها بطلائهما اللامع ذي اللون الوردي.

فتشت حقيبة يدها لأتعرف على هويتها، فوجدت بطاقتها الشخصية وتفقدت بياناتها.

الحالة الاجتماعية: عزباء.

الاسم: سلمى محمد محمود السناري.

المدينة: الإسماعيلية.

وتمددت على أرض الحجرة بالقرب منها، وكلما أثقل النوم جفنيّ يتكفل أنينها بإيقاظي.. سهرت على رعايتها، وهو الأمر الذي لم أفعله من قبل مع أقرب الناس إليّ، سليمان نفسه كان يدنو من الموت بخطوات منتظمة ولم أقدم له إلا زيارة أو زيارتين كل أسبوع.

وفي الساعة السادسة مساءً فتحت عينيها وأخذت تدور بهما في الغرفة، ثم نظرت إلي وسألتني السؤال الذي توقعته:

- أنا فين؟

لكن فاتني أن أتوقع ذلك الصوت الملائكي الناعس، فأجبتها ببساطة وأنا أرسم على شفتي ابتسامة مطمئنة:

- في بيتي.

فبدأت تستجمع قواها وأشارت إليّ وكادت تسألني السؤال الثاني كما توقعت أيضاً: من أنت؟.. لكنها قبل أن تتفوه به وضعت يدها على جبهتها وتأوهت، فبادرتها:

- حمد لله ع السلامة يا سلمى.

فنظرت إلي مندهشة، فوفرت عليها مشقة الكلام ووضحت لها كل ما حدث بداية بسقوطها على كوبري ستانلي وحتى اطلاعي على بطاقتها الشخصية.. فاعتذرت بدورها عن ما سببته لأسرتي من حرج، فضحكت وقلت:

- أنا مش متجوز.. يعني لو في حد فينا دلوقتي في موقف محرج يبقى أنتي مش أنا.

فأسبلت جفنيها حياءً وارتسم على شفتيها شبح ابتسامة عذرية حمراء كنور الغسق.

هي سلمى السناري من عائلة السناري الذين ينحدرون من نسل بشوات ما قبل الثورة الناصرية. عائلة تحترف تغيير جلدها مع تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية ليحافظوا بذلك على مجدهم وثرواتهم ويورثونها لبعضهم جيلاً بعد جيل.. بداية بتملق السراي وخدمة الإنجليز، ثم التشدق بالشعارات الاشتراكية في مجالس أهل السلطة وأصحاب الرأي. يقال إن حركة التأميم عندما بدأت سلم السناري الكبير نصف أملاكه للدولة بمؤتمر صحفي دعى إليه السيد رئيس الوزراء وحضره مندوب من رئاسة الجمهورية، في الوقت الذي كان كل أصحاب الأملاك يسلكون كل السبل للتهرب من التأميم، وقرأ الباشا على الحضور خطبة وطنية غارقة في الشيفونية، وقيل آنذاك إن الرجل علم بطرقه الخاصة أن الحكومة تستعد لتأميم كل أملاكه فنجى بفعلته تلك من الإفلاس، وقدم للدولة نموذجاً يحتذى به للرأسمالية الوطنية.. ثم أكمل أكبر أبنائه الطريق من بعده، وأعاد أضعاف ما فقدته العائلة بالتأميم في زمن الانفتاح، فقدم هو الآخر نموذجاً يحتذى به للاحتيال الوطني !.. ودخلت العائلة زمنًا من التقلبات والصراعات الداخلية قبل أن يستقر بهم الحال في السنوات العشر الأخيرة على احتكار التجارة والاستيراد لمجموعة من السلع الأساسية بعدما نالوا ثقة الحزب الحاكم واستحوذوا على مقعدين بمجلس الشعب.. وهذه باختصار هي حكاية العائلة كما يتداولها الناس منقحة من الأساطير والخرافات الشعبية.

وقبل أن نكمل التعارف بصورته التقليدية هاتفني خالد أكثر من مرة، وفي كل مرة أرفض المكالمة قبل أن يتم الجرس رنته الثانية.. ثم سلمت لقبول المكالمة وأنا مُكره عليها.. فأخبرني بآخر ما كنت أنتظر حدوثه. ثمة أناس يسعون لشراء الأرض، قال إن والدته وعمه يصران على إتمام عملية البيع. فاندفعت محتداً:

- وهي أمك افتكرت دلوقتي أن عندكوا أرض للبيع؟

قال ما معناه إن الأرض بموقعها البعيد عن العمران لم تجذب لها مشترٍ من قبل. ونحن الآن أمام سطوة الأمر الواقع، المشتري جاهز وقد حدد مع عمه موعدًا للمقابلة عصر اليوم، فطلبت منه أن يذهب في الموعد المحدد ليحضر التفاوض، وأكدت عليه ألا يأتي على ذكر (ما نفعله).. كدت أقول له ألا يأتي على ذكر (المقبرة).. لكنني تذكرت وجود سلمى فآثرت الحرص، وأنهيت المكالمة. ثم دفست رأسي بين راحتي، وشعرت بأناملها الحريرية الناعمة تداعب خدي، فرفعت وجهي لأتأمل ابتسامتها البريئة وملامحها الطفولية.

- شكلك بيبقى وحش وأنت زعلان.

هكذا قالت، فرسمت على شفتي ابتسامة تليق بها وقلت:

- شكلك بيبقى حلو وأنتي نايمه.

عرفت أنها تركت بيت العائلة إثر إجبارها على الزواج من ابن عمها بزعم الحفاظ على الثروة.. حكاية نمطية تنقصها التفاصيل لكنني فضلت ألا أستزيد.. وحكيت لها عن امرأة أخرى فعلت مثلها ذات يوم، لكن يبقى الفرق بينهما أن المرأة الأخرى لم تكن مجبرة على شيء، كل ذنبها أنها اختارت أن تكون صاحبة القرار الأول والأخير في شئونها الخاصة، اختارت أن تتزوج الرجل الذي أحبته.. اختارت أن تتمم زيجة لا تتوافق مع مصالح أبيها، فصارت من المغضوب عليهم. هل تعلمين الفرق بين المغضوب عليهم والضالين يا سلمى؟.. هو الفرق بينكما.

هل في حرية الاختيار ضلال؟!.. هكذا سألتني فأجبتها بقبلة على خدها الأيسر

بعدما رسمت على شفتي ابتسامة هازئة بكل القوانين الوضعية.
آه لو تعلمين يا سلمى.. لو تعلمين أن المصادفات لم تلق في طريقي قبلك إلا المتاعب، وكأن القدر يصلح بك ما أفسده بحياتي مرات ومرات.. بك سامحت القدر، ولك أسامح الحياة. لم نتعارف؟.. ومنذ متى تحتاج الأرواح إلى التعارف كي تتآلف؟!.. كل النساء اللواتي قابلتهن بحياتي كن خرافات، وأنت وحدك حقيقة تمس الفؤاد الظمآن، والمحتاج للحظة دفء.. أنت الدفء يا سلمى.

* * *

أمامنا بوابة الأرض، في سيارة المختار سمعنا الحكاية من خالد بتفاصيلها. رجلان من دولة خليجية عرضا لشراء الأرض سعر مرتفع وطلبوا إنهاء إجراءات البيع بأسرع وقت ممكن، وحين سألهم الحاج محمد القفاص - عم خالد - عن الطريقة التي ينوون الإنتفاع من الأرض بها قالا أنهما سيبنيان عليها مول تجاري ضخم.. الأمر مريب.. مول تجاري في منطقة نائية؟!

- تفتكروا حد خد خبر باللي إحنا بنعمله؟

كان السؤال من ياسر، فبادلته نظره مستريبة، ثم نظرنا لخالد بشك.. فراح يبرئ نفسه:

- وربنا ما قولت حاجه لحد.

لكننا لم نصدقه، القاعدة تقول: أنت تحلف، إذن أنت كذاب. ودار بينه وبين ياسر حديث حاول فيه الأخير أن يستدرجه إلى اعتراف.. ثم أنهيت حديثهما بنبرة حادة:

- اللي حصل حصل.. خلونا نفكر أزاي نخلي البيعة متتمش.

فتدخل الشيخ بنبرته الهادئة المطمئنة:

- ما توقفوا البيعة.. أخروها سبوعين وبعدين اللي بيريد الأرض ياخدها ويبقى الخير خيرين.

أدهشني ثبات الرجل ويقينه، ويبدو أن ياسر كان يشاركني نفس الشعور لأنه

سأل متشككاً:
- وأنت متأكد أننا هنقدر نخلص كل حاجه في إسبوعين؟!
فمضى الرجل يوضح خطوات العمل بمنتهى الدقة:
- أول هام بنحضر عزام لجل ما يفاوض حرس الأجداد.. وبعدين بنسيبه سبوع، أغلب الظن أن الحرس هيبعتوا لنا عطية.. لو قبلناها بتعصى علينا المقبرة وعلى كل بني آدم ليوم الدين.
فقاطعه خالد متساءلاً كما يكون الغباء في أسوأ صوره:
- وإحنا هنرفضها.. ولا أيه؟
فضحك الشيخ، وقال بسخرية ناعمة:
- أيش بتريد.. وإحنا بنسوي كيف ما تريد.
وسألته:
- أنت تعبان يا خالد؟
ففغر فاه متداركاً خطأه، وذاغت عيناه وهو يقول:
- لا.. هو.. أصلي...
فقاطعته باسماً:
- بلا أصلك بلا فصلك.. ماسمعش صوتك بقى من هنا لحد ما يبان لك صاحب.
ثم وضع ياسر يده على كتف الشيخ وقال ملحاً:
- كمل يا عم الشيخ.
فاستطرد الرجل:
- لما بيعلموا الحراس أننا رفضنا عطيتهم بيبدأ عزام يفاوضهم لجل ما يسمحوا لنا بالدخول ويرفعوا أذاهم عنا.
ثم صمت قليلاً قبل أن يبدأ في شرح الدور الذي سيقوم به كل منا بعد لحظات. فوكل لياسر معاونته فيما يتعلق بالحفر وناولني ورقة مطوية، قال إن بها طلسم يجب حرقه إثر تحضير الجني مباشرة، وحذرني من محاولة فتحها قائلاً:

- إياك تفضها لاجل ما تنضر.
فوضعتها في جيبي، وأثناء مغادرتنا السيارة لمحت ورقة بيضاء مشابهة على مرمى البصر.. فتعمدت الوقوع على الأرض لأضعها في جيبي في لمح البصر، فلم يلاحظ أحد ما هو أبعد من تعثر قدمي بباب السيارة.. وارتحت لذلك.

وفي الأرض اشتعلت جمرات من الفحم الذي أحضره الشيخ، وأخذ ياسر يحفر مكان الدائرة التي رسمت في الزيارة السابقة.. كان نصفه العلوي العاري يبرز عضلات ظهره وذراعيه بينما يحفر بنشاط ملحوظ. بما يتناسب مع رجل بينه وبين الثراء خطوات معدودة.. أكثر ما خشيته في ذلك الوقت أن يكون ياسر قد صدق الشيخ المخرف كل التصديق، وآمن بحقيقة ما يسعى إليه كل الإيمان وإن زعم غير هذا، ليتركني بذلك وحيداً مع شكوكي ومحاولاتي المستميتة لفضح مأربه.
أنهى صاحبي عمله، إذ صنع في الأرض حفرة دائرية قطرها يزيد على ثلاثة أمتار وعمقها مترين.. ثم رأينا الشيخ يقف أمامها ويأمره بإلقاء الفحم المتقد بالحفرة، ففعل.. وطلب منه أن يخرج من الشوال ثلاثة حفنات من البخور ويلقيهم على الجمرات، ففعل. وراح الشيخ يستنشق البخور المتصاعد من الحفرة حتى رأينا الدماء يحتقن بوجهه، فتحول لونه إلى الأحمر القاني.. وأخذ يعبث بمسبحته في سرعة جنونية حتى ظننته سيقطعها وينثر حباتها على الأرض.. ونطق بصوت جهوري يطلب الإذن من العدم !.. ثم أخرج من جيب جلبابه زجاجة صغيرة لا تتسع لأكثر من عشرة جرامات من السائل الأحمر الكثيف التي لم تكن تحوى منه إلا أربعة جرامات على أقصى تقدير.. سكب منه بالحفرة قطرات فزادت كثافة الدخان وصدر عنها صوت غليان رهيب كأن بها قبسًا من الجحيم نفسه. وبدأ يقرأ بعض الآيات القرآنية، ثم تمتم بكلمات عربية

ركيكة تتخللها مصطلحات بلغة أجنبية لم أفهم منها إلا اسم عزام الذي كرره أكثر من مرة.. فعرفت أنه يلهج بتعويذة لتحضير عفريته المجهول.. وجاء دوري لأفعل ما اتفقنا عليه، فتحسست جيبي لأتأكد من وجود ورقة الطلسم في مكانها وأخرجت الورقة الزائفة.. فألقيتها بالحفرة لتأكلها النار.. حفنات أخرى من البخور ألقيت، وكلمات أخرى غير مفهومة خرجت من فاه قبل أن نعيد الأمور إلى نصابها، أخفينا الحفر بألواح خشبية، ووضعنا فوقها طبقة طينية لتعود الأرض إلى طبيعتها الأولى كأن شيئًا لم يحدث.. وعاد كل منا إلى بيته بعدما اتفقنا على أن نلتقي في موعد قريب..

في طريقي إلى المنزل رأيت بيت الصايغ عليه لافتة مضيئة، صفراء بلون الكراهية. تحمل شعار الخراب وتتوسطها جملة "مقر حزب الحرية والعدالة"، تحتها بخط أقل حجماً "أمانة محرم بك".. وتزايد إحساسي بالقهر، وارتسمت على شفتي ابتسامة بلهاء وأنا أستحضر بذاكرتي صوت رأفت رستم (أحمد زكي) في فيلم "معالي الوزير" وهو يسأل عطية (هشام عبد الحميد):

- عمرك شفت وساخة أكتر من كده؟

هل أجابه عطية وقتها إجابة يرضاها؟!

ودخلت شقتي وأنا أغني: يا شمس شوفي الجدع ألا يكون تعبان.. قالت عليك يا جدع أجمد من الصوان.. همك في دمك، ما همك... ورأيتها تتمخطر في منامتي كزهرة أرجوانية في مهب الريح. المبهجات ثلاثة:

صوت إليسا.

والسجائر المستوردة.

وبسمة ترتسم على شفتي فتاة كسلمى.

قالت:

- وحشتني.

قلت:

- وأنتي كمان.
ثم لثمت راحتها لأسكر من ملمس بشرتها الناضجة كثمرة مشتهاة.
وشربنا النسكافيه سوياً (بلاك كما تفضله).. ثم مضغنا الذكريات، فرحت أحدثها عن الحب والقصائد.. واستزادت من التفاصيل، فأزدتها. بدءًا بمها التي كانت تبادلني مشاعري العذرية الأولى في سنوات الصبا والبراءة.. مروراً بسماح التي كانت تفتح رجليها أكثر مما يتحدث الساسة عن الديمقراطية وحرية التعبير.. وانتهاءً بعلاقاتي العابرة التي أقمتها ككلب مشرد يبحث في الخرابات عن وعاء يفرغ به ماء ظهره. مطلقات، وأرامل، ومتزوجات ممحونات، ومومسات مأجورات، وفتيات معهد الخدمة الاجتماعية.
هي أنثاي الأولى وكل اللواتي عرفتهن قبلها محض اشتهاء.. نسائية أشعاري كملمس الحرير على الجسم المنعم.. في البدء كانت قصائدي عذرية، وكان الله يتجلى في مواطن العشاق بسمتها الأسطوري.. ليلى العامرية ومجنونها الذي أنكرته القبيلة. كليوباترا السابعة والقائد الحربي. جولييت النبيلة وعشيقها ذو الوجه الصبوح. (ورأى الرب ذلك غير حسن) فراح بنوره القدسي يتجلى في بؤبؤي عينيها.
- حاسس أنك بقيتي قدري.
- ودي حاجة حلوة ولا وحشة؟
فتتسع ابتسامتي وأنا أجيبها مراوغاً ومداعباً في آن واحد:
- أنتي شايفه أيه؟
وشغلتني في تلك الأيام هذه الآية القرآنية التي كتبت بخط اليد في ورقة الطلسم داخل دائرة تقطعها ثلاثة خطوط عرضية وخطين أفقيين تحيط ببداياتهم ونهاياتهم أرقام عشوائية وحروف لاتينية لم أستطع أن أحدد الرابط بينها، أما النص القرآني فكان من سورة يوسف {قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ}.. ما معنى هذا؟!.. وراح عقلي يدور في أكثر من منطقة ويطرق

أكثر من باب للظنون السيئة والافتراضات الحسنة ولكن كلها غير موصولة ببعضها كما يجب.. هناك دائماً شيء ناقص. المختار دائماً ما يخالف توقعاتي بتصرفاته ومفاجآته. جرابه كجراب حاوٍ لا يخلو من الألاعيب..

وقابلت ياسر عند (لسان) جليم، وجلسنا في آخره على الصخر المواجه للأفق، فولينا ظهورنا للطريق والعابرين، والعشاق على الصخور المجاورة.. حدثني عن حلمه بالثراء، وشاركني مخاوفه من أن يتحول الحلم كله إلى سراب إذا ما صح ظني.. وقلت له إنني واثق أن ظني سيصح.. وضايقه هذا، فذهب إلى إنهاء المناقشة.. وسألني عن سلمى. كنت قد حدثته عنها من قبل، وحكيت له كيف أوقعها القدر في طريقي وكيف تعجبني أنوثتها.. ولما عرف أنها مازالت تجلس معي بشقتي غمز بعينه وهو يبتسم بخبث ويقول:

- الله يسهل لك يا عم.

فنبأته بأمرها، فلما انتهيت من كلامي انتفض مذعوراً، وقال بحدة:

- يا نهار أسود.. يعني البنت دي هربانة؟

فقلت بهدوء لا يتناسب مع توتره:

- أيوه.. عرفت ليه بقى هي قاعدة عندي لحد دلوقتي يا أبو مخ مضلم؟

- وأنت أيه اللي يورطك توريطه سودة زي دي؟!

قلت أحاول أن أوضح له خطورة ما ينتظرها:

- سلمى لو نزلت الشارع هتتمسك في ساعتها.. الداخلية بتدور عليها فـ كل شبر.

فزادت حدته:

- وأنت مـــالك؟؟

فقابلته بصوت أعلى من صوته:

- أمال أنا عمال أحكي لك في أيه م الصبح يا بني آدم أنت !

فاعتدل في جلسته ليواجهني بعينيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة، وسألني:

- حبيتها يا حسن؟

أخذت أملأ عينيّ من روعة السحب المتناثرة فوق صفحة الماء على امتداد البصر، وراحت أناملي تعبث بالحصوات المتناثرة على الصخرة بجانبي، ثم أمسكت حصوة كبيرة نوعاً ما وألقيت بها في الماء، ثم راقبت بعينيّ الدوائر التي أحدثتها، ونظرت إليه فوجدته مازال ينظر ناحيتي وهو محتفظ بابتسامته، فارتسمت على شفتي بسمة هي التوتر نفسه وأنا أعيد النظر إلى صفحة الماء وأستنشق رائحة اليود المنعش، وقلت:

- عارف يعني أيه حد عينه بتعرف تحضنك؟.. عارف إحساسك بأن في واحدة بتلاقي الأمان في حضنك؟.. الدنيا بتضحك لك لما تسمع ضحكتها. قلبك بيتنطط م الفرحة لما لسانها ينطق أسمك.. مش عارف يا صاحبي، يمكن قلقان.. يمكن خايف، أو يمكن متردد.. مقدرش أقول لك أن اللي جوايا من ناحيتها حب، بس مقدرش بردو أقول أنها مش فارقه معايا.. كل اللي أنا متأكد منه أن جوايا حاجه مش مفهومه بتكبر كل يوم حبتين.

أعاود النظر إليه فأجد ابتسامته قد اتسعت، وقال مؤكداً:

- حبيتها يا ابن عم سليمان.. حبيتها.

شجعني الشكل الجديد للحياة على التفكير بشكل مختلف. اهتمامها بتنظيف البيت المتواضع. طهوها المميز. اعتناؤها بدولاب ملابسي وهندامي. ترتيب مكتبتي. كل ذلك أضاف لحياتي لمسة من نوع خاص.. لمسة امرأة تقوم بواجبات زوجة، فداعبت فكرة الزواج عقلي وأخذت أنظر إليها باعتبارها زوجة مستقبلية.. برغم أزمتها مع عائلتها؟.. وكأني أعيد سيرة والدي !.. كل ما شغلني في هذا الوقت أنها تتغلغل في تفاصيلي الصغيرة بصورة ستجعل الإستغناء عنها أمراً مستحيلاً.. سلمى ليست فقط فتاة دق لها قلبي كما لم يحدث من قبل، هي أيضاً الزوجة التي أرتضيها. ولكني لا أستطيع أن أسألها الزواج قبل أن أتأكد من حقيقة مشاعرها تجاهي. ربما كانت محض إعجاب بشاب كريم استضافها ولم

يفكر فيها بصورة شهوانية ، لدقة التعبير (لم يطلب منها ثمن كرمه). ربما كان قلبها معلقًا بآخر، بدأت حربها الأسرية من أجله.. وظلت تلك الوساوس تلعب بعقلي حتى رن هاتفها ذات يوم. فسمعت بعض كلماتها المقتضبة قبل أن تنهى المكالمة التي لم تتجاوز دقيقتين، فسألتها لما وجدت الضيق يرتسم على ملامح وجهها بوضوح لا يمكن إنكاره:

- مين؟

قالت وكأنها تلقي بهمها بين يدي، وكأني فارسها ومخلصها:

- دا ابن عمي.. بيقول أن بابا كلم قيادات كبيرة في الداخلية والبلد كلها مقلوبة عليا.

راق لي في هذه اللحظة أن آخذها بين ذراعي.. فاستسلمت لحضني وأنا أقول:

- متقلقيش.. أكيد هنلاقي حل.

قالت وهي تلف ذراعيها حول ظهري:

- عارف؟.. أنا عمري ما حسيت أن الضعف ممكن يكون حاجه كويسه، دلوقتي بس فهمت معنى أن الست تتباهى بضعفها قدام راجل يصونها ويحميها.

وكأنها كانت تعرف ما يدور بعقلي، فقررت أن تنتشلني من مخاوفي.. إنها تبادلني نفس المشاعر التي أبادلها إياها. وكأننا ما وجدنا في هذه الدنيا إلا ليقابل كل منا الآخر ويشاركه آلام ماضيه وحاضره. ذلك الحضن احتواء، هل تعرفين يا سلمى ما هي لذة الاحتواء؟

تخلصت من مشكلة بيع الأرض بتعقيد الأمر، فعلت ذلك بمساعدة صديق يعمل بالتمثيل المسرحي. ثم ذهبت لياسر بمحله، وكان خالد يجلس معه.. واضح أنه أشبعه ثرثرة كما أشبعني اتصالات، حتى لجأت لكتم صوت جرس هاتفي لأتخلص من إلحاحه.. وبمجرد أن وقعت عليّ عين خالد صاح متأففاً:

- أنت فين م الصبح يا عم؟

أزحته من طريقي بضيق، ودخلت إلى المكان الذي تصنع فيه المشروبات،

أخذت أبحث بين الأكواب والمعالق عن ضالتي وقلت دون أن ألتفت إليه:
- خمسين رنه في ساعتين يا كافر؟!
- قلقان يا عم.
- وأيه اللي يقلقك يا حبيبي؟.. إحنا مش أزمتنا كلها دلوقتي بقت أزمة وقت؟
لمحت ياسر منهمكاً في تصليح أحد الهواتف التي أمامه، وسمعت الآخر يؤكد:
- تمام.
فسألت ياسر عن الشاي، فقال إنه نفد.. فأكملت بحثي وصوت خالد يحسني على أن أكمل كلامي، فقلت بإيجاز:
- دلوقتي حالاً في واحد صاحبي قاعد مع عمك بيعرض عليه ضعف السعر اللي الخلايجه عرضوه، وخلي المفاوضات بقى تاخد مجراها.. هما يغلوا، وإحنا نغلي.. وعلى ما عمك ياخد قراره نكون إحنا خدنا غرضنا م الأرض.. وكل سنة وأنت طيب.
ثم أفلت أحد الأكواب ليقع وتتناثر أجزاؤه في المكان، فقلت بعصبية:
- فين أم السكر؟
لم يتحرك ياسر، ولم يحول عينيه عن ما بين يديه، فقط قال:
- أخرج من عندك وأنا أعمل لك اللي أنت عايزه.
- طب اعمل لي فنجان قهوة.
- مفيش سكر.
قال خالد:
- أنا مش فاهم حاجة.
حولت نظري نحو ياسر، قلت بعصبية:
- اعملها لي سادة.. هاشرب أمها سادة.

* * *

جاء اليوم المنتظر.. حل عقدة الطلسم التي شغلت تفكيري لمدة أسبوع كامل. قابلناه عند أول الطريق المؤدي إلى الأرض، واصطحبنا معه في سيارته إلى الداخل.. كان صامتاً لا يتكلم إلا إذا أجبرته الضرورة على ذلك، فيكتفي بكلمة أو كلمتين ليعبر بهما عما يريد.. وكان سائقه ذو الملامح البريئة يرفع صوت القرآن الصادر عن مسجل السيارة درجة أو درجتين كل دقيقة، وكأنه يجبرنا على الصمت.. وكأن المؤامرة وصلت إلى مرحلة حاسمة لا ينفع معها لغو ولا لهو.. وشعرت بأننا صرنا أسرى في هذه السيارة، وهذه الأرض بمقبرتها الغريبة. هل عرف ذاك المختار بخدعتي. هل بلغه عن طريق أشباحه وكراماته وقلبه المتصل بالله أني بدلت الطلسم بورقة زائفة؟.. هل بلغه ذلك؟!

كان يقف أمام الحفرة المغطاة بالطين والألواح الخشبية وكأنه لعنة قدرية صماء.. خيل إليّ أنني لمحته يدير وجهه ناحيتي، وكأنه يراني ويحدد مكاني بدقة !. ثم طردت خيالاتي لأفكر فيما هو أكثر أهمية.. الحفرة !.. أشار الرجل لياسر وهو يضرب عصاه في الأرض:

- توكل على الله الرحمن الرحيم واستعذ به من الشيطان الرجيم.

وراح صاحبنا يرفع الطبقة الطينية بصعوبة بعد أن جفت، فساعدناه في إزاحتها ورفع الأخشاب التي تحتها، وأعيننا ترمق بلهفة ما يتكشف لنا من الحفرة، حتى رأينا شيئاً لامعاً ملقى بإهمال في المنتصف.. في المنتصف تماماً ! قفز ياسر وأمسك بالكأس.. ورفعه بإعجاب أمام عينيه، ثم خطفه خالد من بين يديه ومرر أصابعه على النقوش المحفورة على جانبيه وقال بلهفة:

- دا دهب؟

فمد الشيخ يده، وسلمه خالد الكأس بين يديه، فأخذ يمرر أنامله على كل جزء فيه، وابتسم كما يليق بمحارب منتصر، وقال مفسراً:

- صُواع الملك.. سقاية العزيز يوسف بن يعقوب.

الطلسم !.. الآية القرآنية !!.. {قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ

بَعِيرٍ}.. (صواع الملك) !.. ما الذي يحدث؟.. الأمر يتأكد. هذا الرجل يعرف ما يفعله. هذا الرجل يجيد خداعنا بطريقة محترف لئيم.. وقبل أن أفكر في رد مناسب وجدت ياسر يصيح:

- أنت عاوز تقول لنا أن دي مقبرة سيدنا يوسف؟

فقال الرجل وهو يرفع راحتيه تسليماً بالأمر الواقع:

- أنا ما بدى أقول شي.. التاريخ هو اللي بيقول.

فتنفست الصعداء واستحضرت بعقلي كل ما أعرفه عن قصة يوسف النبي، وقلت وأنا أضغط على مخارج الحروف:

- واحدة واحدة بقى كده وعلى مهلك.. قول لنا بقى، أيه هو اللي بيقوله التاريخ؟

فقال الرجل بعد أن أسند راحتيه على عصاه، وإحنا ظهره للأمام قليلاً:

- بيقول أن يوسف مكنه الله في الأرض من بعد سجنه، وفي مراسم التمكين قال له الملك: يا ابن بوتيفار الأمين تمنى عليّ شي أحققهولك بين الخلايق.. فقال له يوسف: هب لي من لدنك ساقيك صاحبي وصاحب سجني، فإني أعلم أنك جواد كريم. يومها أتقدم الساقي بين الناس وانتقل من حاشة الملك لحاشية يوسف، وهو شايل على كفيه هادي.

وأشار إلى الكأس الموضوعة على الأرض أمامه، وقال إنها هدية الملك ليوسف الصديق، الذي أهداها بدوره إلى صاحبه الساقي في آخر عمره.. ولما انتهي عصر الصديق مال صاحبه إلى الزهد والعبادة، ثم جنح إلى نشر دعوة التوحيد بين الناس.. حتى تبدل الحاكم بآخر يعادي رسالة التوحيد ومن يدعون لها.. وبالطبع كان من مصلحته ومصلحة كهنته أن يقوم بعمل إبادة لرؤوس الدعوة.. فهرب صاحب العزيز من موطنه إلى راقودة.. وظل يعيش بها إلى آخر عمره. ودفن بأرضها كما دفنت معه كل الهدايا التي منحها له يوسف في فترة حكمه. فظهرت الدهشة على ملامح ياسر وهو يتساءل:

- يعني دي تبقى مقبرته؟

- ساقي الملك خادم يوسف بن يعقوب وصاحبه.. هذا ما كتب أجدادنا الأولين.
هكذا قال الرجل وهو يرفع رأسه لأعلى، ثم أخرج من جيب جلبابه حبة أفيون وضعها بفمه، وقال بصوت مرتفع لا يخلو من الغطرسة:
- رجعوا العطية مكانها وأهيلوا عليها التراب.. بينا وبين فتح المقبرة خطوة.
فأخذ خالد الكأس بين يديه، وقفز به في الحفرة، ولكني جلست على ركبتي، ومسكت يده القابضة على الكأس قبل أن يلقيه، ودرت بعيني بينهم وأنا أضع على شفتي ابتسامة مصطنعة وأقول بنبرة حماسية نوعاً ما:
- جرا أيه يا جماعة.. مش هناخد مع الكاس صورة سيلفي ولا أيه؟
أنهكتني السجائر التي اتسع صدري لاستقبال دخانها المتصل.. علبتين، أو ثلاثة علب أكلت من اليوم نصفه.. وشرود عقلي وتفكيري المستمر في المقبرة وعطيتها جعلني أنشغل عن وجودها أكثر الوقت. تسائلني عما يأخذ تفكيري ويستحق شرودي وهي تدعك براحتها صدري العاري. أطمئنها فلا تطمئن.. أظنني بحاجة لمشورتها فهي سيدتي وشريكة عمري. وكدت ألقى بالأمر كله بين يديها لولا أنني أشفقت عليها من مضاعفة همها بتحميلها ما لا تطيق حمله، يكفيها ما هي فيه.. ويكفيني دفء مشاعرها، والنوم على صدرها كموطن شرعي.. وكأنها أمي التي لم أعرف حنانها أبداً.. قالت:
- أنا عارفه أني دخلتك معايا في مشكلة كبيرة.. زمانك دلوقتي بتقول لنفسك: أنا أزاي عملت في روحي كده؟.. أنا..
وضعت سبابتي على شفتيها لأسكتها قبل أن تكمل قولها، ولمعت عياني وأنا أقول لها:
- أنتي روحي.
وفي محل ياسر جلست على جهاز الكمبيوتر العتيق، وفتحت الموقع الإلكتروني "ويكيبيديا" بعدما فشلت كل محاولاتي لإيجاد صواع الملك في الكتابات العربية التي عكفت على مراجعتها ليلة كاملة.. رفعت أوضح صورة للكأس على

صفحة البحث، فوجدت عدة صور لكئوس كان أقربها للحقيقة ذلك الكأس المرسوم بشكل كروكي ويحمل نفس النقوش على جانبيه.. وبالفعل وجدت صفحته التفصيلية تحمل عنوان "سقاية يوزرسيف".. نفس كلام الشيخ تقريباً، مع بعض الإضافات البسيطة.. الكلمة التي تحت شعار الدولة هي كلمة "آمون".. والكلمة الثانية "يوزرسيف" أو يوسف، والشعار الذي يعلوها ما هو إلا ختم العزيز آنذاك.. ختم عزيز مصر !.. ثم قرأت عليهم الجزء الأكثر أهمية:

-.. وآخر ما عُرف عن ذلك الكأس أن العزيز يوسف استخدمه لنصب المكيدة ضد إخوته، بأن وضعه في متاع شقيقه بنيامين، ليأخذه إلى جواره.. ثم اختلفت الروايات عن مآله الأخير بعد وفاة يوسف، فقيل إن الحاكم الجديد أمر بتقديمه هدية لآمون، وقيل إن يوسف بنفسه أهداه لصاحب سجنه الذي كان مصاحباً له آن ذاك.. !

أنهك التفكير عقلي.. ثمة مكيدة تُعد.. لكن من الذي يعدها؟.. المختار !.. ذلك المتعجرف الضرير لا... لحظة !.. ضرير؟.. الساعة المرصعة بالألماظ !.. منذ متى يهتم العميان بارتداء الساعات في معاصمهم؟!.. من هو ذلك الرجل، ومن الذي أوقعه في طريقنا؟.. وما هو وجه الاستفادة التي قد يجنيها أي مخلوق منا؟؟.. لا أعلم، لا أعلم.. لا أعلم ويجب أن أعلم.

وكأن السماء فتح بابها في هذه اللحظة.. لم أكن أسمع نشرة الأخبار.. صوت التلفاز لم يكن يعني لي في ذلك الوقت ما هو أكثر من ضوضاء تشعرني بالألفة ولا تتركني لوحشية الصمت.. لكن اسم ناجي عياد انتزعني من شرودي انتزاعاً، فاعتدلعت في جلستي.. أمسكت هي (الريموت كنترول) لتغير القناة، فخطفته من يدها ورفعت الصوت قليلاً، وأخذت أسمع المذيع باهتمام وأنا أرى ناجي على الشاشة في مطار القاهرة يصافح بعض الأشخاص الذي حضروا لاستقباله استقبالاً رسمياً.. قال المذيع:

"... أستاذ علم المصريات بجامعة السوربون.. وقد كان باستقباله معالي وزير الدولة لشئون الآثار، والسيد وزير الثقافة، وعميد كلية الآثار بجامعة القاهرة، ولفيف من المثقفين والمبدعين"

وسألتني سلمي عن سبب اهتمامي، فتمتمت ذاهلاً وأنا غير مكترث بسؤالها:

- والله وبعودة الأيام يا عم ناجي !

فقالت وهي تسحب كوب النسكافيه من الصينية وتضعه أمامي:

- أنت تعرفه؟

نظرت ناحيتها وأنا أفكر.. كنت أنظر ناحيتها لكنني لم أرها. عطل التفكير حواسي.. فاندفعت إلى غرفة النوم وأخذت أفتش في أوراقي القديمة، ثم عدت إلى مكاني مرة أخرى وأنا أحمل بين يدي مجموعة أوراق مهترئة، أخذت أقلبها بحماس حتى وقفت عند إحدى الورقات، وتمتمت وأنا أنقل الرقم من الورقة إلى هاتفي:

- يا رب بس ميكونش غير رقمه.

قالت وهي تربت على كتفي:

- إن شاء الله...

قاطعتها محدثاً تلك السيدة العجوز التي أسمع صوتها بالجهة الأخرى:

- ألو.. صباح الخير.. مش دا منزل دكتور ناجي؟

* * *

رأيت "جروبي".. كان - كعادته - يظهر بواجهته العتيقة من خلف التمثال الذي يتوسط الميدان شاهداً على عبقرية المكان وأصالته.. كنت أبطئ الخطوات إليه رغم تلهفي للقاء. كنت أملأ عيني من صموده العفوي كأي غريب يستشعر الجمال والعراقة بوسط العاصمة.. هذه العاصمة التي تدهسها أقدام سكانها كل يوم وقد ألفوا مبانيها وشوارعها وحوانيتها.

ودخلت أبحث عن وجهه بين وجوه الجالسين فلمحني قبل أن تصل إليه عيني..

فوجدته يهب واقفاً ويهتف باسمي بصوته الرخيم. تصافحنا. جلسنا. قدم إلى واجب العزاء واعتذر عن عدم معرفته بالخبر طوال الفترة الماضية فقبلت عذره وأنا باسم.. مازال وجهه - رغم التجاعيد والهالات المحيطة بعينيه - يحمل ذكريات الزمن البعيد. سألته عن ما تبقى له من مباديء الشيوعية فضحك من كل قلبه وقال إن الإيمان محله القلب. فضحكت وقلت له أن القابض على دينه في هذا الزمان كالقابض على الجمر.. وأنهينا ذلك الحوار سريعاً لننتقل إلى حديث آخر.. ومن حديث إلى حديث، وكان الوقت يحترق بسرعة جنونية وأنا بحضرته ألقى عن كتفي مشقة أعوام مضت.. حتى حانت اللحظة الحاسمة فبدأت أقص عليه الحكاية من أولها إلى آخرها وهو منصت بكل اهتمام.. حتى أنه أغلق هاتفه بعدما أدّن بمكالمة واردة.. ثم قلت في نهاية الحديث وأنا آتي على الرشفة الأخيرة من فنجاني:

- ودا كل الي حصل يا دكتور.

فبدا متجهماً وهو يقول:

- دي مصيبة يا حسن.. أنت عارف كده؟

فأومأت برأسي مرتين، وأرحت رأسي على ظهر المقعد وأنا أقول بصوت لا يخلو من حيرة وتعب بلغا المنتهى:

- إحنا المفروض أول الأسبوع الجاي نفتح المقبرة، في أدينا نبلغ شرطة الآثار ونقلب الطربيزة علي دماغ الراجل ده والي وراه.

فحدق بي مستنكراً وقال:

- إوعى تعمل كده.. دول مش بعيد يكونوا شايفين كل تحركاتك وبيغذوا جواك الإحساس بأن الموضوع كله نصب فـ نصب عشان أنت توصل للنتيجة دي في الآخر..

فتنهدت وقلت كأن جبلاً قد أستقر على صدري وعقلي في آن واحد:

- لو هو مش نصب هيكون أيه يعني؟!.. أنا تعبت ومعدتش فاهم حاجه.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال وهو يمسح ذقنه بأنامل يسراه:
- شوف يا حسن.. م البداية كده كل الكلام الفارغ بتاع صاحب يوسف اللي جه راقودة ده إنساه.. الراجل ده بيخرف.. لأن علماء الآثار لحد اللحظة دي مش قادرين يعرفوا مين ملك يوسف، ولا حد قدروا يحددوا بشكل دقيق هو يوسف كان موجود في مصر أمتي بالظبط.. ومن هنا نقدر نستنتج أن المقبرة دي لو كانت موجودة فعلاً تبقى مقبرة صياد بسيط من الصيادين اللي عاشوا في راقودة من قبل عهد الإسكندر المقدوني.. يعني مقبرة ملهاش قيمة على الإطلاق.
فأخذني الذهول وأنا أسمع ترتيبه المنطقي لمعلومات أعرف بعضها، وقلت وقد استبدت بي دهشة عظيمة:
- طب هو ممكن صياد بسيط يحوط مقبرته باللعنة؟!
فضحك.. ضحك بشدة، وأشار للنادل.. وطلب الحساب.
- سيضرب الموت بجناحيه السامين كل من يعكر صفو الملك.
قال جملته هذه وهو يصلح هندامه ويضبط وضع رابطة عنقه في مكانها. كنا نتسكع في سواد الليل، وقد تركنا خلفنا تمثال طلعت حرب في اتجاهنا لميدان التحرير.. ولما استفسرت عن ما يعنيه قال وهو يقطب جبينه كأنه يتكلم عن حدث عاصره ويستحضره من الذاكرة:
- هما كمان أول ما شافوا النقوش دي على جدران المقبرة مفهموش زيك كده بالظبط.. بس كان لازم يكون في تفسير.. فسموها لعنة الفراعنة.
نظرت إليه مستزيداً فابتسم كأن فضولي يعجبه، ثم قال:
- سنة ١٩٢٢ اكتشف واحد اسمه "محمد زكريا منصور" مقبرة توت عنخ آمون، ولما دخلها هو واللي معاه لقوا العبارة دي موجودة ع الجدران.. (سيضرب الموت بجناحيه السامين كل من يعكر صفو الملك).. الحوادث الغريبة الي حصلت بعد كده متتعدش.. بس يمكن أغربها على الإطلاق وفاة محمد زكريا في ليلة الاحتفال بافتتاح المقبرة، الراجل مات بمرض مفيش

دكتور عرف يشخصه.. وفي نفس لحظة وفاته الكهربا انقطعت عن القاهرة كلها.

فغرت فاهي وقد أخذت بما سمعت أذناي، فقال وهو يلوي شفتيه ليقلل وقع المفاجأة عليّ:

- مكدبش عليك.. حكاية الجن الي بيسكن المقابر الفرعونية دي اتقالت واتصدقت من ناس كتير.. بس فـ الحقيقة أنا بنتصر ديماً لرأي العلم.. في أكتر من بحث أتعمل عن الموضوع ده، وبيقولوا أن وارد جدا يكون في فطريات سامة نشرها الفراعنة فـ هوا المقابر، ودي الي بتتسبب في وفاة أي حد يفكر يفتح مقبرة ملكية.

سألته متشككاً:

- وقطع الكهربا؟!

قال:

- هي صدفة عجيبة حبتين.. بس راحت وللا جت تفضل مجرد صدفة.

وطلب مني أن أكمل الحكاية، فخبرته بأمر الطلسم، والعطية.. ولما سألني عن ما كان بورقة الطلسم ضحكت.. فقد أخبرته بأن الرجل طلب مني حرقها دون الاطلاع عليها ولم أخبره بأنني خالفت أمره، ويبدو أنه عرف سبب ضحكي فقال:

- يا ابني دا أنا مربيك.. وعارف كويس أوي إنك مستحيل تحرق الورقة من غير ما تعرف اللي فيها.

فناولته الورقة بابتسامة منتصر.. فبادلني الابتسامة بمثلها، وقرأ فحواها ثم قال:

- اللي بيلاعبك مذاكرك كويس قوي، وعارف إنك هتقرا الآية دي.

اسفسرت منه عما يعنيه، فلم يزد عن كلمات معدودة:

- هو كان متأكد أنك مش هترمي الورقة في الحفرة قبل ما تقراها.. فبعت لك الرسالة دي عشان لما يحصل التطابق بين المكتوب وبين الأثر اللي طلع بعد

كده تستقوى بنفسك، ويزيد شكك في كل اللي حوليك.. ومن هنا يبقى توجيهك في أي أتجاه شيء في منتهى السهولة.

ينتهى لقاؤنا بكلمات يتردد صداها في رأسي وأنا عائد إلى الإسكندرية، كلمات تلفظ بها وكأنه يستحضر المناضل القديم.. انتهى دور العالم الذي عجز علمه عن كشف حقيقة المؤامرة، وبدأ دور الواعظ حين قال:

- خلى بالك يا حسن، اللي سرقوا مننا كل حلم جميل ببكرة لسه عندهم أمل يسرقوا امبارح.. علشان نصحى في يوم من النوم نلاقي نفسنا عريانين ملط، لا حاضر ولا ماضي ولا حتى مستقبل.. يمكن تكون أنت وجيلك شايفين أن البلد دي عمرها ما وقفت جنبكوا، بس دلوقتي جه الوقت اللي واجبك فيه أنك تقف جنبها.. ويا سيدي أعمل بأصلك، يمكن هي كمان يطلع عندها دم وتعمل معاك بأصلها في يوم من الأيام..

علي لا يكف عن التفكير، وقلبي يذعن لمثاليته.. لا استطيع أن أؤكد أنني رأيت فيه مثالية سليمان الصايغ، ولكني لم أمنع نفسي من سؤال ضروري: بماذا كان سيشير علي الأب المتقاعد الذي حمل الوطن والتاريخ والفقراء على كتفيه حتى ضيع ثروته وضيعني؟.. أدير بيني وبينه حوارًا افتراضيًا، آخذ منه وأرد عليه.. أجادله ويجادلني.. حتى يشتمني، فألعن الوطن والشيوعية وألعنه في سري. الحقيقة أنني أفتقد سليمان الصايغ. ربما كنت أشاوره لأخالفه، ولكني أفتقده بلا شك.. ولا تتحايل اليتيم على يتمه بزيارة الحجر، ولكني فعلتها حين وصلت إلى الإسكندرية.. أجل، ذهبت إلى المقابر.. ومررت أصابعي على أحرف اسمه المنحوت على رخامة القبر، ومنحت المُقرئ اللحوح عشرة جنيهات ثم طلبت منه أن ينصرف، وجلست أمام قبره أستشيره لأخالفه، أو ليشتمني ويحدثني عن العطاء وحلم الوطن الذي هو ملجأ الفقراء وجنتهم. ثم أبتسم وأنا أقرأ على الشاهد المجاور لقبره اسم منال الغريب.. ربما هو لا يشغل نفسه بمناقشتي، ربما لديه ما هو أعظم وأجل، ها هو يرقد بجوارها كما تمنى.

- على فكرة.. أنا معدتش فاهم حاجة. لو أنت فاهم فهمني وأنا مش هجادلك.. والله العظيم هقتنع على طول.

أحدثه، ولا يجيب.. !

- قولي له يرد عليا.. هو هيسمع كلامك.

أحدثها، ولا تجيب.. !

أتمدد تحت قبريهما، أتنهد وأغالب دمعي فلا أغلبه، أسبل جفنيّ، وأسترخي.. فتفتح في السماء العالية طاقة نور تحتويني ولا تضن على بدفئها. فأفتح عيناي على شمس الصباح تطل على القبور المتراصة على الجانبين بقلب منكس كراية جيش مهزوم في حرب ضروس، حارب بشرف وانهزم بشرف !.. فتذكرت حربي، وخرجت من المقابر ناحية البحر بعدما يئست من وصل ما انقطع إلى الأبد، وكأنني كنت آمل في وصله من البدء !.. وخرجت إلى البحر أتأمل اتساعه، وأستنشق هواءه، ربما ساعدني هذا في نيل قليل من الطمأنينة في حرب لا أعرف طبيعتها.. بئس المحارب أنا، يراودني شيخ ضرير، ويكسر عدوي الخفي آخر جدار كنت أسند عليه ظهري وأستريح به لذكرياتي.. نعم أقرأ الخبر في الصفحة الأولى من جريدة الصباح، المانشيت الرئيسي "وفاة الدكتور ناجي عياد وشقيقته وخادمته في حريق شقته".. لا أحاول أن أغالب الدمع الذي انسكب من عيني وكأنه سكن بهما منذ ولدت، هاتفت حسن، الذي لا يعرف الكثير عن ناجي عياد ولا يعرف شيئًا عن زيارتي للقاهرة، لكني أبلغه الخبر وكأنه على علم بكل شيء، وكأني لم أكن أحتاج إلا إلى صرخة يسمعها أحدهم ولا أنتظر منه أن يواسيني، هكذا أصرخ:

- قتلوا الدكتور ناجي يا ياسر.. قتلوه ولاد الكلب.

ثم أنهى المكالمة دون أن أنتظر رده.. يحاول الاتصال بي مرة أخرى، فأغلق هاتفي.. أتسكت على البحر وأنا أستجمع في عقلي كل أيامي معه.. يتيم اكتمل يتمه، ضائع يستسلم لضياعه في الأرض الملعونة، أبله، لاهث وراء اللاشيء،

والذين لهثوا وراء قيمة حقيقية ذهبوا تباعاً وضاعت أراوحهم بلا ثمن.. فتوقفت سيارة، أطل منها وجه رجل غير مريح.. أراه لأول مرة في حياتي.. ياندديني باسمي وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن، ويطلب مني أن أركب معه، فأستنكر طلبه، وأحاول أن أكمل طريقي مبتعداً عنه، فيلح في طلبه ويقول:

- مالك يا ابو علي؟.. أنت خايف ولا أيه.

أقابل طريقته السخيفة بتحدٍ صبياني، أركب على المقعد المجاور له وأنا أقول:

- وأنا هخاف من أيه يعني؟.. بس أنت مين وتعرفني منين؟

يمد يده مصافحاً، فأتناولها بتثاقل، ويعرف نفسه:

- النقيب شريف عز الدين.. من جهاز الأمن الوطني.

أقول بلسان يحمل قدراً من الاستخفاف:

- تشرفنا سعادتك.

- البقية في حياتك أولاً.. الدكتور ناجي كان راجل عزيز على قلب البلد كلها.

يطلق قلبي المحترق ضحكات هازئة تسمعها أذناي بوضوح، فلا أكتم ما في نفسي حيث أنظر له متحدياً وأنا أقول:

- ماهي البلد دي طول عمرها كده يا باشا.. اللي تعزه تفرمه فرم، زي القطة اللي بتاكل عيالها.

ثم أشعل سيجارة، وأنظر له نظرة عدائية وكأنه هو شخصياً المسؤول الأول عن موت ناجي، وأقول:

- دكتور ناجي خسارة فيكوا.. أنتوا لو كنتوا عرفتوا قيمته كنتوا عرفتوا تحموه.

- أنا مقدر زعلك يا حسن.. بس صدقني إحنا ملحقناش نعمل حاجة.. دكتور ناجي وصل الإدارة عشان يبلغ عن اللي حصل لك، وكنا خلاص قررنا نبعت له حراسة ليكون في حد مراقبه وعرف أنه جالنا، فنوى يأذيه.. لكن اللي حصل للدكتور حصل له بمجرد ما رجع بيته.. للأسف ملحقناش نعمل أي حاجة.

فأبتسم ساخراً وأنا أقول:

- وطبعاً مش محتاج أقول لك لازم حقه ييجي، لأن دا أكيد مش أختصاصكم.. بلد إختصاصات صحيح.

فيتحدث كمندوب مبيعات متواضع الذكاء يسوق لمنتج رديء:

- لا بقى أنا مستعد أوعدك أن حقه ييجي.. بس عشان ده يتحقق أنت لازم تتعاون معانا.

فأصيح به:

- أنا أتعاون معاكوا في أيه؟.. روحوا شوفوا حد غيري يتعاون معاكوا.. وأنا بقى هشوف لي أي طريقة أهج بيها م البلد دي.

ثم أفتح باب السيارة، وأهم بالنزول وأنا أردف:

- فرصة سعيدة يا شريف بيه.

فيرميني بسلاح يسكن بمحله من القلب:

- طب ابقى خلي بالك م البت اللي قاعده فـ الشقة عندك.

أتجمد، أستدير له وأنا اتساءل بعقل معطل:

- أفندم؟!

- سلمى.. أو تقدر تقول اسمها الحقيقي مارينا.. نصابة، وقاتلة محترفة.. اتفقت هي وشريكها اللي مسمي لكم نفسه المختار مع حزب الليكود الإسرائيلي عشان يلعبوا معاك أنت واصحابك لعبة المقبرة.

يصمت ويصوب نظره نحو عيني وهو يبتسم بخبث، ثم يغير نبرته:

- المقبرة حقيقة وموجودة، لكن زي ما الدكتور قال لك بالظبط.. مقبرة واحد من الصيادين الغلابة، متسواش حاجة.. الصهاينة بقى فتحوها من فترة، وحطوا فيها آثار عبرانية ليها علاقة بالحدوتة إياها بتاعت صاحب يوسف، عشان يصوروا للعالم كله أنهم مش بس صحاب حق في أنهم يطالبوا بالأرض من النيل للفرات، لأ.. دول كمان عايزين يقولوا أن ليهم جدر وأصل مادد لحد غرب النيل، أرض أسكندرية..

ما كل هذا؟!.. أحدق به مشدوها.
- نهار أسود. يعني أنتوا عارفين كل الفيلم الهندي ده، وملحقتوش تبعتوا حراسة للدكتور ناجي؟.. ياخي أحا.
يحتد:
- حسن.. أنت مش فاهم حاجة.
أصرخ بكل ما أوتيت من قوة وكأنني أفرغ به كل غضبي وثورتي:
- حاجة أيه دي اللي أنا مش فاهمها سعادتك !.. يا باشا دا أنتوا مصوريّنا من فوق.. عارف يعني أيه مصوريّنا من فـوق؟!
- أنا ممكن أقبض عليهم بكرة الصبح لو عايز.
- طب ما تعمل كده !
- القيادة عيزاهم متلبسين.. يا حسن دا أمن بلد.. وأنت لو مخلص للدكتور ناجي بجد يبقى لازم تتعاون معانا.. دكتور ناجي نفسه لو كان عايش كان نصحك بأنك تتعاون معانا.
أغادر السيارة، وأغلق بابها بعنف لتصله رسالتي إن كان به عقل يفهم.. سلمى / مارينا !!.. حاولت أن أرتب كل ما حدث في الأيام الماضية على ضوء المعلومات الجديدة لأستنتج مدى صحتها. أعود إلى البيت متلهفاً لمواجهتها، فلا أجدها.. أجد بدلاً منها رسالة كتبتها قبل أن ترحل:

"حسن.. أنا مش عارفة أقول لك أيه، متأكدة أن كل اللي هيتقال مش ممكن يقلل كرهك ليا، ودا أسوأ عقاب ممكن أتعرض له.. أني أبقى عايشه ومتأكده أن الشخص الوحيد اللي حسسني بالأمان مش طايق يشوفني.. كان غصب عني، كنت لازم أقابلك وأخليك تحبني لأن دا شغلي، ومش عارفه هتصدقني ولا لأ لو قلت لك أني مش عارفة أنا نجحت في أني أعلقك بيا فعلاً ولا منجحتش، بس اللي أنا

متأكده منه أن أنت اللي علقتني بيك.. أنا بحبك، ودي حاجة مجرؤش أعترف بيها لنفسي، بس أنت أهم عندي من نفسي.. شكراً على كل حاجة، وبجد نفسي تسامحني.. كان لازم أخرج من حياتك عشان مضركش بوجودي، إنساني.. أرجوك إنساني، وصدقني عمري ما هنساك.

سلمى"

مزقت الورقة وطوحتها من النافذة.. بنت الكلب. ماذا تبقى؟ مات سليمان، مات ناجي، ماتت سلمي.. أو ليتها ماتت.. ما أنا إلا جزء من لعبة قذرة، لعبة تقتات من عمري وتكويني، ويأتي ذلك الضابط المتغطرس ليتمم تفاصيلها بالطريقة التي تناسبه، يرن هاتفي (برايفت نامبر)، يباغتني صوته، يدخل في الموضوع دون مقدمات أو تمهيد وكأنه يتلصص عليّ.

- أيه؟.. صدقتني دلوقتي؟

استفذتني طريقته فصرخت به:

- أنتوا عايزين مني أيه؟

يكرر مطالبتي بالتعاون معه، فأكرر رفضي، يقول:

- بكرة معاد فتح المقبرة.. من هنا لبكرة مش كتير.. كل اللي إحنا طالبينه منك أنك تتحرك في مسارك الطبيعي.. إحنا قبضنا ع المختار، بكرة هتروح أنت وأصحابك على أبو قير.. تحفروا الأرض عادي جداً.

المقبرة التي أفسدت حياتي، اللعنة التي دمرتني، كل ما هو مطلوب مني أن أتحرك لفتحها.. !

- محسسني أني خليفة رأفت الهجان عشان شوية حفر !.. متبعتوا أي حد من عندكوا يعمل الكلام الفارغ ده.

- دا شغلنا وإحنا فاهمينه كويس يا حسن.

فكرت في الاستفادة من الموقف، فكل التضحيات التي قدمتها في سبيل

الوصول إلى حقيقة هذا الأمر تجعلني أفكر في ثمن مناسب.. أقول:
- أنا هنفذ لكوا اللي أنتوا عاوزينه.. بس بشرط.
- شرط أيه؟
- أنا عاوز تسهيلات كاملة للهجرة لأي دولة أوروبية، وأنا وأصحابي هناخد ١٠ % من القيمة المادية للآثار اللي في المقبرة.
ووافق على هذا بسهولة أدهشتني.. مما جعلني أتشكك في صدق نيته. أنا لا أثق في الضباط، فإن لهم مع سليمان تاريخ طويل من الأعمال اللا أخلاقية.. سليمان الصايغ، لو كان موجوداً في هذا الوقت لاعتبر المطالبة بثمن القيام بعمل (وطني) عمل غير أخلاقي، وما هو العمل الأخلاقي يا سليمان؟.. أنظر إلى مقعده وأستنطقه: ما هي الأخلاق يا أبي؟
في الصباح أقابلهما عند المقبرة. خالد يدخل من بوابة الأرض بعينين لم يغادرهما أثر النوم بعد !.. وياسر متحمس لدرجة تستحق الإشفاق.. في الليلة الماضية فكرت كثيراً في أن أطلعهما على حقيقة الأمور، وكدت أنتصر لهذه الفكرة.. لولا أنني توقعت أنهما قد يخضعان الأمر للتحليل والتقويل، وهذا ما قد يزعزع ثقتي بالقرار الذي اتخذته. ليس لي سبيل إلا الخروج من هذه الأرض الخربة، الهروب من هذا الوطن، فهو وطن يسحق من الأبناء من لا يلين، وأنا لا ألين، أنا ابن امرأة ماتت لأنها رفضت أن تذعن لمشيئة الآخرين، أنا ابن رجل مات رافعاً رأسه لأنه كعود حطب ينكسر ولا يلين.. لذلك اتخذت قراري فلم أجعله عرضة للمراجعة. المال والهجرة. ولا سبيل آخر.
- هو اتأخر كدا ليه؟
هكذا سأل ياسر وهو يعلق عينيه بالبوابة، تقريباً يكرر السؤال نفسه للمرة العاشرة.. أهز كتفي، وأقول:
- إحنا بقالنا ساعتين مستنيينه.. إحنا نقدر نحفر بنفسنا.. خلينا نشتغل، مفتكرش أننا ممكن نأخر نفسنا أكتر من كده.

ولكنه أصر على أن ننتظر المختار.. فانتظرناه ساعة أخرى، حتى ألح عليه خالد في أن نبدأ الحفر بأنفسنا مؤكداً أننا تجاوزنا مرحلة (اللعنة) بإخراج العطية ورفضها.. وقبل أن نبدأ الحفر تكشفت لنا المفاجأة الأولى حين رفعنا الغطاء عن الحفرة فلم نجد الكأس في مكانها !.. وكان هذا حافزاً قوياً، جعله يقتنع بضرورة بدء الحفر فوراً.. واستغرق العمل وقتًا كبيرًا لم أحسبه بدقة، كما استنزف طاقتنا بصورة لا يمكن وصفها.. حتى وجدنا الطبقة الأخيرة من الأرض تهوى كاشفةً عن سلم حجري من خمسة درجات.. نزلناها تباعاً، وسمعت صوت سيارات الشرطة، ذلك الصوت الذي أفزعهما ولم يفزعني إذ كنت أتوقعه، ولكني كنت آمل في أن يتأخر لبضع دقائق حتى أتفقد المكان الذي دار لأجله صراع بين دولتين رحنا نحن ضحيته. انقض علينا العساكر يزيحوننا بعيداً عن المقبرة، وواجهنا ضابط يرتدي بذلة غير رسمية وأشهر سلاحه الميري في وجهنا، بقية العساكر الذين تدافعوا داخل المقبرة خرجوا منها بأكياس بيضاء أكبر قليلاً من حجم أكفهم، تناول الضابط أحدها وتشممه بزهو، ثم قال بلسان من ظفر بفريسته:

- صلاة النبي أحسن.. لا حاجة نضيفة بصحيح.

عقلي لا يستطيع أن يستوعب ضخامة التطور المفاجئ، أقول ببلاهة وأنا أحدق به مشدوهاً بما أرى:

- أيه ده؟.. هو في أيه؟

يشخر، ثم يحتد وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة:

- أيوه.. سمعني بقى اسطوانة: (أنا ماليش دعوة والحشيش ده مش بتاعي).

تقع كلمة (حشيش) على مسامعنا كمطرقة تنـزل على رؤوسنا فتفتتها ولا تبقى من عقولنا شيئاً، فيتشبث لسان خالد بالكلمة ويرددها بصورة هستيرية وهو يمسح بعينيه وجهي ووجه ياسر وكأنه يسألنا عن تفسير معقول، أما هذا الأخير فإنه يحاول أن يتخلص من أيدي العساكر وهو يصرخ بكلمات لا تجدي، ولا

أجد لي مخلصاً غير تصريح ساذج لا يفيد، أصرخ به محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه:

- يعني أيه؟.. فين النقيب شريف؟.. إحنا ماتفقناش على كده.

- أمال اتفقتوا على أيه؟

هكذا يتساءل ياسر وهو يرمقني بنظرة شك، ثم يندفع ناحيتي كثور هائج فينجح في التخلص من قبضة العساكر، ويمسك بياقة قميصي.. يجتذبني إليه بعنف، وهو يصيح بشراسة وعدوانية:

- يعني أنت كنت متفق معاهم !.. بتسلمنا يا ابن الكلب؟

وانتزعت ياقتي من قبضته وملت إلى الناحية المعاكسة لاتجاه قبضته التي سددها نحو وجهي، فخابت ضربته، وحاولت أن أوضح له:

- يا حمار افهم.. أنا متورط زيك بالظبط.

- وحياة أمي ما هسيبك يا حسن.

قالها وأكف العساكر تدفعنا نحن الثلاثة نحو البوكس.

* * *

- ٣ -

هو سيد الصاوي. كبير الغجر، وصاحب الصعاليك.. يروقني هذا التعبير (صاحب الصعاليك)، والصاحب هنا هو المالك لا النديم. منذ نعومة أظافري وأنا أسمع اسمه يتردد في جلسات الكبار، وحكايات الصغار التي لا تخلو من مبالغة. قيل إنه جاء من الجنوب - من أقصى الجنوب - بجلباب متسخ وعمامة مهترئة تساقط طرفها على عينه، قيل إنه كان يُسطّح على قطار الدرجة الثالثة، وأن القدر ألقاه بأحضان "ست أبوها" كبيرة الغجر آنذاك. امرأة ثكلى.. فقدت زوجها وهو في عنفوان الرجولة إثر إصابته بطلق ناري من ضابط نجس في مطاردة بالصحراء قرب البوابة العاشرة، وروي عنها أنها أول ما وصلها الخبر أمسكت بتلابيب رجالها وسألتهم عن البوابة، فلما طمأنوها على حالها.. تركت جسدها يسقط على الأريكة ونزلت من عينها دمعة. دمعة واحدة فقط من مهدها إلى لحدها، لا يذكر الشيوخ الطاعنون في السن - حملة التاريخ - أن ست أبوها بكت في حياتها الطويلة غير هذه المرة.. كانت امرأة قوية لا يحول بينها وبين مأربها حائل ولا يوجعها الفراق، فربما هي لم تبكِ الرجل بقدر ما بكت نفسها وآلمها ضياع السبيل لتحقيق أمنيتها الوحيدة، فإنها طالما تمنت على الله أن يرزقها ولدا لكن أمنيتها لم تتحقق، فآمنت بأنها لن تتحقق أبداً بموت زوجها. لذلك عندما رأت الجنوبي الصغير ببشرته السمراء الكالحة تقبلته كهدية من الله.. شيء داخلها حدثها بذلك، فقد كانت ترى في شرود عينيه حلكة الليل وبرد ديسمبر، وعوز اليتيم، وما كان لها أن تتأكد من صحة هذا والصبي لا ينبس ببنت شفة عن حياته القديمة وكأنه ولد يوم قابلها، فقررت أن تعتبر هذا صحيحاً !.. عرفت مِن مَن عاصروها أن المرأة كانت - يوم قابلته - في سنوات الشيب

والعجز والسمنة المفرطة.. إلا أن صوتها القيادي الخشن ونظرتها الثاقبة وشخصيتها القوية، كل هذه الأشياء لا تخبو أبداً.. أخذت صبيها بجوارها على الأريكة الخشبية المنجدة بالقطن المكسو بالقطيفة النبيتية اللون، والمطوقة من ثلاثة جهات بخشب مزخرف بالأرابيسك، يوم كانت الأريكة بمثابة العرش لدى الغجر (أيام).. ذلك العرش الذي تنازل عنه الصاوي وهو يصنع فلسفته الجديدة، أخبرني بشيء منها يوماً ما وهو يلوح بعكازه أمام المرآة ويملس بيديه على قفطانه الأبيض.. فهمت منه أنه يكره الرؤساء الذين لا يختلطون بمرؤوسيهم ولا يشاركونهم التعب ويبذلون أضعاف ما يبذله رجالهم من جهد.. قال إن الكبير قدوة ومثل يحتذى به، وكل الكبار الذين يرتكنون إلى الراحة والدعة تتحول سيرتهم إلى مضغة تلوكها الأفواه.. قال إن الكبار مكانهم الحقيقي في الشوارع التي أقبلوا منها لا على الأرائك المزركشة. وقد كانت فلسفته الجديدة خير داعم لوجوده على قمة الهرم، فبعد موت ست أبوها اختلف الغجر فيما بينهم وأرسلوا عنهم سفيرات مفوهات تتوفر فيهن دماثة الخلق وحسن البصيرة.. جئن تحملهن القطارات من الإسكندرية إلى أسوان، واجتمعن في البيت الكبير بالزاوية الحمرا، وضربت لهن الأعيرة النارية بالرصاص الحي من فوق أسطح العمارات والمنازل ترحيباً بهن وهن يمشين متقاربات يختلن بعباءاتهن السوداء الفضفاضة كطيور الموت يدخلن الذعر في النفوس رغم بشرتهن البيضاء وملامحهن السمحة، فينتفض لرؤيتهن إثر سماع صوت الرصاص كل مختال لئيم.. فكان دخولهن للبيت الكبير أشبه باستعراض عسكري لقوات واثقة من قدراتها. وانعقدت الجلسة برئاسة عطيات، الشقيقة الصغرى لست أبوها، والتي كانت تبلغ من العمر آنذاك ستون عاماً.. ودخل صبيان لم يكملا منتصف العقد الثاني من العمر بعد يحملان بين أيديهما لوازم إكرام الضيوف.. وجلسا القرفصاء متواجهين في منتصف المجلس، ودار الكلام دون أن تأبه بهما إحداهن.. وفي دقائق معدودة كان كل شيء جاهز على أفضل

حال.. ودارت بوصة الكانشة على الشفاه وعبق المكان بالدخان ورائحة الحشيش.. وأثنت واحدة منهن على نظافة الصنف، فأيدنها بإيماءات من رؤوسهن ثم عدن لحديثهن، وكل متشبث برأيه.. فمنهن من كن يؤيدن الصاوي ويرحبن به كبيراً للعائلة إكراماً للكبيرة ووصيتها التي تستوجب التنفيذ.. ولكن الرأي الآخر أيضاً كان يحمل وجاهته بالنسبة لصاحباته.. حيث أخذن يرددن أن العُرف والأصول أهم من كل شيء.. العُرف والأصول هما عصب العائلة الحقيقي، وقد جرى العُرف منذ البدء على أن تبقى مقاليد الأمور في أيدي النساء. وبلغ الأمر بهن أن صاحت إحداهن بأنه لو كان لرجل غجري أن يفلح كما فلح الأولون لما كن سيضطررن لاستقطاب الكلاب الضالة، ولتكاثرن من عصب أزواجهن كما هو الحال في بقية خلق الله. وأخذت كل منهن تتذرع بالبراهين لتثبت للأخريات أنه ليس ثمة رأي أصوب من رأيها، متكآت بذلك على ما يزعمن أن فيه صلاح العائلة واستقامة الأمور. وبينما هن على تلك الحالة دخل عليهن الحجرة صبي ثالث لم يلتفتن إليه، ولم يخطئ - هو - طريقه وسط الدخان إلى صاحبيه، فبدل طبقهما النحاسي الصغير الفارغ بآخر يشبهه ممتليء (بفركة) التبغ والحشيش.. فالتفتت ناحيته العمة عطيات ونهرته، ثم أمرته أن يحضر (الطبق الكبير).. وختمت جملتها بإشارة إلى أن صاحبات المجلس يجب أن يكون واجبهن مضاعفاً.. لأنه لا يليق بالبيت الكبير أن يعامل السفيرات الآتيات على سفر كما يعامل الأغراب. فامتقعت وجوههن وهن يسمعنها تولي قولها (على سفر) عناية خاصة، وتبادلن نظرات حائرة.. فما تلبث الوجوه أن تلتقي حتى تستقر في الأنفس رسالة العمة كاملة كما أرادت تمريرها دون زيادة أو نقصان. أي حددوا موقفكم بصورة أسرع حتى لا أضطر لفض المجلس وأخذ القرار بشكل فردي. ولو كان أحد الفريقين يعلم ما تميل إليه نفس العمة لرفع إليها القرار وهو يعلم أنها ناصرته على من سواه.. لكن الكل يعلم أنها لا تنشغل إلا بما يعود عليها بالفائدة.. ومهما كان القرار الذي سيرتكن

إليه فهي حافظة لمقامها في كل الحالات. قالت سميرة:
- إحنا منفوتوش الأصول يا عمة.. صباح بكرية ست أبوها.. ست بتتنكس لها شنبات رجالة العيلة كُلاتهم، كبيرة من يومها وكلمتها بتمشي ع الكل.
كانت عطيات تعرف أن صباح هي المرشحة الوحيدة لمنافسة الصاوي على الزعامة، فنبيلة وفاتن في ذلك الوقت لم تكن أكبرهن قد تجاوزت عامها العشرين بعد.. لذلك لم يترك قول سميرة على ملامحها أثرًا ملحوظًا لاستحسان الفكرة أو استهجانها، مخافة أن يقول الناس: "العمة تحيزت لما في نفسها"، وهو ما لا يليق بمن قدر لها أن تجلس على رأس الطاولة وتتحلى بشيم القضاة الذين لا يخافون في الحق لومة لائم.. الحقيقة أن الجميع كانوا يعلمون أن الزعامة لن تخرج عن هذين الاسمين ولا ثالث لهما.. ولولا غرابة وصية المرحومة لكانت الزعامة قد ذهبت - من تلقاء نفسها - إلى صباح دون الحاجة لانعقاد المجالس، ومشاورة أهل الحل والعقد. لكن لسوء حظ صباح، أو لحسن حظ الصاوي أنه بمجرد أن وطأت قدمه الحافية أرض العاصمة تلقفته يد غجرية حددت مصيره.
لمحته يتسلل إلى مضجعي وسط الخيالات الناتجة عن عبور ضوء القمر في ليلة تمامه من بين فتحات البوص.. رأيته يمرق من الباب وهو يحمل بين يديه عصاته العاجية. رفعها وقبل أن يهوى بها على ساقيّ كنت أغرز الوسطى والإبهام برقبته مما يساعد في إضعاف حركة سريان الدم إلى المخ، وفي الثانية التالية كنت ألف ساقي في الهواء مرتين وكأنهما صمما خصيصاً ليعملا كمروحة، وقبل أن يستجمع قواه المبعثرة بأرجاء العشة رحت أطوق خصره بركبتي وأزيد من ثقل جسدي.. فوقع على الأرض وأنا فوقه كلبوءة منتصرة على فريستها.. تبادلنا بسمة تؤكد أن الأمور تجري بتحسن ملحوظ.. ثم انتصبت واقفة، وجذبت يده لأوقفه وأنا أقول:
- راحت منك المرادي يا كابتن.

فيرفع عصاه ويهوى بها على رأسي. أميل إلى اليمين قليلاً.. فتندفع العصا لتضرب الأرض، وأقف عليها بقدمي اليمنى، ثم أضع كفي الأيمن على كتفه الأيسر وأرفع جسدي إلى أعلى، وأسعى لأن أكمل رسم دائرة تجعلني أقف خلفه مباشرةً وأنا أمسك برأسه لأجلس على الأرض بحركة مفاجأة.. قبل أن أتمم حركتي بجزء من الثانية تخلص منها وقلبها ضدي.. فوجدته يجلس بثقله على بطني، وقبضته محكمة حول رقبتي. وقال بصوت غاضب:

- قلت لك قبل كده مليون مرة: فرّقي بين مستوى الضربات. اللي أنتي كنتي هتعمليه دلوقتي ده كسر رقبة مفهوش هزار.

- ما أنت كسرت دراعي المرة اللي فاتت.

قلتها وأنا أزيحه من فوقي بحركة واحدة، فرحنا نتبادل ضربات سريعة بالأيدي، لو رآنا ثالث آنذاك لما استطاع أن يميز بين أيدينا من السرعة المبالغ فيها في الفعل ورد الفعل. أجابني وهو ينظم أنفاسه بشهيق وزفير طويلين:

- كنتي نايمة كأنك ع البلاج.

كدت أصيب أنفه.

- المفروض مانامش كمان؟!

استدار.. في اللحظة التالية صار خلفي مباشرةً وسدد لعمودي الفقري ضربة قاسية بكوعه، فطرت على أثرها مسافة متر تقريباً قبل أن أسقط على الأرض متشبثة بالرمال وأنا أصرخ من شدة الألم، فمد يده ليوقفني وهو يجيبني على سؤالي الذي أطلقته مستنكرة طريقته التي لا تخلو من أستاذية مقيتة:

- نامي.. بس بعين واحدة. عدوك مش هيكون لطيف لدرجة أنه يستناكي لحد ما تاخدي الـ Breakfast بتاعك.

ومضى يلقي علي ما يحويه عقله من تعاليم لا يمل تكرارها، فأنصت إليه وأنا أدعي التركيز احتراماً لسنه، ولتاريخه الحافل بالبطولات.. ولكل منا تاريخه الخاص. أو دائرته المحكمة الغلق، والتي لا تعني أحدًا بقدر ما تعنيه. سألت

الصاوي ذات يوم عن مجلس السفيرات، وكيف استقر بهن الرأي عليه؟ فأخبرني أن ذلك لم يحدث.. كل ما في الأمر أن واحدة منهن - لحسن الحظ - طلبت سماع رأي صباح في المسألة، وإن كان هذا مكروهاً لدى البعض باعتبار أنها صاحبة مصلحة خاصة، فإن الأخريات ترائي لهن أنه لا غنى عن سماع رأيها بصفتها بكرية الكبيرة التي عاشت على فض المنازعات وحضور المجالس العرفية زمن ليس بقليل.. ومما لا شك فيه أنها ستكون حريصة على المصلحة العامة بقدر حرصها على مصلحتها الخاصة، ولا يضير المرء أن يحكم لنفسه أو على نفسه وقد فعلها نفر من الأنبياء من قبل. ومالت كفة الرأي الذي يطلب حضور صباح بقوة حجة صاحباته.. فلما حضرت أطرقت برأسها، فأصغين إليها ينتظرن ما ستجود به من كلمات قد تنير بصيرتهن، وتكلمت فأنهت الخلاف بكلمات مقتضبة فرطت بها في خلافة أمها وأثنت على غريمها ثناءً كبيرا.. فقطبت الجباه، وفغرت الأفواه، وساد السكون لبعض الوقت حتى سيطر على الآذان صوت (كركرة) الكانشة. وخافت عطيات أن ينوبها من تهمة التلاعب بأقطاب العائلة نصيب، فضغطت على معصم بنت أختها وكأنها تسألها أن تعدل عن رأيها، وهي داهشة لما بدل حالها.. حتى أن فريق منهن عرفن بتحفزهن ضد الكبار خرجن من المجلس ليروين كيف كانت العمة تقف في صف بنت أختها طوال الوقت !. ونظرت إليه في تلك الساعة وهو يتطلع من النافذة نحو العابرين، كأنه يعرف أن ثمة السؤال بعينيّ يكاد يلتهمه، ويحاول أن يؤجل الحديث حول هذا لإثارة شغفي لا أكثر.. لكنه لا يطيل سكوته أكثر من اللازم.. لملم أطراف جلبابه بأصابعه النحيلة، وقام بثني ساقه اليمنى تحت فخذه اليسرى. وقال إن الأمر قد تم بصورة أبسط من كل الحسابات التي جرى ذكرها على ألسنة الناس في ذلك الوقت. أوقعته الصدفة في طريقها مرة قبل اليوم المشهود بعام أو أقل من عام. كانت في سواد الليل تسلم أحدهم شيء ما وتتسلم منه لفافة متوسطة الحجم تمكنت من دسها في صدرها بسهولة.. وفي اللحظة

التالية دفن الرجل نفسه في العتمة وكأنه لم يكن موجوداً من الأصل، في هذه الأيام كانت الخصومة على أشدها بينه وبين صباح.. فآثر الانزواء، لولا أنه أحس برغبة ماكرة تدفعه لمباغتتها، إلا أنه كان - لمعرفته بها - على يقين تام من أن تصرفًا كهذا قد يربكها في الدقيقة الأولى، لكنها ما إن تستنشق الهواء في الدقيقة الثانية حتى تكون وجدت عشرات المبررات تبريء بها زمتها، وقبل أن يفكر في مجادلتها تكون قد جهزت نفسها وهي على مشارف دقيقتهما الثالثة لتبدء الهجوم، مُدينة إياه على مراقبتها والتربص بها في الطرقات !.. لذلك كان ما فعله هو عين الصواب. فقد ظل محتفظاً بملامح الرجل في ذهنه، متذكراً ذلك القطع الطولي المميز في حلمة أذنه اليسرى. وأرسل أحد صبيانه ليزعق على المعلم الهلب، وهو يعرف أنه سيجده على مقعده بالمقهى لا يبرحه إلا لأجل أمر جلل.. والمعلم الهلب هو الذراع الأيمن للصاوي، صديق عمره وكاتم أسراره.. وربما وجد الناظر في حكايتهما تشابه يكاد يصل لحد التطابق، فالهلب أيضاً أتى من الجنوب على سطح القطار، كان ذلك بعد وصول الصاوي بشهر واحد.. كان صبياً يافعاً ذو بشرة سمراء، لا ينقص الرواة إلا أن يقولوا أنه - هو أيضاً - كان يضع على رأسه عمامة مهترأة. لما سمعت ست أبوها حكايته ضحكت وقالت كلمات سخرت بها من النشاط الملحوظ لقطار الصعيد في هذه الأيام، وأخذت تمصمص شفتيها وتضرب كفاً على كف، وتترحم على الأيام التي كانت أبواب الرزق تضن بها عليهم. ولهذا السبب ظلت الدعابة المفضلة للمعلم الهلب - ربيب العمة عطيات - أن يبرم شنبه ويحرك حاجبيه ويقسم بشرفه أن القطار الذي حمله لو لم يتعطل في الطريق مرتين لكان بيت الكبيرة الآن من نصيبه، ولكان الصاوي تربى ببيت عطيات الذي ترعى فيه صاحبته الجرذان والفتيان الجرابيع أولاد الزنا، والنسوة اللواتي يعددن منذ نعومة أظافرهن لاحتراف البغاء.. وبرغم هذا التآلف والتقارب إلا أن ثمة اتفاق لم تعقده الألسنة وإنما هو راسخ في القلوب.. لا أحد يسألهما كما لا يحق لأحدهما أن يسأل الآخر عن

أصله وتاريخه، وكأنهما كان الواحد منهما يساعد الآخر ليمحو من ذاكرته كل دقيقة عاشها قبل أن يصبح غجرياً.. ولما حضر الهلب يمشي، كعادته، مختالاً بنفسه كطاووس. ألقى السلام على صاحب الحجرة الذي يجلس منفرداً، ثم أطلق لسانه ليلقى النكات عن حريم عطيات اللواتي (على حد زعمه) يستيقظ لهن النائم، ويتصابى لأجل عيونهن العجوز، وكان الهلب مغرماً بفُتنة، وهي أكثرهن جمالاً وأوسعهن رزقاً، فكر ذات يوم في الزواج منها دون أن يلتفت لسميرة بنت كبيرة الغربية التي عشقته وفعلت كل ما بوسعها كي تكسب قلبه، وشاور الصاوي في الأمر فلم يجد منه إلا عبوساً، أصر على قراره ، فقالها الصواي ناهية: "لا تبقي في نفسك شيء، إشبع منها.. لكن زواج ! عيب على شنبك يا معلم". ولما ركب الرجل رأسه ضربه صاحبه بالمركوب في وسط الشارع فبعثر كرامته أمام كل من هب ودب. وفي جلسة الصلح التي انعقدت بعد ذلك رفع الصاوي رأسه بشموخ وقال لما سُئل عن دوافعه أنه لا يسمح أبداً لصديق عمره بأن يمشي بين الناس حاملاً على رأسه قرنين. وقبل أن يستفهم الناس عن ما يرمي إليه، حيث كان ما انعقد عليه عزم الهلب محض كلام لم يأذن له صاحبه بأن يشاع بين الناس بعد. وكان الصاوي يجازف بشعبيته آنذاك إذ إن ما أقدم عليه الهلب في عُرف الغجر زيجة تُشرف، فالعروس تكسب رزقها من عرق (جبينها)، وقادرة على فتح بيت يرمح فيه الخيل.. ولا يعيبها شيء.. مهنتها؟! منذ متى كان الغجر يهتمون بصغائر الأمور، أحط الأعمال عند الناس أشرفها عند الغجر. وأن يتبنى الصاوي أفكار كالتي يتبناها بقية الناس فهذا يجعله منبوذ من الجميع.. ولذلك لما طلبوا منه أن يوضح مقصده وضع الهلب راحته على فمه وأخذ يقبل رأسه ويعتذر بادياً كل الأسف والندم، فقد عز عليه أن يلاقي صاحب عمره مصيراً لا يختلف عليه رجلين. وانفض المجلس. ومال الرجل برأسه إلى النافذة ليرمق الطريق ويبادل أحدهم تحية المساء، وقال:

- أنا هنجراني من شعر راسي لضوافر رجليا.. بس عمري ما رضيت

بحاجتين. لا فـ حياتي كنت شورة مرة، ولا تعجبني النسوان اللي تبيع جتتها.
فضحكت، وحركت حاجبي قاصدة استفزازه بقولي:
- متبقاش هنجراني يابا.
فشرد ذهنه كأنه ما سمع كلماتي. شعرت به يعود إلى عالمه القديم. شعرت بضحكة الهلب تشاركنا مجلسنا وكأنه حاضر يأنس بنا ونأنس به.. بل إني رأيت وجهه الذي تبدل وتجهم بمجرد أن أتى ذكر صباح على لسان الصاوي. وقد كان المعلم الهلب رجلاً ذا ذاكرة فولاذية، ولم يكن ثمة أحد تقع عليه عين الهلب ولو مرة واحدة في حياته إلا ويعني هذا أن ذاك الشخص سيظل رسمه محفوظاً في ذاكرة الغجر إلا أن يموت صاحب العقل والذاكرة.. ورغم أن الرجل الغجري لا يليق به أن يتكبد مشقة العمل كالنساء، فقد ظل الهلب متمسكاً بموهبته كمصدر من أهم مصادر رزقه، وربما لهذا السبب وجد صعوبة في إيجاد زوجة مناسبة، فليس من اليسير أن يجد المرء في بيوت الغجر فتاة ترضى برجل يكسب قوته بنفسه، النساء تعول.. هذا عُرف ومن يفكر في تجاوزه يتجاوز الأصول ويجازف باحترام الناس وتقديرهم. لكن المعلم الهلب ظل دائماً يناطح الأعراف ويتمرد عليها، لا حباً في الثورة ولكن لرغبة منه في التمرد. تركوه يسترزق من موهبته إكراماً للكبير، ووجد الصاوي له زوجة مناسبة. كان هذا منذ زمن.. الآن لا يسعهما إلا أن يتذكرا هذه الحكايات في قعدة صفا على المقهى القريب، ويضحكان. قال الصاوي إن الهلب أنصت بأدب جم حتى أخبره بكل ما رآه، ثم وصف ما بدا له من ملامح زائر الظلام.. فصمت الهلب قليلا وهو يدعك جبهته بأنامله، ثم قال إن الملامح لا تنطبق على أحد يعرفه تمام التطابق.. ولكن هناك ثلاثة أشخاص يمكن اعتبار أحدهم هو المقصود مع تغييرات بسيطة في الوصف. الأول يعمل مفتشاً بالنقل العام، ويسكن مع أبيه وأخويه في بيت من أربعة طوابق بإحدى حارات السيدة. والثاني عامل بمصنع ألبان يسكن في أحد الشوارع القريبة. والثالث رآه الهلب

مرة واحدة فقط منذ خمسة سنوات أو أكثر، كان يقف وسط رجال المعلمة سميرة لما ذهب هو - الهلب - في زيارة لطنطا، وقتها كان صاحب هذا الوجه من المجموعة التي كلفت من قِبل المعلمة سميرة بتأمين مدخل مسجد السيد البدوي، رآه الهلب آنذاك وبالطبع لم يسأل عن اسمه. لم يهتم الصاوي بأكثر مما عرف. أمر صبيانه بأن يجهزوا سيارته التمساحة.. ونظر إلى الهلب نظرة طويلة وهو يضبط له بيديه حجرًا من العيار الثقيل، ثم ناوله الجوزة وهو يقترح عليه أن يصليا المغرب معا في حضرة السيد البدوي، فارتسمت على شفتي الهلب ابتسامة أظهرت كسرًا في سنته الأمامية بفكه العلوي، وسحب نفساً طويلاً، جاهد ليكتمه أكبر وقت ممكن. وهكذا، قطعت السيارة طريقها إلى طنطا لينزلا على المعلمة سميرة صاحبة السمعة الطيبة واللسان الحلو، وقد كان الصاوي يعرف من أين تؤكل الكتف، فإنه يعلم أن له عندها في حضرة الهلب شفاعة لا تُرد. أهلكتهم الأيام، كبروا وصاروا يتصرفون بتعقل، المرأة تأكل صاحبه بعينيها.. كان واثقاً من أنها تستقوي بزوجها العُمدة الذي يجله الشرفاء والأعيان، ولولا أهميته في حياتها وحياة بيوت العائلة بالغربية والبيوت المجاورة للفظته من الأشهر الأولى لاهثة وراء حبها الأوحد، غير مجبرة على الانصياع لرغبة أمها العجوز. ورغم أن كلاً منهما ذهب إلى حال سبيله، ورغم أن الرجل الثعبان لم يكن يوماً يبادلها مثل ما تبادله من مشاعر، إلا أن الحب القديم يظل له من الجلال في النفس العاشقة ما يجعل شفاعته لا ترد، وقبل أن تلملم الشمس أطراف إزارها استعداداً للرحيل كانت الأمور كلها قد جرت على النحو الذي يستحسنه الصاوي.. جائت السيدة بخادمها الذي ينطبق عليه الوصف، وأكد الصاوي أنه هو المقصود دون سواه، وتحت ضغط من السيدة اعترف الرجل بأنه يعمل (نادرجي) لصالح صباح، ولما سأله الصاوي عن اللفافة لم يُطِل المراوغة أمام قدرة سميرة على انتزاع الاعتراف من الخونة أمثاله في دقائق معدودة. بلى، اعترف بأنه قام بتسليم مقادير الطبخة الجديدة

لصباح وتسلم مقابل ذلك مبلغاً محترماً من المال، وختم كلامه ببكائية عتيقة مفادها أن الداخل بين الكبار كالداخل بين البصلة وقشرتها، وأنه لم يقدم على عمله إلا بعد أن استقر ضميره على اغتنام الفرصة لأن صباح ستفعل ما تريد سواء بمساعدته أو بمساعدة غيره. وأمرته سميرة بالانصراف، ثم أخلت الحجرة وأنزلت المزاليج حتى لا يقطع أحدهم حديثها مع الضيفين. وراحت تفسر لهما ما سمعته آذانهم منذ قليل، فقد جرى الاتفاق منذ زمن لا أحد يذكره - وهما يعلمان ذلك - على أن يتكفل فرع العائلة في الغربية بطبخ الحشيش وتوزيعه على تجار وجه بحري الذي يقومون بدورهم بالتوزيع على أصحاب الدواليب، أما تجار وجه قبلي فيتكفل بهم غجر أسيوط. وجرت العادة أيضاً على تغيير مقادير الطبخة في بداية كل عام حتى لا يصاب الذوق العام بالملل فيتهم الصانع بفساد صنعته، وذلك ما قد يؤدي لانصراف الزبائن عن البضاعة المحلية إلى المستورد، وهذا التغيير الذي يحدث بالطبخة عادةً ما يشمل الشكل لا المضمون. تتغير الرائحة، أو درجة اللدونة، أو اللون، وكلها أشياء لا يفهمها إلا صاحب المزاج. ولكن مهما حدث من تغييرات لا يمكن المساس بالمواصفات القياسية للطبخة، فلا يمكن - على سبيل المثال لا الحصر - أن تزيد نسبة الحناء أو يطحن من البرشام ما هو أكبر من النسبة المعروفة، كل شيء يتم طبقاً للأصول وبما يرضي الله. منذ شهرين فقط تزوقت صباح (طرف) بحراوي، وقالت سميرة إنها سألت نفسها عن ما أدخل شغلها في البيت الكبير، ومما هو معروف أن الغجر لا يقربون إلا الكيف المستورد. وسرعان ما جاءتها الإجابة على لسان صباح، إذ قضمت الأخيرة من قرش الحشيش ربعه وراحت تمضغه بضروسها وهو تؤكد لسميرة أن الطبخة دخلها حنة أكثر مما ينبغي، بل إن صباح راحت إلى أكثر من ذلك لما أرتفع صوت سميرة التي لم تتحمل الإهانة على كرامتها، فأكدت للحضور آنذاك أنها ستثبت بطريقتها أن الطبخة كلها حنة !.. ثم أشارت سميرة إلى الباب الذي خرج منه خادمها الخائن

وهي تلوي شفتيها.. وكأنها تقول لضيفيها: "إليكم طريقتها". ولم ينكر الصاوي أنه سر بما تكشف له من الخلاف وأسبابه سروراً عظيماً، بل إنه راح يقص عليّ كيف أستطاع أن يستثمر حنقها على غريمتها بما يجعله يصب في مصلحته. سألها إن كانت تستطيع أن تثبت ما حدث بشواهد لا تقبل التأويل؟ فأكدت أنه لا يوجد ما هو أيسر من ذلك.. فاستأذن في الرحيل بعدما تصافحا بحرارة، وقد قطع كل منهما بهذه المصافحة الرمزية على نفسه عهداً غير مكتوب، ومفاده أن يكون كل منهما لصاحبه عون وحليف. فالمثل يقول: "عدو عدوي صديقي". والهلب على عهدهما شاهد، وهو لدى كل منهما عند الآخر شفيع لا ترد له شفاعة.

الجنرال.. عسكري متقاعد له وجه متيبس، وعينا صقر.. تجاوز الثمانين من عمره. يملك ظهراً متقوساً يعقد خلفه يديه، ويمشي برزانة وكأنه ثعلب من النمط الذي يتواجد بكثرة في قصص الأطفال وروايات الجيب. يرتدي بزة عسكرية من الطراز القديم الذي انتهت صلاحيته لدى القوات المسلحة بعد الحرب. يرمق بعينيه ذراعي القابض على المسدس، والمصوب بدقة نحو البقعة السوداء التي تنتصف الهدف الذي يبعد عني بمسافة لا تزيد عن خمسين متراً (إن صح تقديري). ينبئني بأن تمرين اليوم هو الأكثر صعوبة، يخبرني بذلك وهو يخرج من جيبه حبلاً قصيرًا.. يربط طرفه الأول بأحد الثقوب العشرة المصطفة على جانبي أحد قوالب الطوب الأحمر التي تتواجد حولنا في المكان حيث يستخدمها الرجل الفظ لتمرينات مختلفة وأظنها مبتكرة، ثم يطوق معصم يدي القابضة على المسدس بالطرف الآخر للحبل. فترتعش أعصابي وأنا أجاهد لأجعل يدي مرفوعة على نفس المستوى، يطلب مني أن أغمض عينيّ، ثم أمارس طقوس تنظيم النفس، ولا أفتحهما قبل أن أصل للعدد سبعة، فأطلق الرصاصة في قلب الهدف عندما ينطق هو العدد ثمانية.. أبدأ العد.. يحثني على أن أفعل بصوت مرتفع.

٢ - - شهيق.
٣ - - زفير.
٤ - - شهيق.
٥ -

على نحو مفاجئ تندفع بأذني حشرة ما فتنطلق الرصاصة في فضاء الصحراء مبتعدة كل البعد عن هدفها المنشود.. ألتفت إليه، فأجد الاستياء واضحاً على صفحة وجهه وألمح في يده قشة.. خدعة أخرى من خدعه السخيفة. يحرك شفتيه متبرماً، ويقول:

- شكلنا كده هنطول مع بعض.

أتحرك ناحيته وأنا أترك المسدس ليسقط على الأرض، أعلن استيائي.. ليس من حقه أن يخدعني بوضع طرف القشة بأذني ثم يتهمني بالتقصير، هذا تزييف.. يتطاير الشرر من عينيه، ويصيح بصوت يتردد صداه على قمم الجبال المحيطة بنا:

- انتبـــــــــــــــاه.

تسمرت في مكاني... وعرفت أن الصاوي عندما عقد تحالفاً مع سميرة لم يكن هذا إلا واحدًا من التحالفات التي يعقدها طوال الوقت مع كل غجرية مسيطرة يجد في التحالف معها مصلحة ما.. إلا أن هذا التحالف كان ضد صباح، ولهذا هو الأول من نوعه.. وكل ما حدث بعد ذلك أنه استطاع أن يستفيد من تغيير الأوضاع. مخطئ من يظن أن الرجل كانت له يد فاعلة في وفاة ست أبوها، أو أنه كان يعلم بأمر وصيتها.. ولو عاد به الزمن وخير بين أمرين لاختار - وهو صادق في هذا - أن تتمتع مربيته بالصحة والعمر المديد، وذلك عنده خير ألف مرة من أن توصي له بخلافتها.. هذا برغم أن أحدًا لم يشاهده يذرف دمعة واحدة حزناً على فراقها.. لكن الجهلاء لا يعلمون أنها هي من علمته أن البكاء ضعف، وأن الناس لا يحترمون الضعفاء. وعندما كان يفضي إليّ بما يختلج في

صدره ذهب إلى ما هو أبعد من هذا.. وقال إنه نسي خصومته القديمة مع صباح احتراماً لجلال الموت، ولم يلحظ أحد أن الوصية أدهشته، إذ أنه تظاهر أمام الجميع بأنه كان يتوقع فحواها. وكان مقدماً على التفريط في حقه المُصان بموجب كلمة من لا ترد لها كلمة، إلا أنه قد بلغه من بعض أصحابه أن صباح ذكرته وذكرت أمر خلافته لأمها بكلام لا يرضيه. فذهب إليها وعاتبها، وطلب منها أن تحترم سيرته طالما لم يبلغها منه مكروه، فظنت أنه ما جاءها إلا مهدداً، وراحت تناصبه العداء جهراً.. سألها أن تكفيه وتكفي نفسها شر التناحر إكراماً للروح الطيبة. ورفع إليها أمر الخلافة تحكم فيه كيف تشاء. فجنها أن يرفع إليها شأناً - تراه هي - من صميم شئونها. فذكّره الهلب بأمر التحالف الذي غاب عن ذهنه في ذلك الوقت، وطلب منه أن يترك له الأمر.. فتركه، وهو يعلم أن صاحبه يختلق الذرائع ليصل بعض ما انقطع من أسباب الغرام. فتركه يفعل ما يرضيه، وبعد يومين بلغ لعلمه ما يثار في البلدان من بلبلة، وثرثرة لا تنتهي بين رافض لخلافته ومؤيد لها.. وفي الوقت نفسه اختفت صباح، ثم عرف أنها لزمت بيتها.. وبحث عن الهلب في كل شق فلم يجده، لكنه ظهر بعد أسبوعين، جاءه من طنطا محملاً بالسلامات والفطير المشلتت، فترك أمر الفطير إلى حينه واستنطقه.. فأخبره أن سميرة هاتفت غريمته، وأطلعتها على ما تكشف لها من أمرها المشين، أجل مشين، فالأصول معروفة: (لا يعيب الغجري منا شيء بقدر ما يعيبه التآمر على آله).. هددتها بأن تفضح سترها إن هي لم تبايعه على أن يكون خلفاً لأمها في حشد من الأهل والمقربين. فلما تأكدت صباح أن سميرة أحكمت غلق الدائرة حولها سلمت بأمر الله وقضائه، وسألتها: في أي حشد تبايعه؟ فطلبت منها أن تفعل ذلك في انعقاد مجلس السفيرات. ولم يفهم الصاوي ما يعنيه صاحبه بـ (مجلس السفيرات)، صباح أيضاً لم تفهم ذلك.. وأخذ الهلب يوضح وهو مزهو بنفسه. قال إنها فكرته التي أحسن صياغتها، وقامت سميرة على تنفيذها.. ثم أخذ يوضح الفكرة بإسهاب ملحوظ. بما أن الصاوي هو أول

رجل يقود الغجر عبر تاريخهم الطويل بمصر والبلاد العربية، إذن كان لابد من طريقة لجعل الأمور تستقر بين يديه بشكل دائم، وليحدث ذلك بالصورة التي تضمن عدم عصيان أي فريق وهو آمن مما قد يغري فرقًا أخرى بعصيان مماثل، وذلك ما قد يؤدي لانفراط العقد وخروج المجموعة عن سيطرة الفرد. ولذلك رأى الهلب أن صاحبه يجب أن يخلف ست أبوها في يوم مشهود، تعلق فيه الزينة وتذبح الذبائح وتُضرب الأعيرة النارية في الهواء، والأهم من كل هذا أن تشهد ذلك اليوم من كل محافظة سفيرة تنوب عن أهلها بالمباركة. ولم يكن ليحدث هذا إلا بإثارة قدر من الفتنة والبلبلة في النفوس، فأطلعت سميرة صاحبتها أمال بنت كبيرة أسيوط على الخطة كلها، وتعاونا معاً لتكوين جبهتين متضادتين.. ولكل جبهة منهما رأيها المؤيد لخلافة الصاوي أو المعارض، ولكل رأي وجاهته وحجته الخاصة به، وشرعت كل منهما في كسب الأنصار ليئول بهما الأمر في دار العمة، ليعقد مجلس السفيرات، وهو المجلس الذي لا ينعقد إلا إذا اختلف الغجر فيما بينهم خلافًا اتسعت رقعته لتشمل البلد من أقصاها إلى أقصاها. وهذا أمر من النادر حدوثه، لذلك لم ينعقد المجلس منذ دخل الغجر مصر إلا ثلاث أو أربع مرات.. كانت آخرها لتحديد موقف العائلة من مظاهرات ١٩١٩.. حدقت به لبعض الوقت، وأنا أحاول أن أستوعب ضخامة الحدث، ثم قلت ومازالت الدهشة تلفني:

- وطبعاً مفيش حاجة كانت ممكن توضع حد للجدل الداير أكتر من كلمة صباح نفسها.

عاد يتطلع إلى الطريق وهو مشرق الوجه، بعدما نظر ناحيتي بعينين أعجبني فيهما ذلك الحنين إلى الأيام الحلوة:

- ودبحنا سبع عجول.. وعملنا حلقة ذكر.

أعلم هذا.. فسكان الزاوية من أول مدينة النور حتى جهة حشاد وناحية المنياوي، كلهم لا يملون الحديث عن ذلك اليوم، يوم رأوا المأمور يدخل

منطقتهم بالبوكس الميري، وكان لا يدخله إلا قاصدًا شراً.. هذه المرة جاءهم ليحضر الذكر، ويشرب الشربات، ويصافح الصاوي بحرارة كما لو أنه يصافح صديقًا قديمًا. ثم لطخ كفه بدم العجول وخمس بها على الحائط وسط زرغطة النسوة المطلات من نوافذ البيوت القريبة. لكن بعض السفلة تقولوا على سيد الصاوي بما ليس فيه، قالوا إنه بدأ عهده بعد ذلك اليوم متجبراً مختالاً، وهو مرتكن على قوة مبايعة السفيرات ودعم مأمور قسم الزاوية، وتداولوا أدلة تستريح لها ضمائرهم الميتة، وسألته عن صباح التي اختفت بين ليلة وضحاها، لأقطع بما يسوقه إليّ من توضيح وتفسير كل سبل الإيمان بيني وبين كلام الحاقدين المتقولين على الفضلاء أمثاله بما ليس فيهم. لكنه - بدلاً من أن يبرّئ ذمته - أخذ يحرك كتفيه استهانة، ثم صمت قليلاً قبل أن يشير بسبابته إلى البيت المواجه للنافذة.. أي أنه يقول (بطريقته الخاصة): يُسأل عن هذا صاحب البيت. ومنذ انتقل كبار الغجر من مساكنهم القديمة بالزاوية إلى تلك المساكن القابعة في قلب شبرا الخيمة. منذ ذلك الزمن لم يسكن هذا البيت أحد غير المعلم الهلب. ففطنت إلى ما كان يعنيه، وهو عادةً لا يلجأ إلى الإشارة إلا عندما يكون مكره على التحدث في أمر لا يرضيه، لكنني أبيت إلا أن أستوضح منه الأمر كله، فراح يوضح لي كيف لم تهدأ ثورة صباح، وكلما ساق إليها شفيعاً ازداد عنادها، وأقسمت أن تدس أنفه في التراب. أفسد البرشام عقلها، فراحت تجوب الشوارع بملابس ممزقة، وتُشهد الناس على بؤس حالها وتشحذ منهم ما تسد به جوع بطنها. وما كان بها من البؤس أو الجوع شيء، إن هي إلا خدعة تجعل الناس يتلسنون عليه، وبالفعل بلغه أن الناس على المقاهي يقولون عنه إنه رجل لئيم لا يصون أمانة ولا يعمل حسابًا لعظام التربة. فهاج وماج، ثم أمر بحبسها في غرفة منعزلة. ولم يمض عليها في محبسها أكثر من أسبوع حتى وجد الهلب يسأله أن يخلي بين غريمته وبين سميرة.. عمل لعظام التربة ألف حساب قبل أن يذعن لمشيئة الهلب الذي لم يسأله أكثر من رفع يده عنها. ففعل، واختفت في

الليل وكأنها لم تكن موجودة من الأصل !.. ألم يبحث الغجر عنها؟.. بحثوا حتى أنهكهم البحث، وسألوا كل شبر من الأرض حتى ملهم السؤال وغلبهم اليأس.. كأن الأرض انشقت وبلعتها. ألم يخطر له أن تسأل الهلب عن مآلها؟ كان التقاء أعينهما يتكفل بالإجابات كلها.

الجنياس (بتعطيش الجيم).. خلق ملتصقاً على مقعده الخشبي المتهالك أمام شاشة الكمبيوتر، وكأنه - بهيكله المتداعي وأطرافه النحيلة التي تمر على أزرار لوحة المفاتيح بسرعة مذهلة - من فرط تفانيه في عمله ما وجِد في هذا الكون إلا ليكون مكملاً ضروريًا لأيقونات العالم الافتراضي. أسأله عن الخطوة التالية، فيلجأ إلى التنظير دون أن يحول وجهه عن الشاشة التي أمامه.

- الـ Hack في حد ذاته مش حاجة صعبة.. اللي بيفرق بين Hacker والتاني هو قدرة كل فرد على أنه يشتغل على التوازي ما بين برامج الإختراق وبرامج التضليل اللي بتقدم عنك بيانات مزيفة لأي جهاز أمني يحاول يعمل لك تتبع. المهارة ديماً في أنك تخلصي مهمتك في أسرع وقت ممكن وترجعي للـ IP Address بتاعك رجوع آمن.. والتميز في الـ Updating، وخصوصاً لو عرفتي أن البرامج دي ممنوع تداولها على قنوات البث الشرعية.

أمسح العرق المتصبب على جبيني، وأشعل سيجارة وأنا أتأمل البيانات المعقدة التي تظهر على الشاشة، وأقول:

- الموضوع شكله صعب جداً.

فيلتفت ناحيتي ربما للمرة الأولى منذ ثلاثة ساعات أو أكثر، وترتسم على وجهه علامات إعتداد بالنفس وهو يقول:

- أنا معاكي لحد ما تتعلمي كل حاجة.

أضحكتني لهجته، وشعرت تجاهه بارتياح نفسي وكأني أمه، رغم أنه كان يكبرني ببضعة أعوام، وخطر لي أن أسأله عن أول قبلة تذوقها في حياته، لكنني أمسكت. هاتان الشفتان الرفيعتان والمزمومتان أغلب الوقت، هل جرب

صاحبهما ذو العقل الطفولي البرئ لذة الاشتهاء من قبل؟.. الصاوي كان يشتهي أسماء أو يحبها، الكل يعرف هذا.. وهو أيضاً أخبرني بكل شيء في تلك الليلة التي شهدت سؤالي له عما يشعر به المرء حين يتسلل الحب إلى قلبه. تعرف عليها في حفل الزفاف التاسع لكبيرة الإسكندرية، وكان وقتها في العشرين من عمره، وكانت هي ترفل في فستان سواري من الستان الأحمر بالكاد يغطي فخذيها، ويبرز ساقيها الملفوفتين بلونهما الأبيض المشوب بحمرة تزيدهما تورداً، وشعرها الأسود منسدل على كتفيها، وتتوسطه ضفيرة مصبوغة باللون الكستنائي.. فخطفت قلبه من اللحظة الأولى بجمالها وتفردها. تبادلا النظرات، والابتسامات. ثم تعارفا، فضرب لها موعداً في اليوم التالي عند فنار المنتزة، وبذل مجهوداً خرافياً ليقنع ست أبوها بالبقاء في الإسكندرية ليوم آخر إذ إنها كانت تأبي العودة بدونه. وذهب في موعده وهو خافق القلب، لا يدري ما يفعل إذ هي تغافلت عنه وتركته ينتظر على غير هدى، فوجدها حيث تواعدا، تتلفت حولها كمن مل الوقوف والانتظار.. فسره أن يشعر بأنها تنتظره منذ زمن، أعجبه ذلك وأرضى كبرياءه. وما كان لها أن تفعل غير هذا.. فأي فتاة في مكانها كانت تحلم بأن يعجب بها شاب مثله، ربيب ست أبوها، وفارس من البيت الكبير، فأي غجرية تتمنع على البيت الكبير وسكانه؟!.. يومها عرفت شفتاه لذة اللثم للمرة الأولى ونفسها الساخن يداعب وجنته. لم يشعر بالخزي وهو يقول إنها كانت أكثر منه علماً بشئون التقبيل وفنونه، بل إنه كان يشعر بفخر وسعادة لا يمكنني وصفهما وهو يشرح لي كيف كانت تجتذبه وتدفعه في آن واحد، وكيف كانت تستبقيه فوقها وتدس لسانها في فمه ثم تسحب لسانه في فمها بمهارة من تعرف كيف تجعل من القبلة - مجرد قبلة - وقود لشهوة تستبد بصاحبها. ولو أن المكان استحال بيتاً مؤمناً في تلك الساعة فإن كلاً منهما لم يكن يتردد في التعري لرفيقه أمام تلك الحمة التي أشعلت جسديهما إشعالاً. أولم ترجف كما يحدث للمبتدئين؟.. بلى، ولكنها كانت تحترف القضاء على هذا

الأمر في مهده. سألها متى تعلمت...؟ ولم يكن بحاجة إلى أن يكمل جملته، فقد فطنت إلى ما يرمي إليه، وحدثته ببساطة عن مغامراتها السابقة التي لم تتجاوز كونها فضول أو تحايلات لإسكات شبق لحوح يستبد بها. وقد كانت الفتاة شرهة بصورة تجعل من يمسها يكتشف ذلك من اللحظة الأولى، لكنه - لانعدام خبرته - لم يتسنى له أن يدرك ذلك إلا فيما بعد. ولم يأبه لهذا لأنهما ما تواعدا في ذلك الوقت إلا لهوا ولعبا.. وما سرت في جسديهما القشعريرة إلا لانسجامهما الغريزي كما يكون في التقاء أي ذكر ظمآن بأنثى شرهة. وافترقا دون أن يضرب أحدهما للآخر موعدا غير الذي كان، لابتعاد المسافة بين البلدين كل اليد في هذا، ولو كان تكرار اللقاء يسيراً لما ناله منهما أي تفريط يذكر. لكنه لم يكن يعلم آنذاك أنه سيعجز عن تسيير أيامه دونها، وأن قبلاتها التي بدلت طعم فمه جعلته يتحسس شفتيه في كل وقت، ويحلم في الليل بأنه يستزيد منها، ويراها تزيده دون تمنع. فلما تمكنت منه رغبته، وأسرت فتاته بجمالها روحه وعقله سطّح على القطار الذاهب إلى الإسكندرية وهو يعد الدقائق متلهفاً للقائها. ولم يعدم حيلة في الوصول إليها بعيداً عن بيوت العائلة، راغباً في ألا يثير حولهما القيل والقال فينالهما من أعيُن الحساد نصيب. وخطفها كما تحلم الفتيات اللواتي في مثل عمرها بالفارس الذي يخطفها على حصانه الأبيض. وعاش معها ليلة من أحلى أيام عمره، وتعاهدا على أن يحفظ كل منهما نفسه للآخر، حتى تواتيه الفرصة المناسبة ليفاتح ست أبوها في أمر زواجهما، وظن أن الطريق ممهدة لما قالت له المرأة التي شغلت في قلبه منزلة الأم والصديقة أنه قد آن له أن يتزوج، فأفلت اسمها من بين شفتيه دون أن يشعر وقلبه يرقص بين ضلوعه طرباً (أسماء).. فقطبت المرأة جبينها، وسألته عنها، فأفضى إليها بحقيقة مشاعره، وحكى لها ما كان بينهما.. لكنه ما لقي منها إلا إعراضاً ونفورا. وتشبثت برأيها إيماناً منها بأنه الحق المبين والصواب المطلق: "لا تناسبك، الفتاة التي تفرط لك في شرفها دون حلال الله لا تصون عرضك ولا

تؤتمن على بيتك". وجادلها، فلم تفلح المجادلة.. وساق عليها أهل الشفاعة فما فلحت شفاعتهم، حتى أن بعضهم قال لها - وكان ذلك يبلغه في حينه: "مالك تتشبثين به وتركبين رأسك، وكأنه من لحمك ودمك". فما لقي منها أصحاب هذا اللسان إلا أفحش القول وأبغضه إلى نفوسهم. وبلغت من الثورة مكانة لا تحمد عقباها لما عرفت أن الفتاة حفيدة حليمة سلالم، وهي السيدة التي أدخلت البغاء ضمن تجارة الغجر منذ مئتي عام أو أكثر. وصاحت وهي تصفعه بحنق، ما قالت إلا أن "العِرق دسّاس" وأخذت تكررها ليلة كاملة وهي تسبه بكل ما يخطر على بالها من أنواع السباب. حتى أيقن أن أي محاولة لزحزحتها عن قناعتها ما هي إلا درب من دروب العبث. وسمعها المعلم الهلب يوماً وهي تحدث عزوز (معاونها وذراعها الأيمن). كان أمراً مروعاً. الهلب قال إنها ألزمته بالاستعداد لفتح البوابة السابعة، بعدما يعود من المهمة التي كلفته بها في الإسكندرية.. ولم أطلب منه تفسيراً أو توضيح، فأنا - ككل الغجر - أعرف جيداً ما تعنيه البوابة السابعة، أو بوابة الدنيا.. فالبوابات الكائنة بالصحراء الشرقية، والموضوعة تحت حراسة مشددة، عددها إثنتا عشرة بوابة، وكل واحدة منها تحمل اسماً ورقماً وكوداً يميزها ويطمس هويتها إذا ما جرى الحديث عنها أمام الغرباء. في البوابات خزائن الغجر التي تضم ثروتهم وتحفظ بها تجارتهم، كما تعد مدفنًا لأسرارهم.. والبوابة السابعة هي السجن الأبدي لمن ينزل بهم غضب العائلة. داراً أو مقبرة، تضم ساكنيها في حياة منعزلة أو موت مؤكد. لا أحد يعلم - على وجه الدقة - ما يحدث لمن تبتلعهم هذه البوابة. لكن الشيء الذي لا جدال فيه أن الأتيان على ذكرها أمام أي غجري بمثابة الإتيان على ذكر الهولوكوست أمام نفر من اليهود. وكغريق يتشبث بما لا يغني عنه من الهلاك شيئاً سأل صاحبه عما يعرف بشأن "مهمة الإسكندرية"، فاكتفى الهلب بأن صوب نحوه نظرة المتشكك في سلامة عقل محدثه. وطال الصمت بينهما، ثم انتفض فجأة، وهرع إلى غرفة سيدته، ودفع بابها، ومرق منه دون أن يطلب منها الإذن

بالدخول، وهو أمر لم يجرؤ على الإتيان به قبل ذلك اليوم.. حدقت المرأة به، وكادت أن تعنفه لولا أنها رأت العرق المتصبب على جبينه ولاحظت شحوب وجهه.. قبل أن تساله عما أصابه رفع أمامها يده مستسلماً، وأخبرها بأنه يفوضها بالقيام باختيار شريكة حياته التي ترتضيها وترى فيها الزوجة الصالحة، وتهللت أساريرها، لكنه جعل كلامه مشروطاً بألا يمس صاحبته مكروهاً أبداً، حتى لو دبره لها القدر وأحكم تدبيره. لم يطل صمتها، وقد فطنت إلى أنه علم بتدبيرها، لكنها لم تملك في نهاية الأمر إلا أن تضحك بقوة إرتج لها نصفها العلوي كجبل يغالب السقوط، وسألته: كيف لها أن تمنع تدابير القدر؟. فعقد حاجبيه وهو يؤكد أن الكبيرة دائماً تستطيع أن تفعل هذا. ولم يزد.. وبعد ذلك اليوم بأسبوع دخل على عروسه، وأخلص لها كما يخلص المرء لزوجه، وإن كان قلبه معلق هناك في البلد التي تعدو إليها القطارات وهي تكاد ترقص على القضبان من فرط الفرح. وما ذنب المرأة التي تزوجتك كي تكون معها وقلبك مشدود لغيرها؟ ذنبها أنها وافقت على أن تتزوج رجل قلبه مشدود لغيرها. هكذا يجد الإجابة ببساطة، ربما لأنه لم يشعر بالذنب تجاهها. الذنب؟! فقط شعر بالزهو يوم حمل بين يديه أول وآخر ما جاد به العنقود، كريمة.. تلك التي رقص الناس في يوم سبوعها وحطبوا، وشربوا الحشيش بغير حساب، وقالوا بمناسبة أو بدون مناسبة "بنت كريمة لرجل كريم".. وقبلها إمام الجامع وهو يملس على جبهتها الرقيقة ويتمتم بالرقية الشرعية، ثم ختم هذا بأن رفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم أجعل لها من أسمها نصيباً". وأشتد مرض ست أبوها في تلك الأيام، حتى وافتها المنية بعد أذان الفجر بيوم من أيام رمضان، ماتت وهي صائمة، حزن لفراقها ولكنه صبر نفسه معتبراً أن الله قد اختارها ليرفعها إلى جواره في ساعة يتمناها كل تقي ورع، يتذكر أنها شدت على كفه وهي على فراش الموت وابتسمت، حاولت أصغر بناتها أن تستنطقها الشهادتين لكن الروح صعدت إلى بارئها غير متمهلة.. وأطرق برأسه وهو يعترف لي

بأنه بكي يوم افتكر الله زوجته (حدث هذا بعد وفاة ست أبوها بتسعة أشهر).. لم يكن بها من المرض شيء، لم يبكي لفراقها وإنما بكي لأنه لم يكن يتخيل أن الأيام ستخبئ لابنته - التي لم يحن موعد فطامها بعد - مرارة اليتم، تلك المرارة التي لم تغادره طوال عمره.. كان ينظر إليّ بعينين فاحصتين مشفقتين، وكأنه يقول: لست بحاجة لأن أصف لك شعوراً لا يفارقك.. أنا أعرف أنه لا يفارقك.

عدل وضع نظارته الطبية على أنفه بعدما جفف عرقه بمنديل ورقي وألقاه بمطفأة على طاولة لا يفصله عنها سوى متر أو نصف متر. وتنحنح ثم عدل وضع نظارته على أنفه مرة أخرى، وقال:

- متهيألي (على حسب ما وصلني من البيت الكبير) إن الـ English language لغة من ضمن خمس لغات المفروض تتعلميهم في خطة زمنية محددة.. أنا متأكد أنك عارفه ده، زي ما أنا متأكد أن مدرس الـ French كان عامل حسابه أنه يبدأ شغله معاكي أول الشهر الجاي.. إحنا بقالنا مع بعض ٦ شهور ولسه مخلصناش Level 13.. إحنا متأخرين.

عدل نظارته على أنفه، وأخرج منديلاً ورقيًا جديدًا ليجفف به عرقه وهو يؤكد:

- متأخرين جداً.. متأخرين خالص.

لا أعرف ما الذي جعلني في هذا الوقت أتذكر وجه الصاوي.. لا، ليس ذلك الوجه المعروف والذي تقشعر له الأبدان، ويُدخل في نفس المتطلع إليه رهبة.. أنا أعني وجهًا آخر. ذلك الوجه الذي لم يفلح صاحبه في إخفاء ما ارتسم عليه من توتر خلفته المفاجأة.. حدث هذا يوم التقينا لأول مرة، فتح عينيه ليجدني أقف أمامه مباشرةً وهو نائم على السرير بغرفته التي لا يجروء على اقتحامها أحد من أهل الدار، لذلك كنت أعلم أني أتيته بإثم عظيم.. أدار عينيه بيني وبين النافذة المفتوحة، وكأنه يود أن يقول: من هنا تدخل الجرذان لتنجس داري. وكان رفيقي ذو الجسد الضخم يرتجف حتى ظننته قد بلل سرواله. يقال له: (مولانا)، جسد بلا عقل.. حيوان مفترس أحسنت ترويضه من اللحظة الأولى

حتى صار كالخاتم في إصبعي. لكنه تردد كثيراً قبل أن يتبعني مُكرهاً وأنا أسلك طريقي إلى بيت السيد الكبير بعدما ضيق الخناق حولي وحاربني في عملي الذي لم يكن يتجاوز - آنذاك - محاولات بائسة للنصب على بعض المغفلين والسفهاء، محاولات لم تكن تدر عليّ أكثر مما يسد جوعي وجوع تابعي الذي فغر فاه، وأشاح بذراعيه وقد احمرت عيناه من فرط الهلع، وأخذ يردد أنه في البدء ما كان لنا أن نلعب بالنار. إحقاقاً للحق، قد كان الخنزير مصيباً.. أنا ناصبته العداوة يوم استغفلت رجليه - الهلب وعزوز - وأكلت من لحمهما الحي مائة جنيه. أنا أعرف أنهما أقرب الناس إليه، وهو جالس بخلوته منذ سنين.. يقول الناس إنه دخلها يوم توفيت زوجته التي لم يشأ لها القدر أن تحضر من عهد قيادته للعائلة إلا عامًا أو بعض عام، ولم يكن ينوي أن يعتزل الناس في حجرته الأثيرة إلا أيامًا معدودة، لكن آل البيت ألحوا عليه أن يخرج من عزلته بحجة أن الناس أكلت وشوشهم، فقد انقسم أهل الحي فيما بينهم يتناقشون في أمر العزلة التي طالت، فنفر يقول: "ذهب عقل الرجل لما ضرب الموت مضاجع بيته مرتين في عام واحد". بينما اندفع نفر آخر يضرب ما تقول به النفر الأول في صميم منطقه: "كلا، بل هو قادر يجنن الجنون نفسه ولا تطرف له عين، وما هي إلا خلوة لازمة للتحضير.. الرجل مخاوي". فلما بلغه تطاولهم، وتيقن من سفالتهم سب الدين للعالم واستقر عزمه على ألا يبرح موضعه إلا محمولاً إلى قبره. ومارس حقه في تسيير الأمور عن طريق الهلب وعزوز، حيث وضع هذا الأخير نفسه تحت الطلب لما ماتت مخدومته. ولم يرتح الهلب لمساواة صاحبه بينهما، لكنه سرعان ما استسلم للأمر الواقع حين لثم نديمه ليّ النارجيلة وقال إنه ما كان يستحق أن يسوس الناس وعزيزهم يذل في داره، وعزوز كان عزيزاً بمجاورة الكبيرة، أفيتركه يمشي بين الناس منكس الرأس مكسور الخاطر كي يتلسن عليه السفهاء، فيقولون: "أطعمته المرأة وكسته، فلما ماتت جوع كلبها" !. يقول الهلب إن عزوز كان واشياً خباصاً.. فيضحك

الصاوي ويضربه على كتفه مداعباً: "أما زلت تحمل له شيئا في نفسك من أيام الصبا؟! قلبك أسود يا معلم، والله قلبك أسود". ويضحكني هذا، ثم ينقطع حديث كراملة بتوافد الصغار الذين يمدون إليها أيديهم وهم يرددون تكبيرات العيد بصوت أشبه للغناء، فتمد يدها في صدرها وتخرج نقود العيدية وقد جهزتها بحيث لم تضع وقتاً طويلاً في تفريقها بينهم، ثم خرجوا وهم يتراقصون، فطلبت من آخرهم أن يعيد غلق باب الغرفة كما كان، ففعل.. وحاولت أن أجتذبها إلى حديثنا الأول، كانت تشغلني بضعة أسئلة، أهمها ما وجهته إلى الصاوي أكثر من مرة فزاغ من الإجابة عنه، ما الذي جعله يفكر في تطوير مهاراتي بدلاً من أن يعاقبني على اقتحام غرفته، نظرت لعيني نظرة طويلة وكأنها تتأكد أنني أجهل الإجابة على سؤالي بالفعل، ولا أتخابث في هذا، ثم قالت بشيء من الزهو:

- إحنا هناجرة محناش مافيا منظمة.. تجارتنا الكيف والعرض من متين سنة واكتر.. بس الطبع غلاب، الهبر والنتش والسرقة حاجات بتجري في دمنا من يوم ما ربنا خلق أول هنجراني ع الأرض، رغم أن الحجات دي عمرها ما كانت بتكسبنا قد اللي بنكسبه في طلعة واحدة لبنات عطيات، ورزق وقية حشيش ممكن ميجبهوش النشل فـ شهر بحاله.. هما كملوا شغلهم القديم بحجة أن الإيد البطالة نجسة، بس أنا عارفة زي ما أنتي كمان عارفه أن الفوضى اللي بتحصل بعد السرقة والنتش في الأسواق والأتوبيسات وكل مكان زحمة في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة هي سر قوتنا والضامن الحقيقي لوجودنا.. الحكومة من مصلحتها أن الناس يفضلوا عايشين في خوف وفوضى وعشوائية وزحمة.. ومن مصلحتها أن الناس يفضلوا مساطيل ومبرشمين.. البرشام حلو، بيخلي العيل من دول يشتغل زي الحمار تلت أيام ورا بعض ولما يتعب بيموت من سكات.. ويا ستي اللي يكتئب شوية ويحب يفك عن نفسه نبقى نبعت له من عندنا مرة تبسطه حبتين.

فأضحك وأنا أسألها:

- طب واللي تكتئب؟

فتبتسم وتقول وهي تغمز بعينها اليسرى:

- نبعت لها راجل.. ميجراش حاجة.

ثم يرتسم الجد على ملامحها من جديد وهي تشعل سيجارة وتكمل حديثها الأول:

- كل دولة في العالم فيها فرع م العيلة عنده أزمة مع النظام.. الأنظمة بتكتفنا، هما بيستغلوا فوضويتنا والعشوائية اللي إحنا عايشين فيها ويزرعوا وسطنا مرشدين يعدوا علينا النفس.. فيدوسوا على حرمة بيوتنا، ويشردوا عيالنا، واللي يطلوه فينا يرموه زي الكلب في زنزانة معفنة، وهو ونصيبه بقى.. يا يموت م الذل والقهر والتعذيب، يا يعتقوه بعد ما يكسروا عينه. وكل المحاولات اللي أتعملت من سنين، واللي لسه بتتعمل لحد دلوقتي ملهاش غير هدفين.. تأمين وجودنا، وكسر فكرة هيمنة الأنظمة علينا. وكسر سيطرة النظام ملهاش أي علاقة بكسر النظام، بالعكس.. إحنا من مصلحتنا أن النظام يبقى موجود، لأن من غير نظام حقيقي بيفرض وجوده ع الأرض الناس مش ممكن أبداً تحس بقوة سيطرة الفوضى.

نظرت إليها طويلاً وهي تملأ نصف كوب ماء وتضع فيه حبة فوار، وتقلبها قبل أن ترفع الكوب إلى فمها وتأتي على ما فيه.. كراملة، هذه الأعجوبة التي اختار لها الصاوي ميداناً مختلفاً تبرز فيه، وتنقل عائلتها إلى عهد جديد، ميدان العلم.. فهي خريجة كلية الآداب بتقدير جيد. عقلها يزن بلدًا - كما يقول عنها أبوها - وكما أراها أيضاً.. لم أتمهل حتى تتجشأ إثر سريان مفعول الفوار، سألتها بإلحاح صبية تريد أن تكمل الحكاية حتى آخرها:

- والحل؟

- أنتي.

قالتها، وابتسمت كأنها تتمعن في إثارة فضولي، ثم استدركت مؤكدة:

- أيوه انتي الحل.. من قبل ما تظهري في حياتنا بعشر سنين الصاوي قال إن الحل في شخص من برا العيلة، شخص ذكي وقلبه ميت، حد يتربى على إدينا

وعنده المبرر اللي يخليه يحرق العالم من غير ما يحس بلحظة ندم. ودا فهمه المعلم الهلب لأنه كان لقيط.. اللقيط اللي مطرود من رحمة المجتمع هو أكتر شخص في العالم قابل للانفجار.. أقول لك حاجة أنا متأكده أنك أول مره تسمعيها في حياتك؟.. أنتي منصبتيش ع المعلم الهلب، محدش أصلاً يقدر ينصب ع الهلب. بالعكس، دا سابك تعملي اللي أنتي عايزاه وطلع يجري يقول للصاوي أنه لقى العيل اللي بيدوروا عليه، الصاوي أستغرب حبتين لما عرف أنه بيتكلم عن بنت.. بس لما بلغته اللعبة اللي أنتي لعبتيها بحرفنة طلب منه يخلي رجالته يسحبوكي ناحية البيت، وكان متأكد أنك هتيجي برجلك، وفضل سايب شباك أوضته مفتوح سبع أيام بلياليهم لحد ما سيادتك شرفتي.

ابتسمت.. فعلاً، الغجر لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة.. فوضويون، ولكنها فوضى تتم وفقاءً لنظام دقيق.. منتهى العبقرية. قلت:

- يعني كل حاجة كانت مترتبه.. زي ما أنا كنت برتب أني أنصب على المعلم الهلب وعزوز عشان أوصل للصاوي، هو كمان كان عايزني أوصل له.. بس كده في حاجة غريبة، وملهاش عندي تفسير.. لما كل حاجة كانت متظبطه بالشكل ده، ليه حسيت بنظرة توتر في عنيه أول ما شفني قدامه؟

- نظرة خوف.

أشعلت سيجارة وناولتها أخرى، وضحكت، ثم رفعت حاجبيّ وأنا أسأل مندهشة:

- خوف؟!

- الصاوي شاف فـ عنيكي ساعتها الحاجة الوحيدة اللي بيخاف منها.. شاف أن معندكيش حاجة تخافي عليها.. الصاوي مبيخفش من جهنم الحمرا، بس بيخاف م اللي معندهمش حاجة يخافوا عليها.. أصل الناس اللي من النوع ده قليلين جداً، ومرعبين جداً.

وأخذت تسترسل في التفاصيل، فعرفت منها أن خطة التدريب وضعت بمعرفة المعلم الهلب بعدما أوصاه الصاوي بألا يغادر أمراً يمكنني أن أتعلمه إلا ويبذل

كل ما في وسعه ليعلمني إياه، وفسر لي ذلك سبب التواصل المباشر بين المدربين والهلب، يسلمونه التقارير الشفوية أو المكتوبة، فينفرد بهم، ثم يعودوا إليّ بتمرينات أشد قسوة على البدن أو الذهن أو كلاهما معاً.. اللطيف في الأمر أن الصاوي بعدما عرفني وقربني منه رأي عزوز يعاملني بجفاء ذات يوم، فربت على كتفه وقال له أنه قد وجب عليه الترفق بي لأن منزلتي عنده - هو الصاوي - لا تقل عن منزلته عند ست أبوها التي رفعت شأنه فوق شأن صباح فلذة كبدها.. ولم تمر الأيام حتى سرى الخبر في بيوت العائلة من أقصى البلد إلى أقصاها: (الصاوي كانت له بنت، فصار له بنتان) !.. ولاحظ الصاوي تعلقي بالعهد القديم وصاحبه ذي الأوداج المنتفخة والصدر المترهل. فاقترح عليّ أن آتي به ليسكن البيت ذاته ويشاركني التدريب. فكدت أستفرغ من فرط الغثيان، وأخذته الدهشة مما بدى له تناقضًا يستعصي على الفهم.. فشرحت له الأمر على أوجهه، إذ كنت أرى أن الأيام القادمة ستجعل للخنزير دوراً محورياً في حياتي. ذلك الشيء المدعو مولانا من النوع الذي إذا تعلق بامرأة سار وراءها معصوب العينين إلى جهنم، نوع نادر الوجود، ينساق وراء شهوته بعقل معطل، ويعيش لهواجسه الجنسية، تكفيه غمزة عين أو كلمة تدليل، أو لحظة تعري مع همسة عفوية.. كل هذا يجعله يمني نفسه بلقاء مرتقب قد ينتظر حدوثه لسنوات وهو لاهث وراء أحلام اليقظة، ويصبر نفسه بالاستمناء.. الاستمناء: وسيلة الفشلة والجبناء والعاجزين. راهنت نفسي عليه منذ رأيته للمرة الأولى، وقتها كنت أتعرض لاعتداء بدني، وكنت قد وطنت نفسي على العمل بقول العقلاء: " If you rapped and cant defend yourself , try to enjoy it".. لكنه ظهر أمامي من عدم وكأن الأرض انشقت عنه.. نظرة واحدة جعلتني أراهن نفسي عليه، وفي النظرة التالية كنت أنتزع قلبه من بين ضلوعه باستجداء كاذب. ولم تمر دقيقة حتى وقعت الواقعة، ونجح الرهان.. قتل السفيه صاحبه. وجلست بجواره طوال الليل أجفف عرقه وأداوي حمته،

وقد وطنت العقل على ألا أدعه يفارقني إلى آخر العمر، فأجدت ربط روحه إليّ تارة بالإغراء الأنثوي، وتارة أخرى بقدرتي على الثبات في أوقات الأزمات حتى نعبر منها آمنين.. فأذعن لأوقات سخطي كخادم يستعذب قسوة مخدومه، وبات لا يتمنى من الدنيا شيئا بقدر ما يتمنى إرضائي. حتى أتى اليوم الذي انتقلت فيه للعيش ببيت الصاوي، فعينت له - بإذن كبير البيت - من يراقبونه وينقلون إليّ كل حركاته، لعدم ثقتي في قدرته على التعايش بدوني مما قد يجعله يورط نفسه، ويورطني بالتبعية، في مشكلات أكبر من طاقتي.. ومما لا شك فيه أن شخصاً مثله - يعرف عني الكثير - سيعد صيدًا ثميناً ويسيراً للجهاز.. وبالفعل، لم تكن تمر الأيام حتى يصلني خبر وقوعه فريسة في يد الشرطة.. فأتحرك وسط حشد مسلح، ونقتحم مقر احتجازه ونخلصه من بين أيديهم. إنهم لا يريدونه، إنهم لا يشعرون أصلاً بوجوده.. كل ما في الأمر أنهم يعتقدون أن ثمة طريقة يستطيعون بها الوصول إليّ من خلاله. وهذا ما كان راسخاً في قرارة نفسي لا يخالجني الشك بصحته ولو مرة واحدة، حتى بعدما ألقى القبض عليه إثر نجاح العملية الأولى، بل إن القبض عليه في ذلك الموعد تحديداً جعلني أزداد يقيناً بأنهم يقصدونني. هي أول عملية منظمة شاركته فيها وسط عدد كبير من الرجال، وشرحت لكل منهم دوره يؤديه دون أن يعلم الكثير عن الهدف الكلي، وتفاصيل ما يتوجب على الآخرين القيام به، لأن من يؤدي دوره يتوجب عليه أن ينسحب إلى الصف الخلفي خارجاً من دائرة الضوء، أو يخرج من المشهد نهائياً، كل يتصرف حسب الحاجة إليه.. وتمت العملية بربح نصف مليون دولار، فنال الرجال نصيبهم وضاعفت له النصيب نصيبين تقديراً على مجهوداته وحسن إدارته لدور بطل المشهد (ملحوظة: أنا لا أفضل أن أكون في المقدمة، إلا إذا كان الأمر يستدعي ذلك).. وبعد ستة شهور أو أقل وصلني خبر القبض عليه، فلم أتركه يمضي في الحجز ساعة. ولما يأس رجال الجهاز من لعبة الكر والفر التي أستغرقت سنوات لجأوا للتفاوض المباشر.. هاتفني النقيب

أسامة السكري، عميل مزدوج، لا يعمل إلا لصالح نفسه.. يقبض منا كل شهر مبلغ مالي يسد عين الشمس ولا يمانع في القبض عليّ إن أقتضت الضرورة ذلك، ولهذا كان لزاماً عليّ أن أكون على درجة كبيرة من الحرص أثناء التعامل معه، فجعلت مولانا وسيطاً بيننا، عدد المرات التي تقابلنا فيها كانت - في ذلك الوقت - تعد على أصابع اليد الواحدة.. هذه المرة هاتفني أسامة بشكل مباشر وطلب مقابلتي. فذهبت في الموعد والمكان الذان حددهما وأنا محاطة برجال مسلحون يراقبونني عن بعد ويستعدون لحمايتي إن لزم الأمر. وبدء حديثه بمقدمة مملة عن كم الخدمات التي قدمها في السنوات السابقة، وكم الخدمات التي يستعد لتقديمها في السنوات القادمة، ثم بدء يشكو من متاعب العمل وتأخر الترقية، ويتحدث عن رتبة (الرائد) التي يحلم بها. فقاطعته مطالبةً إياه بالإيجاز، وضايقه ذلك.. طالبني بتسلم الصاوي، هكذا بمنتهى الوقاحة !.. التقت أعيننا في نظرة تحدٍ كثورين في حلبة يتأهبان للتناطح، وكل منهما يوجه قرنيه باتجاه الآخر ويضرب الأرض بإحدى قدميه الأماميتين.

- متحاوليش تبقى شهيدة.. الصاوي خلاص فـ آخر أيامه، ولا هو اللي يعوزه عذرائيل يحرم ع الداخلية؟!

الآن فقط عرفت ما كانوا يريدونه من القبض على الخنزير، الصاوي هو الهدف.. وصلتهم الرسالة كما أعدها.. خرق الرجل العهد الذي كان بينه وبينهم يوم عمل على صنعي فأفلح وأجاد. إنهم لا يريدونني، لا يريدون الإبنة المدربة على فشخهم في أفكارهم. يريدون الأب الذي دربها. رفضت عرضه. فألح ولجأ لمساومتي، ثم ذهب لابتزازي بلهجة آمرة حادة.. لم تعجبني لهجته، فواجهته بلسان أشد قسوة:

- اسمع يا بتاع أنت.. أنا يوم ما أقع هوديك أنت واللي يتشدد لك في ستين داهية.. يوم ما اتفقنا على أننا نتعاون مع بعض مُسجل بالصوت والصورة، وحتى كلامك دلوقتي وأنت بتعترف أنك اتعاونت معايا أكتر من أربع سنين

مسجل بالصوت والصورة. دا غير شغلك الوسخ معايا ومع غيري اللي أنت عارف أني أقدر أجيب عليه أدلة ماتخرش الميه.. فاتعدل وأنت بتتكلم معايا بدل ما أخلي أيامك الجايه شبه وشك.

اعتدل في جلسته، وتبدل لونه وهو يحرك شفتيه أكثر من مرة دون أن ينطق بحرف، ربما كان يحاول أن يجد طريقة لتراجع أستراتيجي يحفظ به ماء وجهه، أو ربما كان يسبني في سره. غادرته وهو مازال مأخوذاً بما سمع. انصرفت إلى الدار، وأنا متأكدة أن الأمر لا يمكن أن ينتهى بهذه البساطة، فتيقنت أن الدبور قد بدأ الزن على خراب عشه.

- الدقن دي شُبهة.. كان لازم أحلقها.

هكذا قال مولانا وهو يجلس على المقعد المجاور لي بالسيارة. الطريق إلى الإسكندرية شبه مظلم.. أغلب أعمدة الإنارة لا تعمل، كشافات السيارة تتكفل بإنارة لا تفلح في إضاءة الإسفلت بالقدر الكافي.. ولا شيء يلهيني عن ثرثرته المقيتة إلا صوت Edith piaf المنبعث من السماعات بجنون يغير معالم الطريق، ويجعل السيارة تحلق في آفاق أكثر اتساعاً. أجيب على كلماته بنبرة ساخرة:

- شُبهة دي تبقى خالتك، ماتت وكان نفسها تستحمى.. دلوقتي الدقن سُنة يا حيلتها.

أنظر لملامحه الخشنة، وخصلات شعره البيضاء فأتذكر كل شيء كأنه حدث بالأمس القريب. ذلك اليوم الذي جاءنا فيه سوستة زوج كراملة بالخبر المشؤوم كغراب ينذر أصحابه بالخراب: "الصاوي سلم نفسه للداخلية" !.. وعرفنا التفاصيل فيما بعد. هاجمت مباحث المخدرات بيوت العائلة في منطقة باكوس بالإسكندرية، وحرزت من بيت أسماء (أم أمينة) خمسة وعشرين فرش حشيش. قبضوا على المرأة، فسلم لهم الصاوي نفسه، واعترف بأن الأحراز تخصه. ضربنا كفًا بكف وتساءلنا وقد شلت المفاجأة عقولنا: لماذا لم يسلم لهم واحدًا من صبيانه؟! فهم كثر، ومنهم من لا يعول أسرة تفتقد غيابه مما يجعله قادرًا على

حمل القضية إلى حبل المشنقة إن لزم الأمر. الصاوي الذي زهد الحياة في تلك الأيام، ودارت أيامه بين زاوية الحارة حيث يؤم المصلين في الخمس صلوات، والحجرة الشرقية بالطابق العلوي حيث يتخذها خلوة يستريح بها على الأريكة التي أورثته إياها ست أبوها وهجرها لسنوات.. تمر الساعات وهو يقرأ القرآن ويستضيف المتخاصمين في قعدات العرب فيحكم بينهم بالحق. هذا الرجل الذي ترك إدارة شؤون العائلة لابنته كراملة بعدما اطمأن عليها بتزويجها من سوستة ابن المعلم الهلب، وهي مكرهة على ذلك.. ولكنه كان يعلم أنه إن ترك لها أمرها تسيره كيفما تشاء لاختارت العنوسة وهي مرتاحة البال مطمئنة النفس. ذلك الرجل الذي أخذت منه الدنيا أكثر مما أعطته يكمل في ذلك اليوم تضحيته، ويقدم نفسه قرباناً للمرأة التي ظل طيفها يطارده من عهد شبابه الأول إلى شيخوخته. أذكر يوم أوقف كراملة أمامه في صحن الدار وهو يرمقها بنظرة ثاقبة، بعدما جادلته في حكمه بإيداع إحدى نساء عطيات بالبوابة السابعة، كان قد اكتشف أن المرأة تعمل مرشدة لصالح الداخلية، وكانت كراملة تشفق عليها من ذلك المصير، يومها قال بصوت كالرعد من شدة غضبه: "أنتِ كبيرة، وقلب الكبير حجر". وعندما رأيته في الزيارة الأولى رنت هذه الكلمة في أذني يصحبها صوت غريب لا أستطيع أن أغلق أذناي دونه، صوت تردد صداه في أرجاء الحجرة القاتمة كأنه شامت أو هازيء أو متحسر: "حجر الكبير تهشم" ! وعدته بأن أوكل أفضل المحاميين للدفاع عنه، فأوفيت بوعدي بمساعدة كراملة التي جمعت كل المعلومات اللازمة عن أكثر المحامين خبرة بهذا النوع من القضايا.. وأسندنا القضية إلى خمسة منهم، فتباحثوا فيما بينهم، واستطاعوا تحويلها من قضية اتجار إلى تعاطي، وصدر الحكم عليه بالحبس خمس سنوات. وبعدما سمعت الحكم الصادر ضده، ورايته في قفص الاتهام غادرت المحكمة وذكرياتنا القديمة تداعب ذاكرتي وتستحوذ على تفكيري، حتى شعرت بأن جسدي يتآكل وروحي تغادره تاركة إياه خرقة بالية. ورأيت الخنزير يدور حول

نفسه، ويخرج من بين شفتيه جملاً مبتورة وكلمات مبعثرة.. ثم رتب بصعوبة جملة صحيحة:

- هو أنا صحيح كنت عاوز نبطل شغل معاه.. ميجراش حاجة لو أشتغلنا مع نفسنا، بس ده مش معناه أني هبقى مبسوط باللي حصل له.. أنتي أكيد مش بتفكري فيا بالطريقة دي.. صح؟.. صح ولا أيه طيب؟؟

توتره وارتباكه جعلاني أنتبه لتلك النظرة الزائغة في عينه التي تعكس شعوراً لا إرادياً بالخوف.. خوف لا يستند على حجة أو يتزين بمنطق. خوف لأجل الخوف، كعادة كل الأغبياء لا تستطيع أن تمنطق انفعالاتهم، فهي كثيرة وغالباً ما تكون ترجمة لأكثر من حدث في آن واحد.. أفكارهم غير مرتبة، وكذلك تصرفاتهم وانفعالاتهم أيضاً. غادرت مسكنه، واندفعت ناحية البيت الكبير، فدفعت بوابته الخشبية الضخمة بقبضتي يدي وأنا أهتف باسم سوستة، جاءني صوته من غرفته ملبياً النداء بصوت ناعس، فطلبت منه أن يلحق بي في أسرع وقت بحجرة الصاوي. ولما دخلت وجلست متربعة على أريكته وأنا أغالب التعب أتتني كراملة قبل أن يحضر زوجها، وسألتني عن سر ما أسمته بالجلبة التي أحدثتها بجنبات البيت الساكن كأن به مأتم، وقبل أن أجيبها دخل سوستة تعلو وجهه سحابة من القلق والاضطراب وبقايا نعاس لم يفق منه بعد. سألته عن أخبار مراقبة مولانا، فضم قبضته وأشار بإبهامه بما يعني أن كل شيء يسير كما يجب، فطلبت منه أن يأتيني بتقارير المتابعة اليومية منذ ستة شهور مضت.. ولما أحضر التقارير وسط إلحاح كراملة للوقوف على حقيقة ما يحدث، ولما تفقدتها لمدة نصف ساعة (فقد أعاقتني رداءة الخط وجهل كاتبها بطبيعة كتابة التقارير)، ولأن لي عينان لا يخطئان هدفهما، فقد توصلت لمعلومة أظنها مربط الفرس، قام بزيارة رجل غريب في مقهي شعبي منذ أربعة أشعر وبضعة أيام من تاريخه. وتأكدت شكوكي وشرحت لكراملة كل ما تبين لي من حقائق. وطلبت منها أن تأتيني بـ"سكر"، وهو شاب في بداية العقد

الثالث من عمره عينه الصاوي لخدمة مولانا وهو في الحقيقة ما عين إلا لمراقبته ونقل تحركاته، شاب خلوق يعرف طبيعة عمله ويتقنه. ولما حضر سألته إن كان يذكر يوم المقابلة المدون في تقرير بتاريخ ١٩ فبراير. يذكره، سكر لا ينسى شيء، ذاكرته قوية، الصاوي دائماً يحسن اختيار الرجال. فتحت هاتفي وعرضت عليه صورة واضحة للنقيب أسامة، مررتها أمام عينيه.. فأكد أنه نفس الرجل الذي قابله في ذلك اليوم. تأكدت الظنون، وصار الإنتقام واجب لا يتقاعص عنه إلا من كان به من الخيانة أو الجبن آفة، وهما نقيصتان لم أعرفهما يوماً في حياتي. أخذ الحق صنعة لا يحترفها أحد بقدر ما أحترفها. غدر الخنزير بأولي نعمته فحق عليه العذاب. هاتفت أسامة، فما طالت المكالمة أكثر من خمسون ثانية، طلبت مقابلته واتفقنا على موعد مناسب على أن تكون المقابلة في نفس المكان الذي تقابلنا به في المرة الماضية. نفس المكان الذي شهد تقاعسي عن الفتك برأسه يوم طلب مني تسليم الكبير. جاء في موعده، طلبنا الغداء، وصمت حتى أنزل النادل أطباقه على المائدة.. أقطع اللحم بالسكين، وأرفعه إلى فمي بالشوكة بهدوء أربكه، لابد أنه كان يتوقع شراً. قلت، فأصغى.

- انت عملت اللي أنت عايزه.. مش مشكلة، هعتبرها غلطتي عشان يوم ما بصيت بعينك ناحية الصاوي كان المفروض أخزقهم لك في ساعتها.. نهايته، دلوقتي بقى جه دورك عشان تعمل لي اللي أنا عاوزاه.

قال بعض الكلمات يعترض بها على ما أسماه (أسلوبي الوقح)، كلمات لم أعِرها أي اهتمام، فقط سددت له نظرة حانقة، وددت في هذه اللحظة أن أشرب من دمه، تجاهلت كل ما قاله واستطردت:

- أنا مش حابة أشوف مولانا تاني.. لازم يختفي. بس مش عايزاه يموت، عايزاه يعيش يتمنى الموت في كل لحظة وميطولهوش.. أنت فاهمني يا أسامة ولا أيه؟

تهللت أساريره، وبدا متحمساً لدفع ثمن زهيد لا يعجزه دفعه، وقطع بسكينه

قطعة من اللحم، ثم وضعها في فمه، وأخذ يمضغها وهو يهز رأسه موافقاً. وفي الليلة التالية ذاع الخبر بين الناس.. قبضوا على مولانا. واقترحت كراملة أن نرسل له من يقتله في محبسه، فرفضت ذلك مؤكدة أن الموت له رحمة، كما أنني كنت واثقة أن البحث عنه أشبه بالبحث عن إبرة في كوم قش.. أسامة السكري وحش مسعور حررته من أغلاله بكامل إرادتي ودفعته نحو فريسته دفعاً. ثم أكملت العمل بمعاونة كراملة ليحل سوستة محل مولانا كمساعد لي، وذلك ما أتعب خبيرة التجميل وجعلها تبزل مجهوداً مضاعفاً لتداري آثار ضربة مطواة قديمة في خده الأيمن خلفت عاهة مستديمة من أسفل عينه حتى جانب فمه. لكنه في كل مرة كان قادراً على تعويض قبح شكله بأداء متميز، فيربط الهلب على كتفه ويردد: "صحيح، ابن الوز عوام". رباه الهلب فأحسن تربيته، إلا أنه لم يكن قبل هذه الأيام يتباهى به، فقد كان ككل الغجر يتمنى أن ينجب بنتاً يقوي بها ظهره ويورثها أسمه وتركته. وحملت امرأته بعد سوستة ثلاثة مرات فلم تنجب إلا ذكوراً، وفي المرة الرابعة أنجبت فتاة وماتت في يد الطبيب قبل أن تتم لحظات صراخها الأولى، فأيقن أنها - ما أسماه - إرادة الله التي تتجلى في أعظم صورها.. بل إنه راح إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ أنه أخذ يضرب كفاً على كف ويتساءل عما فعله في حياته كي ينزّل عليه من السماء كل هذا الغضب.. ثم تشاءم من زوجه فبدلها مرتين، وعصمة الغجر في أيادي النساء، فالرجل يطلّق ولا يطلِق.. ولكن الهلب كبير، وللكبار دائماً حسابات أخرى. المهم أنه ندر على نفسه أن يطعم شحاذي السيدة ثلاثة أيام بلياليهم إن رزقه الله فتاة تملأ عليه دنياه ويتفاخر بها أمام الناس، فلم يرزق إلا ذكوراً على ذكوره، فعاش في كمد إلى أن رفع أكبر أبنائه رأسه وجعله يمشي بين الناس مختالاً كطاووس مبهجة ألوانه تسر الناظرين، وزادت نجاحات سوستة في التنفيذ وفقاً للخطة الموضوعة أو الإنتقال للخطة البديلة بمرونة ويسر دون أن يثير شكوك المستهدفين. وزادت ثقتي بقدراته حتى بدأت أستشيره في الخطط

بعد وضعها، وهو ما لم أفعله في حياتي مع أحد قبله أو بعده.. الصاوي هو الشخص الوحيد الذي كنت أشعر بأنني أحتاج لمشورته في بعض الأوقات، لكنه كان ينأى بنفسه عن هذا، تاركاً لي حرية التصرف وتحمل العواقب.. الرجل دائماً يؤمن بمسألة تحمل العواقب إيماناً متزمتاً لا يمكنني التحايل عليه، على كل حال أفادني هذا بعض الشيء، إذ أن الشعور الذي خلفه غيابه عني لم يتجاوز الإحساس بالوحدة، أما العمل فلم يتأثر إطلاقاً. ظلت الأمور تمضي على حالها المعهود حتى هاتفني أحد معاونينا بالجهاز.. حدث هذا بعد ليلة رأس السنة ببضعة أيام، لم نستقبل من العام الجديد - ٢٠١١ - إلا ثلاثة أخبار سيئة. امرأة حبلى في بيت عطيات. سميرة تطلب من البيت الكبير أن يُسمح لها باستخدام البوابة السابعة للتخلص من زوجها الذي اكتشفت أنه يخونها. مشاجرة دارت بين بيوتنا ومطاريد الجبل في قرية نائية بسوهاج، راح ضحيتها سبعة ضحايا في خيرة شبابنا. تسلل إلينا شعور بأن العام سيكون كئيباً، الجواب يقرأ من عنوانه مثلما قالت عطيات.. وجاءت مكالمة الضابط لتحول الشعور إلى يقين. طلب مني تجميد العمل حتى يمر عيد الشرطة بسلام. ما الأمر؟ أعمال شغب، قد تحدث وقد لا تحدث، وهذا كل ما في الأمر.. ذلك حسب قوله، إلا أن لهجته المغلفة بهدوء مصطنع لم ترحني. أستطيع أن أتفهم أنه قلق من تحديات ربما تحملها الأيام القادمة. أستطيع أن أقرأ ما هو أبعد مما يتفوه به المرء حتى لو كان الحديث هاتفياً. أستطيع أن أقرأ ما يدور بعقلك.. يزم الواحد من هؤلاء شفتيه ويقول: "كله تمام". فأقرأ الرسالة الحقيقية على الفور.. هو يعني أن الأمور سيئة - سيئة للغاية - لكنه لا يستطيع أن يتفهم سبب ذلك. وهذا بالظبط ما حدث في تلك المكالمة. (أعمال شغب، مجرد أعمال شغب). قد يكون الأمر كارثياً، لا أحد يعرف على وجه الدقة ما سيحدث، لكنهم ينتظرون حدوثه، لا يملكون إلا أن ينتظروا حدوثه.. عيد الشرطة / ٢٥ يناير. الأيام القادمة بالكاد تكفي للقيام ببعض الاستعدادات الأمنية. أشاور كراملة وزوجها في مسألة تجميد

العمل. تسند رأسها إلى الجدار دون أن تنبس بكلمة (وهي وحدها المنوطة باتخاذ القرار النهائي، هذا من صميم عملها بصفتها القائمة بأعمال الصاوي).. أما سوستة فاكتفى بتحريك رأسه إلى اليمين واليسار مع كلمات مقتضبة يعلن بها الرفض الصريح والنهائي. أناقشه، فيعلن استياءه ويؤكد أن المسألة بالنسبة له مسألة مبدأ، فنحن - حسب قوله - لا نؤدي عملنا وفقاً لمشيئة الجهاز. الرجل يعمل لصالحنا، ليس للجهاز علاقة بالأمر. أحاول أن أوضح له ذلك، لكنه لا يقتنع. تشعل كراملة سيجارة وتفكر. يظل الخلاف قائماً. يقتحم الهلب مجلسنا وكأنه حضر الحوار من بدايته، يؤيد فكرة تجميد العمل.. يقول أن الشوارع مضطربة، من الوارد أن يحدث شيء غير معتاد، ليس من الحكمة أن نضع أنفسنا قرباناً لدعاة الشغب.. توقف العمل، مكثنا في بيوتنا، لا عمليات، لا نشل ولا سرقة، أوقفنا تجارة الحشيش وخلافه، حتى نساء البغاء تعطلن عن عملهن وجلسن في منازلهن آمنات.. المتزوجة جلست في بيت زوجها وسط أبنائها، واللواتي لم يحن أوان زواجهن بعد جلسن في بيت عطيات، مسكنهن المعتاد. يوم الثلاثاء، عيد الشرطة، المظاهرات في الشوارع، أعداد قليلة لا تستدعي كل ما سببته من توتر.. سخر سوستة، ضرب الهلب كفاً على كف، قلبت كراملة محطة التلفاز، وهرش عزوز شعره، اقترحت عطيات أن تنزل النسوة لممارسة عملهن. هكذا - دائماً - تبدأ الأحداث الكبيرة، تبدو تافهة ولا تستدعي القلق !.. سرعان ما تتأزم الأمور، قنوات الأخبار العربية تذيع بالصوت والصورة انتشار الفوضى في شوارع السويس. قنوات البث المصرية تؤكد أن كل شيء على ما يرام. الليل ينزل ستاره على المدينة ببطء، الساعات تمر متثاقلة، الجميع في حالة ترقب. كراملة تهمس في أذن زوجها فيمرر أنامله على شعر صدره وهو يبتسم، ثم يتجهان إلى غرفتهما. عزوز يحاول أن يُدخل سبابته في أذنه. وتشرق الشمس مرة تلو الأخرى، وكأن اليوم يتكرر.. كل يوم عيد شرطة ولكن بصورة أشد. الشوارع تصر على عنادها، عدد القتلى يتزايد. يقسم الهلب

إن التاريخ يعيد نفسه. يتذكر، السبعينات (انتفاضة الحرامية). يترحم على السادات وأيامه، الرئيس الزعيم الذي استطاع أن يتصدى للمؤامرة قبل أن تكتمل. الجمعة، بعد الصلاة مباشرة.. جميع قنوات البث العربية والأجنبية تنشر Video لإحدى سيارات الأمن وهي تضخ الماء في وجوه بعض المصلين قبل أن يتموا صلاتهم، تسجيل مصور آخر نشرته قناة الجزيرة لشاب يلف رقبته بشال فلسطيني ويضع يده على خصره أمام مدرعة تحاول أن توجه خرطوم الماء ناحيته. المشاغبون ينجحون في كسب تعاطف الناس. مقرات الحزب الوطني تحترق، أقسام الشرطة تحترق.. الفوضى تفرض سيطرتها على الموقف، لا يليق بنا أن نقف متفرجين بينما الآخرون يصنعون التاريخ.. نحن دعاة الفوضى منذ البدء، الفوضى وطننا الذي يأوينا ويسترنا كما يستر الليل كل الذين ولدوا في الظلام. جمعت الصبية أمام باب البيت الكبير وأصدرت إليهم أوامر حاسمة، فمضوا يشعلون كل قسم نجا من الهجمة الأولى، الهجمة الثانية تمت برعايتنا.. وهذا يعني أن النجاة من الجحيم ما هي إلا حلم يستحيل تحقيقه. نجح الأولاد فيما كلفوا به، النيران تكاد تلتهم شاشة التلفاز، كل شيء يحترق، إتلاف القليل من المصانع والشركات أمر مبهج. بعض السطو المسلح على عدد لا بأس به من الأسواق الكبرى مكمل معقول للإثارة، الأولاد يلعبون بحرية، يتميزون ببراعة، غوغائيون صغار تربوا على الولع بإفساد الأشياء. هذا يوم تتفتت فيه الطبقات، يوم حق فيه للفقير أن يرتع في أماكن الأثرياء فيأكل من مأكلهم ويلبس لباسهم. أنا لا أنشر الفوضى فحسب، أنا أحقق العدل أيضاً.. المشاغبون في التحرير يهتفون مطالبين بإسقاط النظام، وأنا أبني لهم نظامًا جديدًا.. نظام اللانظام. اللجان الشعبية؟ هؤلاء هم الفلول، حفنة من الهواة المذعورين. ماكرون يدعون حماية الوطن، بينما هم في حقيقة الأمر غير معنيين إلا بحماية ممتلكاتهم.. لو كانوا معنيين بالوطن حقاً لاندفعوا إلى الميادين يشاركون المتظاهرين هتافهم، يسألون رئيس الجمهورية الرحيل، ويسخرون

منه بالنكات اللاذعة مثلما يفعل المتمردون. النظام يفقد سيطرته على الأمور، أتصل برجالنا في الجهاز.. شبكات الاتصال معطلة !. أجتمع بالصبية مجدداً، سندع لهم ممتلكاتهم، دعونا ننشر مزيداً من الذعر. هاجموا السجون، حرروا السجناء.. فكوا القيود من حول معصمي الصاوي. لابد أن نتشارك في صناعة التاريخ. سأجلس عند قدميه أدلكهما - كما كنت أفعل وأنا صغيرة - وأداعب باطن قدمه بأناملي، فيضحك وينهاني عن ذلك وهو يشتمني. سأخبره حينها أني نجحت. وأنه لابد أن يفخر بي، فيداعب خصلات شعري ويضمني لحضنه ويقول إنه فخور بي.. أصدقه، وأشعر بالدفء والأمان. لكن ذلك لم يحدث.. فُتِحت السجون، لكنه لم يعُد، لسوء الحظ لم تنجح محاولة فتح سجنه ضمن عدد قليل من السجون. أسأل الأولاد حين يرجعون. يقول أحدهم إن الأمور تجري بصورة غريبة، أسأله التوضيح، فيقول إنهم لم يفتحوا السجون.. فعلها أناس آخرون. من في هذا البلد غيرنا يتجرأ على الإتيان بفعل كهذا؟ تقول كراملة بعد أن تصرفهم بإشارة من يدها: "الداخلية.. أو الإخوان". لم أفهم ما تعنيه، فوضحت قولها.. الطرف الأول قد يعمل بمنطق (عليّ وعلى أعدائي)، فقد يصور له غباؤه أن المتمردين سيرتعبون لدى نشر الفوضى ويطالبونه بحفظ الأمن، غرور ضباط الداخلية قد يجعلهم يتصورون أنهم يستطيعون السيطرة على الأمور تحت أي ظرف. أما الطرف الثاني فمن مصلحته أن يطرح نفسه كبديل موضوعي. عندما يفسد النظام - بمعناه الحرفي - يلجأ الناس لفصيل منظم، وقد يبلغ بهم الأمر أن يدفعوا لهذا الفصيل أرواحهم عن طيب خاطر مقابل أن تعود الأمور إلى نصابها، ليوفروا لأبناءهم مستقبل آمن. وبالفعل، حدث ما قالته ولكن بصورة مختلفة.. لجأ الناس لفصيل منظم، يهتفون باسمه في الميادين. (الجيش) أولائك الرجال الذين يستوطنون بالصحراء. ولم يمر وقت طويل قبل أن يستجيب الجند لدعوتهم، خرجوا بستراتهم المموهة ومدرعاتهم الثقيلة فانتشروا بالشوارع وطوقوا الميادين، فرفعت علامات النصر. وسرعان

ما أعلن المجير مناصرته للمستجيرين به. تحية عسكرية. أغنيات وطنية. بيان من القصر الجمهوري يعلن تخلي الرئيس عن منصبه. انتهى العهد القديم، وقد آن لنا أن نتكيف مع الأوضاع الجديدة. المتمردون يهتفون باسم الحاكم العسكري ويطالبونه بالتطهير. ومرت أيام ليست لها ملامح، كلها تحمل ألوانًا زاهية من ذلك النوع الذي يصيب الناظر إليه بالعمى، وتحملت كل هذا حتى هاتفتني كراملة ذات يوم، وطلبت مني مقابلتها في (الجُحر).. وهو الاسم الشائع لما يمكن تسميته مجازاً قبو البيت الكبير. كل بيوت الغجر لها قبو سري صممه غجري متخصص لا يفشي سر مداخلها ومخارجها ولو قتل في سبيل ذلك، كلنا نحتاج لبدرون نخفي به أعمالنا التي يرفضها القانون، فبدونه لا نستطيع أن ننجو من شر مداهمة الشرطة لبيوتنا. السكندريون وسكان مدن القناة فقط لا يفهمون الفكرة، ويستبدلونها بالأبواب المصفحة، حيث يغلقونها ويطفئون الأنوار في أوقات المداهمات، لكن هذه الحيلة غالباً لا تفلح، فالشرطة لا تعجز أمام الأبواب المغلقة مهما كانت متانتها، غالباً ما ينجح رجال الشرطة في تحطيم الأبواب مثلما حدث مع أم أمينة، وجحر البيت الكبير هو مكان لا يمكن مقارنته بأي جحر آخر، عمل على إنشاءه خمسة وخمسون رجلاً من رجال العائلة المخلصين، وصممت مداخله السريه بمعرفة مختصين أحضرهم الصاوي من ألمانيا وقتلهم بعدما أتموا عملهم على أكمل وجه، ليموت معهم سر المداخل الثلاثة. المدخل الأول للصاوي، لا يعرف بوجوده إلا ثلاثة أشخاص غيره، كراملة والهلب وأنا، وليس بيننا من يتجرأ على اقتحام مدخله في غيابه. والمدخل الثاني يفتح بسهولة، موجود تحت المائدة المستديرة بالمضيفة، لا يحتاج فتحه لأكثر من ثلاث نقرات، وهو خاص بالمتطفلين، حيث يدخلون وتستوعبهم الساحة الحيدة مهما كان عددهم، ينخدعون بمنظر الباب الوحيد، فحين تمس أنامل أحدهم قبضته اللامعة تغلق الفتحة التي دخلوا منها، ويستدير السقف كمروحة ثم يفرغ ما يحويه من زيت مغلي، لينهي بذلك حياة العابثين.

وتوجهت إلى الغرفة التي تضم المدخل الثالث بالطابق الأرضي، وهي تقع على يمين السلم المؤدي إلى الأدوار العلوية. جلست إلى المكتب، وأغلقت الكتاب الموضوع عليه، ثم فتحته على الصفحة رقم ١٨٧ وملست عليها بيدي مرتين حتى برز شريط جانبي، جذبته لأسفل ثم أعدته مكانه وأغلقت الكتاب، وجربت النتوء الذي ظهر في جانب المكتب بكلوة يدي، ففتح الحائط من خلفي وانسحب المقعد إلى الخلف حتى تجاوز الحائط الذي عاد إلى هيئته الأولى، فاستدرت إلى الجهة الأخرى، ثم غادرت المقعد قاصدة الممر المظلم الطويل حتى نهايته..
هناك رفعت يديّ على استقامتهما بصورة أفقية، ثم قمت بدفع مقبضين سريين إلى داخل الحائط. فهوت بي قطعة مربعة من الأرض مسافة طابقين، ولما نزلت عنها في مواجهة كراملة ارتفعت بصورة تلقائية لأعلى مرة أخرى، كانت تقف في منتصف الحجرة المربعة، وهي حجرة واسعة وخاوية، ابتسمت كراملة بمجرد أن رأتني، ابتسامتها تحمل أمراً غير سار، وخلفها الحائط الكهربائي الذي يفتح تلقائياً بمجرد أن يقترب منه مَن يرغب في العبور إلى طاولة الاجتماعات، كان مغلقاً، تلتصق به صورة عملاقة لوجه الصاوي وهو ينظر إلى القادم نظرة ثاقبة، وحين يفتح الباب ينشطر وجهه معها لنصفين متساويين.
وقبل أن أسألها عن سبب استدعائي بادرتني بكلمات وداع مقتضبة وهي تجاهد لتبدو متماسكة، بدا لي الموقف غريباً ومفاجئًا.. حاولت أن أستوضح الأمر، وقبل أن تجيبني انشطر وجه الصاوي، وأحدث الباب صوتاً مزعجاً مما يعني أنه لم يخضع للصيانة الدورية منذ فترة كبيرة، وظهر الهلب متلفحاً بعباءته، ويضرب الأرض بعصاه.. كان صوته قوياً، بدا متعالياً بعض الشيء.
- من يوم ما رفعتك على دراعي وأنتي بنت خمستاشر سنة وحطيتك على حجر كبيرنا وأنا مراهن نفسي عليكي.. دربناكي وجهزناكي عشان تبقي الفرسة الربحانة، ولما يحين أوان السبق نفك لجامك ونطلقك وإحنا متطمنين.
لم أستطع أن أتفهم كلماته، حدثني قلبي بأنه يمهد لتكليفي بأكبر وأخطر عملية

في حياتي، لكن ما تفوه به بدا بعيداً عن هذا.
- بس كان لازم مناخدش عليكي عهد، فرفعنا عنك التكليف عشان يوم زي ده.. أنتي مش هنجرانية، ولا عمرك هتكوني.. وأنتي عارفه أن قوتك في أنك تفضلي طول الوقت رمانة الميزان بينا وبين أي نظام ممكن ييجي، إحنا علمناكي عشان كده.. ودلوقتي بقى جه الوقت اللي لازم تخرجي فيه م البيت الكبير خروج ملوش راجعة، ولا تهوبي ناحية أي بيت من بيوت الهناجرة ولا رجلك تخطي ناحيتها إلا لما نبعت لك. ومتخافيش، الرجالة هيفضلوا طول الوقت حوليكي.. حارسينك وحاميينك.

مطرودة بلا ذنب أو خطيئة كحواء التي أخرجها آدم بعناده وتعنته من جنة الخلد.. أبتلع ريقي بصعوبة.. أشعر بدوار يلف رأسي.. كدت أسأله إن كان الصاوي يوافق على هذا؟ إلا أنني شعرت أن القوة التي يتكلم بها ما كانت تأتيه لو أنه يفعل أمراً مخالفاً لإرادة الصاوي.. واستدرك حديثه يخطط للأيام القادمة. ويشرح الأمور باستفاضة كما يكون الحال مع قائد يتعامل مع مقودته المحترفة للمرة الأخيرة. النظام الجديد يتشكل، وقد يضر هذا بمصالح العائلة في المستقبل القريب.. لذلك لابد أن تكون للغجر بصمة خاصة داخل جسد الدولة، بحيث لا يستطيع أي نظام أن يتخلص منهم أو يمارس عليهم ضغوط لا تحتمل.. إنه لا يعلم شيء عن طبيعة هذه البصمة، لكن عميدة العائلة في إنجلترا تقول أنها قادرة على تدبر الأمر، وطلبت من كراملة أن ترسل لها ثلاثة أفراد على قدر عالي من الذكاء، من ذلك النوع الذي تسند إليه العمليات التي تتعلق بأمن العائلة، واشترطت أن يكونوا قادرون على استخدام السلاح بحرفية ويجيدون التحدث باللغة الإنجليزية.. كما وضعت شروطًا أخرى ثانوية لا تنطبق كلها على أحد بقدر ما تنطبق عليّ. لذلك حسم الأمر وكان بديهياً أن يقع الاختيار عليّ، بقي شخصان؟ لا، تكفل صاحب الكبير - الذي يتصرف كما أنه وكل بتسيير الأعمال مكانه - بأن يتخذ القرار المناسب، سأسافر وحدي وإن كان

الأمر الذي سيسند إليّ بحاجة لأكثر من شخص فلي حرية اختيار من أراهم يتوافقون مع طبيعة المهمة، وناولتني كراملة مظروفًا أكد الهلب أنه يحتوي على أوراق إثبات شخصية وجواز سفر وخلافه، تم تزييفها كلها بمعرفة خبير متخصص. ليكون اسمي الجديد - طبقاً للأوراق - سارة زيدان. لو كنت في ظروف أخرى أو لو كان الوقت مناسبًا لأشدت بحسن اختيار الاسم الذي بدا موسيقياً. لكن الوقت لم يكن يسمح بأكثر من كلمات وداع مقتضبة.. في بداية الأسبوع التالي وضعت قدمي على أرض لندن، وجدت باستقبالي شابًا من النوع الذي يصدِر لك إحساساً بالألفة، دائم الابتسام، ينتقي عباراته بعناية.. يعتذر عن الإجابة على أسئلتي بأدب، ويؤكد أنني سأعرف كل شيء في حينه. ثم استقلينا سيارة توجهت بنا نحو Bath / باث، وهي مدينة ساحرة، من البقاع القليلة على هذه الأرض التي تجعلك تصدق أن الطبيعة امرأة حسناء وفاتنة. قاد الشاب سيارته إلى حي هاديء، وتركني عند سور خشبي لحديقة صغيرة يقبع خلفها منزل صغير من طابق واحد. وقبل أن يقود سيارته مبتعداً قال جملته الأخيرة: "السيدة لينا تنتظرك في الداخل".. كان عليّ أن أحمل حقيبتي على ظهري وأمضي إلى داخل المنزل، مقابلة غريبة بصورة مبسطة لا يبدو أنها مؤمنة بالإجراءات الأمنية المعتادة.. هكذا بسهولة تقتادني سيارة يقودها شاب ثلاثيني ويتركني أمام بيت أخطر سيدة في إنجلترا. سمعت ذات يوم أنها كانت في شبابها على علاقة غرامية بالأمير فيليب حيث أستغلت هي حبه لها لتحصل - بطرق ملتوية - على كثير من التسهيلات لتكوين أمبراطوريتها المسلحة، قيل أنها أنجبت منه إبناً غير شرعي ومات قبل أن يكمل عامه الأول، أصحاب النوايا الحسنة أعتبروا وفاته حادثاً قدرياً، أما الذين يفضلون أن تمضي الأمور وفقاً لنظرية مؤامرة ما، فهؤولاء أكدوا أن الملكة إليزابيث (التي لم يكن قد مر على تسلمها السلطة أكثر من عام واحد آنذاك) حين بلغها أمر الصغير أرسلت من ينهي حياته، والحقيقة المؤكدة في كلا الحالتين - وبعيداً عن كل الإستنتاجات

- أن طفل ليندا مات، وهجرها فيليب بعد ذلك.. مما جعلها تصاب باكتآب مزمن لم تشفى منه إلا بعد ذلك الحادث بعدة سنوات. باب الحديقة كان مفتوحاً، وباب المنزل أيضاً، تملكني شعور بالريبة.. لا أحب الأبواب التي تفتح دون سبب واضح.. دخلت المنزل وأنا أتحسس مسدسي المعلق على جانب خصري الأيمن، فاجأني صوتها الآتي من الخلف: "إرفعي يدك عن مسدسك، أنتِ في الأرض الآمنة". كان الصوت رخيماً، ويحمل قدراً من الحكمة والقوة لا يستهان بهما. MS LINDA , is the woman who proke the devil's nose هكذا يقولون عنها، وهكذا - أيضاً - تبدو بجسدها الصغير، وعينيها الغائرتين داخل جمجمتها بحيث يظهر حدها العظمي بوضوح، كما أن لها بشرة بيضاء تشوبها صفرة فاقعة، بشرة تملؤها التجاعيد بحيث يصعب على المرء أن يستوضح إن كانت تمتعت صاحبتها بالجمال يوما ما. سألتني عن بقية العدد المطلوب وفقاً لاتفاقها مع كراملة، فوضحت لها أن العائلة ناقشت الأمر واستقروا على الاعتماد عليّ. ضحكت فظهرت أسنانها البيضاء وكأنها لامرأة دون الثلاثين من عمرها، ثم تمتمت بما يعني أن ذلك الرأي لابد أنه أخذ برعاية الهلب، ثم قالت عنه أنه يستعرض قدراته كهاوي. وشردت قليلاً قبل أن تهز كتفيها وكأنها تنفض الأمر كله من رأسها. ثم أخبرتني أنني سأحتاج لشخص آخر على أقل تقدير، فوعدتها بإحضار الشخص المناسب.. أشارت إلى المائدة التي تتوسط الحجرة الجانبية، وقالت أن العشاء سيكون جاهز في السابعة تماماً (أي بعد ساعتين وعشرون دقيقة). ثم أشارت إلى حجرة مغلقة تقع في نهاية ممر ضيق وقالت بلهجة آمرة أن عليّ أن أرتاح من تعب السفر حتى يحين الموعد المحدد، سألتها عن طبيعة المهمة فبدا عليها ضيق شديد وضغطت براحتها على كتفي وهي تؤكد: "أنا شخصياً لا أؤمن بالديمقراطية، ولذلك لا أسمح لأحد بأن يوجه لي الأسئلة لأن هذا من اختصاصي أنا فقط".. لا أعرف لماذا في هذه اللحظة تحديداً شعرت تجاهها بكراهية شديدة.. وددت أن أفرغ

خزانة مسدسي في قلبها وأعود من حيث أتيت.. ولأن هذا العمل لا يمكن أن يمر بسلام تركتها دون إذن وفتحت الحجرة التي أشارت إليها، لكنها استوقفتني بسؤال مفاجئ: "هل أنت دومرية؟" سكت قليلاً قبل أن أجد إجابة مناسبة على السؤال الذي لم أفهم معناه للوهلة الأولى، ثم تذكرت، الإنجليز يسمون غجر الشرق الأوسط (دومر)، ويسمون أنفسهم (رومن)، من الغريب أن تطير من رأسي معلومة تافة كهذه، ربما حدث هذا لأنني حمّلت الموقف قدراً من الرهبة أكثر مما يستحق.. أجبتها: "نعم". لا أعرف لماذا كذبت.. ما الذي كنت أريد أن أثبته لها أو لنفسي في ذلك الوقت؟.. الهلب قال كلمته: "رفعنا عنك التكليف" وهو صادق، لماذا وضعت نفسي في هذا المأزق؟.. لست أدري. كل ما أدريه أنني في الساعة السابعة جلست معها على مائدة العشاء، تبادلنا التحية، ولم نزد.. ظللنا صامتتين ونحن نتناول طعامنا حتى تسائلت هي: "هل لك أصول إنجليزية؟". أجبتها: "أنا زرع شيطاني.. ليس لي أصل". ابتسمت وقالت: "تتكلمين الإنجليزية وكأنك ولدت في لندن".. ابتسمت ولم أعلق، وعاد الصمت من جديد حتى انتهينا من تناول طعامنا، وظننت أنها ستبدأ في التحدث عن العمل بعد ذلك، لكنها لم تفعل.. كل ما فعلته أنها قالت كلمات مقتضبة أميل إلى الأمر منها إلى النصح: "استمتعي بوقتك في الأيام القادمة.. باث بها أماكن كثيرة تستحق الزيارة.. تحركي بحرية فأنتِ تتمتعين بحمايتي".. أستمتع؟ ما جئت هنا بغرض الاستمتاع وإضاعة الوقت، وإنما جئت للعمل. كدت أقول لها هذا لولا أنني خفت أن تواجهني بجملة مستفزة أخرى تجعلني أقتلها دون أن أعبأ بسوء العاقبة.. حثتني على الاستمتاع فقررت أن أحتفظ برأيي لنفسي.. في الصباح اختفت، واختفي معها كل الذين رأيتهم يعملون على خدمتها، ووجدت نفسي أجلس وحيدة في منزل معد بمتطلبات الحياة من مأكل وملبس لشهر كامل.. فزاد توتري. كنت غبية لأنني اعتقدت في أول الأمر أن المرأة تستقبلني في بيتها القابع تحت قرص الشمس، هكذا ببساطة !. تسارعت الأفكار برأسي،

وآثرت انتظارها بالبيت حتى تعود، استرحت لهذه الفكرة حيث إني لا أستطيع أن أوفر لنفسي القدر الكافي من الحماية اللازمة في بلد غريب.. العجوز قالت: "أنت تتمتعين بحمايتي". إنها تحسبني مبتدئة.. إنني بحاجة للحماية منها أولاً، أما الأجهزة الأمنية فأنا دائماً كفيلة بها. ظللت أفكر فيما تخبئه لي الأيام. التعامل بصورة دائمة مع تلك المرأة المتعجرفة أمر شبه مستحيل. ترحمت على البيت الكبير وصاحبه.. أنا بنت كبير الغجر. أنا غجرية بلا عهد ولا تكليف.. أنا بنت سيد الصاوي. أحرقت عشرين علبة سجائر في أسبوع مر كاملاً قبل أن تعود ليندا بصحبة رجل خمسيني ضخم، من ذلك النوع الذي يهتم بما تضفيه عليه ماركة رابطة عنقه من أهمية أمام الآخرين. شعرت بوقع خطوات أكثر من شخص، فرميت السكين ناحية منتصف الهدف المثبت على الحائط، وأخرجت أخرى، أمسكتها من منتصفها واستدرت للخلف بسرعة وأنا أرفع العصابة السوداء عن عيني، لأجدهما أمامي يحدقان في السكاكين التي تجمعت بنصالها في مربع أسود طول ضلعه عشرة سنتيمترات. سألتني ليندا عما أفعل دون أن تتخلى عن ذهولها.. فأجبتها: "أتدرب". فأشارت إلى العصابة التي تركتها معلقة حول رقبتي، وسألت كأنها لا تصدق أن ما رأته كان حقيقة، "وأنت مغمضة العينين؟".. قبل هذا السؤال كنت أظن أنني حصلت على تمرينات مميزة ولكن ليس للدرجة التي تجعلني فريدة من نوعي، أما وقد لاحظت دهشتها فإني تأكدت أنني - كما قال الجنرال يوم سلم تقريره النهائي للهلب – (مُقاتلة استثنائية). "أنا أشعر بالأهداف" هكذا أجبتها بزهو.. فعلق الرجل الذي بصحبتها للمرة الأولى: "مدهش". فانتبهت - هي - لوجوده، وقامت بواجب تقديم كل منا للآخر.. اسمه حاييم ناثان سياسي بارز، ومفوض من قبل حزب الليكود الإسرائيلي ليكون همزة الوصل بين الحزب والغجر في مصر.. هكذا قدمته بوضوح كأنها تقول كلمات لا تستحق قليلاً من المواربة، أو جس النبض على أبسط تقدير. بدا لي أن ليندا - المخيفة - ليست سوى امرأة مسنة تمكن منها جنون العظمة للدرجة التي

توقفت عندها عن إعارة ردود فعل الآخرين أي قدر من الأهمية. لم أشغل بالي بدوافعها وطبيعة شخصيتها أكثر مما يجب، فقط نظرت إلى الرجل وبادرته بابتسامة ترحيب بادرة، لم أكن في ذلك الوقت أملك رفاهية التخمين، لذا لزم عليّ أن أنصت لحديث الرجل بذهن متيقظ، وجاهز لعرض كل كلمة يتفوه بها على ميزان حساس.. لكنه بدا مملاً، ثرثاراً، محباً للمقدمات الطويلة. كثرت أسئلته عن مفهوم (الوطنية) وفقاً لقاموسي الخاص، وعن ما أراه يفيد مصلحة العائلة، وهل أنشغل بمصلحة العائلة بمصر فقط أم أن اهتمامي بالغجر يصل إلى أبعد من ذلك (المستوى الدولي مثلاً)، ثم بدا أكثر مباشرةً في الجزء الذي يعنيه. سألني عن رأيي في اليهود وحقهم في تأسيس دولتهم، وأسئلة أخرى من هذا القبيل جعلتني أشعر بأني ضيفة في برنامج (توك شو) تليفزيوني يعتمد على الإثارة أكثر مما يعتمد على الموضوعية.. بعض إجاباتي كانت حقيقية، وأكثرها كان ذات طابع دبلوماسي يجنبني مشقة خلاف عقائدي غير مفيد لكلينا.. وأظن أنها إجابات أرضته بالقدر الكافي، لأن الابتسامة المصطنعة على شفتيه كانت تزداد اتساعاً مع كل إجابة جديدة.. وأخيراً بدأ التحدث بمقدمة طويلة عن أهمية العملية ومدى خطورتها، الأمر الذي جعل الحزب يرى في تكليف مسز ليندا بالقيام بدور حلقة الوصل خطورة شديدة.. (قصف جبهة) نظرت ناحيتها بعين شامتة لأرى أثر كلماته على ملامحها. وعدت أستمع إليه، لكنه كان قد التقط نظرتي فغير مسار حديثه محاولاً إصلاح خطئه. قال إن هذا لا يعني أنهم لا يثقون بها، كل ما في الأمر أن آمال الحزب وخططه في السنوات القادمة قد تبنى على هذه العملية (ملحوظة: الرجل يتناول أطراف الحديث بمهارة دبلوماسي محنك، وليس ثرثاراً كما بدا لي في أول الأمر).. أتت الخادمة بثلاثة أكواب من عصير البرتقال، تناول كوبه ورشف منه رشفة ثم أعاده إلى الطاولة ببطء واستدرك حديثه الأول.. قال إن النظام الجديد يتشكل في مصر الآن كما هو معروف، وقد استطاعت اسرائيل في السنوات الماضية أن

تكسب كثيراً من الأصدقاء المصريين الذين يتمنون لها مستقبل أفضل، لكن الحزب يرى أن تنفيذ العملية الجديدة أمر لا يفضل فيه الاعتماد على الأصدقاء القدماء. قال إنهم بحاجة لأصدقاء جدد، أصدقاء يشاركونهم الإحساس بذات الأزمة. أزمة الوجود الآمن. فالأصدقاء القدماء يعملون من أجل المال أو بعض التسهيلات الإجرائية (لم أفهم ما يعنيه بمصطلح "التسهيلات الإجرائية" لكنني لم أقاطعه). أشار ناحيتي وقال بلهجة بدت سنيمائية: "أنتم تسعون إلى تحقيق الوجود الآمن، ونحن أيضاً كذلك.. إذاً فنحن متفقون". على ماذا؟ كدت أصرخ بها في وجهه لولا أنه أكمل بوضوح مؤكداً أن مهمتي في الأيام القادمة ستبدأ من داخل مصر، ستدار الأمور مع ثلاثة شباب سكندريين تم انتقائهم بعناية، سيكون عليّ دفعهم لخوض مغامرة صغيرة، بحيث يبدو للإعلام أن الأمر قد تم بصورة عشوائية مما يضفي على الحدث المصداقية المطلوبة. هنا نفد صبري أمام قدرته على صناعة الجمل التشويقية، فسألته: "دفعهم نحو ماذا؟".. مال برأسه إلى الأمام، وتناول كوبه، رشف منه رشفة أخرى ثم وضعه على حافة الطاولة، ووضع ساقاً على الأخرى قبل أن يفجر قنبلته: "دفعهم إلى فتح مقبرة فرعونية". ثم صمت قليلاً ربما ليقرأ وقع كلماته على صفحة وجهي.. ومضى يوضح أن المقبرة موجودة في أرض نائية بمنطقة أبو قير، وهذه الأرض مملوكة لواحد من الشباب الثلاثة، لكنها مقبرة بلا قيمة حقيقية، شبه خاوية.. وقد فتحت بالفعل منذ عدة أيام ووضعت بها آثار عبرانية زعمت الإدارة الإسرائيلية أنها مفقودة، بينما حقيقة الأمر أنه قد تم تخبئتها منذ أسست دولة إسرائيل أملاً في إستغلالها بالصورة التي تخدم مصلحة الدولة.. سألته عن الفائدة التي ستعود عليهم من وراء ذلك.. فبدا عليه الضيق وصمت قليلاً قبل أن يقول: "دولتنا موجودة وفقاً للمراجع العبرانية القديمة من نهر النيل إلى نهر الفرات. جاهدنا كثيراً أمام المجتمع الدولي كي نثبت ذلك.. لكن جميع جهودنا - حتى هذه اللحظة - باءت بالفشل.. ولابد من حجة معقولة تسمح لنا بإعادة فتح الملف مرة أخرى..

المهمة ستتم بنجاح (ليس هناك احتمال آخر) وهذا يعني أنه سيكون من حقنا أن نقف أمام العالم كله لنصرخ بأن الآثار المكتشفه تدل على أن الجذور العبرانية ضاربة في أرض مصر من أقصاها إلى أقصاها.. قد لا نحصل على الدعم المطلوب بشأن حق التواجد الإسرائيلي حتى أطراف الإسكندرية (راقودة القديمة).. لكن يكفينا أن نحفظ ذلك في كتب التاريخ وندرسه لأطفالنا في المدارس ليكبروا وهم يسعون بجد للمطالبة بحقوقهم.. ونتفرغ نحن للمطالبة بحقوقنا وحقوق أجدادنا.. من النيل إلى الفرات".. ثم تنفس الصعداء وأتى على نصف كوبه وهو يرمقني بنظرة متفحصة كأنه يحاول أن ينفذ بها لما يدور بعقلي.. طال الصمت قبل أن أنفجر صاحكة وأنا أقول: "أنتم شياطين". إعتبرها إطراءً لطيفاً، حيث شاركني الضحك.. ثم طلب مني أن نشرب نخب التعاون. فاكتسى وجهي بجدية مفاجأة وسألته عما سيقدمون لنا في المقابل.. أجاب على الفور: "الأمان".. وضعت ساقاً على الأخرى وأطلقت ضحكة ساخرة قبل أن أباغته بصفعة أوجعته كثيراً: "عزيزي حاييم.. من يجاهد كي يوفر لنفسه حق الوجود لا يستطيع أن يعد الآخرين بالأمان".. تبدل لونه كما تتبدل الأشجار وتصل إلى أسوأ حالاتها في الخريف، ثم دارت بيننا المفاوضات لمدة ربع ساعة حتى استطعت أن أحصل على وعد بإحداث اضطرابات لا تهدأ قبل مائة عام في عصب النظام الجديد، اضطرابات عسكرية أو سياسية.. أو كلاهما معاً.. وأدهشه طلبي بينما ابتسمت ليندا للمرة الأولي، ولمحت في عينيها نظرة تقدير موجهة تجاهي.. سألني عن غايتي التي أدركتها ليندا من اللحظة الأولى، فأجبته بجملة واحدة: "نحن هكذا.. ننمو في الخرابات".. بعدما رحل الرجل تبعته القائدة الإنجليزية، ولكنها قبل أن تمضي مختفية من حياتي إلى الأبد صافحتني بحرارة، وقالت جملة واحدة: "يوماً ما ستحرق امرأة مثلك وجه العالم". كان ثناءً مميزاً من السيدة التي تعمدت أن تكون خشنة الطابع معي من الوهلة الأولى، اعتبرته اعتذارًا مقبولاً عما بدر منها رغم علمي بأنها لا تعني

الاعتذار بأي حال من الأحوال.. جهزت حقيبتي استعداداً للرحيل صباح اليوم التالي وفقاً لإشارة متفق عليها، ووصلتني الإشارة على الهاتف الذي سلمني إياه ذلك الشاب الذي استقبلني بالمطار، رسالة نصية موجزة. "لتحديد المقابلة المرجوة مع مدير الشركة نرجو منكم إرسال سيرتكم الذاتية على البريد الإلكتروني الخاص بهيئة الاستعلامات، على أن يكون ذلك في تمام الساعة الثانية بعد ظهر اليوم".. فعلمت أنه يخبرني بأنه قد أتم الحجز على الخطوط الجوية الإنجليزية، وأن الطائرة ستقلع من مطار لندن في الساعة الثانية ظهراً، وأنه يتوجب عليّ أن أكون مستعدة للرحيل قبل ذلك الموعد بالزمن الكافي للتحرك من باث إلى لندن. وحضر بسيارته، استقبلني بابتسامة تختلف عن تلك التي أستقبلني بها في المطار، هذه ابتسامة رجل معجب، قال إنني أبدو رائعة، ورماني بملاحظة تتعلق بملابسي: "كنت أظن أن النساء في مصر عزفن عن ارتداء التنانير القصيرة منذ زمن بعيد".. كدت أسأله إن كان قد زار مصر قبل ذلك، ولكنني أمسكت عن هذا لما فيه من فرصة لفتح حديث مطول عن ثقافات الشعوب، وهذا آخر ما أتمنى أن أشغل نفسي به، واكتفيت بابتسامة عريضة، وكلمات تحمل قدراً لا بأس به من السخرية والاستنكار، قلتها وأنا أضع نفسي على مقعد السيارة المجاور له: "هذا يحدث فقط في مصر". واندفعت السيارة في طريق العودة، تحدث قليلاً عن طبيعة العائلة الغجرية في إنجلترا.. كان الطريق شبه خاوٍ. وكانت عيناه تختلسان النظر لساقيّ من وقت لآخر، ضبطه متلبساً مرتين أو ثلاث مرات فتظاهر بأنه يبحث عن شيء ما تحت قدميه، إلا أنني بادرته متسائلة: "أتشتهيني؟".. انفلتت الكلمة من بين شفتي، واضحة وصريحة لم أستطع أن أتجاوز عنها أو أبدلها، كدت أطالبه بأن ينسى ما قلته قبل أن يوقف السيارة على جانب الطريق وينظر لعيني نظرة عاشق، وقال بصوت عذب: "عندما تعودين إلى بلدك سأعيش إلى آخر يوم في عمري أحدث كل من أعرفهم عن امرأة لم أقابلها في حياتي سوى مرتين، ولكن لها سحرًا

أنثويًا يجعل من يملأ عينيه بنورها يزهد كل نساء الأرض".. فقبلته.. نعم قبلته، ولا أعلم كيف فعلت هذا.. ولا أدري حتى هذه اللحظة ما الذي جعل الأمور تصل بيننا إلى هذا الحد، بل إنها بلغت حداً أعظم من هذا.. جذبته من رابطة عنقه نحو المقعد الخلفي للسيارة في دعوة صريحة لممارسة الجنس، وفعلنا.. ثم ودعته في المطار وأنا أشعر بأني أقبل على الحياة بحيوية شديدة.. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس، فقدت عذريتي في الثانية عشر من عمري على أية حال، لكنها كانت المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع شخص خبير بفنونه. كم بدا رائعاً ذلك الرجل الإنجليزي الذي يعرف الكثير عن الجنس الفموي، ويبدل الأوضاع بحرفية عجان !.. في ذلك الوقت قفز إلى ذهني أكثر رجل في هذا العالم اشتهاني وحرمت نفسي عليه، لو علم أنني مارست الجنس مع رجل لا أعرفه ولا يعرفني على قارعة الطريق قد يقتل نفسه، وابتسمت لتلك الخاطرة.. مولانا الذي طالبني حاييم بإشراكه في العملية الجديدة. ليس هذا ما حدث بالتحديد، كل ما هنالك أنه وضع معايير يتم اختيار شريك التنفيذ على أساسها، ومن سخرية القدر أن جميع المعايير تتوفر في مولانا بصورة مزهلة. (جشع، متحمس، مندفع، أهوج، متواضع الذكاء، تسهل قيادته.. وأشياء أخرى بدت هامشية بالنسبة لي).. حاييم يعلم الآن أن الشخص المطلوب محتجز لدى أحد أكثر الاجهزة الأمنية المصرية تعقيداً.. ويعلم أن بداية التنفيذ قبل تحريره قد تجعلنا نضطر للإعتماد على شخص آخر لا نستطيع أن نمنحه ثقتنا. لن يبدء العمل قبل تحرير مولانا، إذاً فالخطوة الأولى هي محاولة تحريره دون الاعتماد على العائلة. الأوامر صدرت واضحة وصريحة: لا عودة إلى بيوت الغجر. ساعدتني الأوراق المزورة في الحصول على شقة مناسبة، استأجرتها مفروشة بالمهندسين. واتصلت بأسامة السكري، حددت معه مقابلة ظهر اليوم التالي. ولم تمهلني الحياة قليلاً من الوقت مما يساعدني على نيل بعض الراحة والشروع في ترتيب الأوراق وفقاً لمعطيات العهد الجديد.. سمعت

الطرقات على الباب وأنا خارجة من الحمام بعدما أستحممت، وارتفعت الطرقات بصورة مقلقة، ففتحت حقيبتي وأخرجت المسدس، وضعته خلف ظهري دون أن أفكر في تبديل الروب أو تجفيف شعري.. نظرت من العين السحرية ليطالعني وجه كراملة، فتنفست الصعداء.. وفتحت الباب، لا سلام ولا كلام.. فقط وجه عابس وكلمتين لا ثالث لهما، ألقتهما كغريق يعلق آماله على سباح ماهر:

- قبضوا ع الهلب.

هنا - وهنا بالذات - ليس السباح بأفضل حالاً من الغريق. ماذا حدث؟ كيف حدث؟ أمام ضخامة النتيجة لم أشغل نفسي بالتفاصيل. تحول لقائي بأسامة لغاية أخرى، الهدف الأساسي من المقابلة تحول لهدف ثانوي.. سألته: لماذا قُبض على الهلب؟ فرد السؤال بسؤالين: هل حقاً قبضوا عليه؟ ومتى حدث هذا؟!.. لم أسترح لحديثه عن الداخلية بلسان من يتحدث عن أناس لا ينتمي إليهم، شعرت بأنها مراوغة سخيفة.. رغم أنه بدا مندهشاً وكانه - بالفعل - يسمع الخبر للمرة الأولى.. طالبته بالتصرف، فضحك وهو يقول:

- والله أنا لولا الملامة كنت جيت لك ببيجامة البيت.. أنا اتحالت للتقاعد يا مارينا.

- تقاعد !

قلتها مشدوهة، فقال ساخراً:

- أيوه.. أصلهم عاوزين يعملوا إعادة هيكلة للوزارة.. بيقولوا هيلغوا جهاز أمن الدولة خالص.

ثم ضحك بشدة حتى سعل، وأردف:

- والله العظيم دي بقت حاجة مسخرة.

حملة تقليم الأظافر بدأت قبل أوانها المحسوب.. الهلب من بعد الصاوي، ولا أحد يعلم نحو من سيصوبون سهامهم في المرة القادمة؟! نظرة الشماتة واضحة في عينيه وهو يؤكد أن الدنيا تغيرت، "البلد الآن يحكمها المجلس العسكري"

هكذا قال وكأنه يخاطب شخصًا من أهل الكهف، نام سنوات ثم استيقظ ليسأل عن مجريات الأمور.. تتسع ابتسامته وهو يتساءل بطريقة مستفزة:

- ليكي حد فـ الجيش؟

كدت أكسر رأسه من شدة الغيظ.. لكنني آثرت أن أتركه يلتهم طعامه وحده ومضيت إلى الطريق حيث كان سوستة ينتظرني في سيارة Suzuki تتسع لسبعة ركاب. ركبت بجواره وانطلقنا إلى بيت العائلة حيث كانت كراملة تنتظرنا في الجحر.. أما عن حظر دخولي البيت الكبير فقد اتخذت هي قراراً بإلغائه دون الرجوع إلى الصاوي، ودون التفكير في مشاورة الهلب الذي لا أحد يعرف له مكان. "نتصل بغيره.. رجالنا كتر" هكذا قالت وهي تدير عينيها بيني وبين سوستة، حاولت أن أوضح لها الأمر، أكدت أن أغلب رجالنا في الجهاز، ونحن ليست لدينا أزمة مع الرجال.. أزمتنا مع الجهاز نفسه، حيث تجري الآن إجراءات تعطيله على قدم وساق، هكذا تأكدت لي الأمور بعدما أجريت مجموعة من الاتصالات أسفرت كلها عن نفس النتيجة. والحل؟ سؤال طرح نفسه على طاولة الاجتماعات. فاقترحت العمة عطيات أن تسرح نسوانها لإغواء قيادات الداخلية، وإن لم تفلح هذه الطريقة في إنقاذه بقرار استثنائي في ليلة حمراء على الأقل ستفلح في الإتيان بأي معلومات عن طريقة احتجازه.. لم استطع أن أتمالك نفسي فضحكت وابتسمت كراملة على استحياء. عادةً لا تفكر العمة بهذه الطريقة الساذجة، لكن يبدو أن التوتر تمكن منها حتى دفعها إلى التفوه بكلمات عبثية. درت بعيني بين الجالسين، فدفنت كراملة رأسها بين راحتيها وهي تتنهد، ووضع سوستة يده في جيبه، وأخرج أسطوانة مذهبة في حجم إصبعه السبابة، تحتوي على مسحوق أبيض، فرد منه على الطاولة سطراً، وسحبه بأنفه.. فنظرت له بهلع وأنا أتساءل غير مصدقة لما أراه:

- coc؟!.. من إمتى؟؟

هنا رفعت كراملة رأسها ووجهت إليه نظرة قرف، بينما رفع هو رأسه لأعلى

ليستنشق الهواء منتشياً. وتكفلت هي بالإجابة على سؤالي، قالت إنه يفعل ذلك من يوم قبضوا على أبيه.. يبدو أن نفس الشعور الذي وصلني تمكن من الجميع.. كلهم يتوقعون أن حملة تقليم الأظافر ما هي إلا تمهيد لحملة أخرى أشد وأعتى، حملة إبادة !.. ذلك هو التفسير الوحيد الذي لا يبرح الأذهان مخافة أن يلاقي إجماعاً يزيد ما في النفوس من إحباط.. فكرة واحدة سيطرت على العقول فجلت عطيات تتفوه بكلمات بلا معنى، وكراملة تعجز عن الإبداء برأي - مجرد رأي، وسوستة ينصرف إلى عالم الهلاوس، وأنا.. أنا !. أنا وجدت الحل.

- أنا عندي فكرة.. إحنا نرجع للشغل، بس المرادي الكلام مش هيبقى على أكل عيش.. لأ، إحنا هنقضيها أزية ومرازية فـ الخلق.

ثم أخذت أوضح ما أعنيه أمام عقول متفتحة، وآذان صاغية.. إن القبض على الهلب قد يكون بداية النهاية، إذاً فثمة أناس لا نعرفهم يعدون العدة لإبادتنا، (أناس ينتمون إلى النظام القديم، أو يدينون بالولاء للحكام الجدد، أو يطمعون في أن يكونوا هم الأعمدة الصلبة التي يقوم عليها النظام القادم) تفاصيل لا تعنينا في الوقت الحاضر على الأقل.. كل ما يعنينا أننا لابد أن نعلم أن انشغالنا بالهلب قد يضيع علينا فرصة البقاء أحرارًا آمنين.. إذاً، نحن لا نقف على أرض صلبة، كأناس يقفون على جسر يهوى بهم بينما هم يفكرون في إنقاذ شخص يغرق.. الذين وجهوا لنا ضربة القبض على الهلب يعرفون أنه العارف بأمور العائلة من بعد الصاوي، ولا يعرفون أبعد من ذلك.. هذا لأننا في حقيقة الأمر لا نملك ما هو أبعد من ذلك.. إذاً وجب علينا أن نبدو أمامهم قوة لا يستهان بها، سنبعث إليهم برسالة واضحة.. وفحواها (القادم دائماً أسوء).. الفوضى هي سر قوتنا، الآن وجب علينا أن نرتكن على هذا السر ونتخذ منه سلاحاً يجعل عدونا يحترمنا، ويتعامل مع وجودنا على أنه أمر واقع يمكن التضييق عليه، لكن لا يمكن التخلص منه.. علينا أن نبدء العمل من اليوم، وفي كل شوارع مصر.. السرقة للسرقة، والبلطجة للبلطجة، والمخدرات بأسعار زهيدة، وساعة الجنس

بثمن علبة سجائر. عندما يحدث هذا فقط سنعلم أين يتحفظون على الهلب. وانتهى الاجتماع بعد موافقة جماعية. ومرت الأيام ووتيرة العنف تتصاعد في الشوارع إثر زيادة أنتشار الفوضى لإسبوعين على التوالي، فكرة نشر الزعر كانت رائعة لدرجة أنني ظللت أهنيء نفسي عليها في كل يوم وكل ساعة.. وظهر الهلب بالفعل، هاتفنا من مكتب مأمور سجن العقرب واعلمنا بمواعيد الزيارة.. مكالمة من مكتب المأمور، أمر يحمل صبغة رسمية ويستحق التأمل.. الأشخاص المعنيين وصلتهم الرسالة كاملة، وأرسلوا لنا ردهم بلغة عدو يحترم قوة غريمه، وكان مفادها "أوقفوا ما تفعلوه، نعترف بأنكم أقوياء".. فكان لابد أن نتوقف لأكثر من سبب.. أولاً: نحن نعرف مدى قوة الطرف الآخر. ثانياً: نحن لا نملك آلية للتصعيد (بلغة أخرى: فرغ جراب الحاوي). ثالثاً: أنهكت قوة أفرادنا على مدار خمسة عشر يوماً من العمل المتواصل ولابد أن يستريحوا. فاجتمعنا لنتشاور في هذا القرار كما كان الحال في القرار الأول.. ولمعرفتي ببعض المعلومات العسكرية الأولية - التي علمني الجنرال إياها - أقترحت أن يكون الإنسحاب تدريجي، وفقاً لخطة تضمن للجميع عودة آمنة، وأن تبقى بعض العناصر على الأرض تمارس عملها بصورة طبيعية كما كان الحال قبل هوجة يناير.. ذلك تجنباً لما قد يتسبب فيه التراجع المفاجئ من مخاطر جسام. وأخذ الرأي على هذا، فأيدوا القول وأشادوا به. وجاء موعد الزيارة، فذهب لمقابلته سوستة بمصاحبة كراملة التي لم تكن تكف في تلك الأيام عن تعنيفه لإفراطه في تعاطي الكوكايين، وهو ما جعله يغيب أغلب الوقت عن الدنيا بما فيها ومن فيها.. حكم على الهلب بتأبيدة في قضية ملفقة، هكذا عرفت منهما أثر عودتهما من زيارته.. وعملت جاهدة على إيجاد حل لإنقاذه. أقتناصه من بين أنياب الداخلية لن يفلح أبداً، سجن العقرب مؤمَن كثكنة عسكرية، وزاد تأمينه بدعم من القوات المسلحة بعد حادثة فتح السجون، لم يبقى أمامي سوى التشاور مع حلفائنا في الجهاز، التشاور دون طلب العون وهذا أفضل من لا شيء..

وكأن لعنة قدرية تحارب أفكاري وتصر على أن تسبقني - دائماً - بخطوة. اقتحم سوستة غرفتي دون استئذان وكأنه لم ينتبه لوجود الباب، كنت خارجة لتوي من الحمام، وحين دخل كنت أعدل وضع حمالة صدري أمام المرآة. كدت أنهره، لكنه أبلغني بالخبر المشؤوم دون أن ينتبه لعريي. نسيت أنني أقف أمامه بالـ(أندر) والـ(برا)، وهرعت ناحية التلفاز بدلاً من أن أبحث عن شيء أستر به نفسي. "اقتحموا مقرات الجهاز" !.. من هم الذين يتجرأون على فعل ذلك؟! لا أحد يعلم، فوضويون يتحركون باسم ما يسمونها (الثورة). يستبيحون كل شيء، ويتجمهرون بالشوارع كل يوم، مستعدون دائماً لإفساد الأمور.. بعض القنوات تبث (فيديوهات) مسجلة للحدث، بعض المقرات تحترق. أوراق، واسطوانات مدمجة، وأجهزة تصنت، وأشياء أخرى كثيرة تسرق أمام أعين الجميع، ولا أحد يتحرك ليوقف المهزلة، علينا إذاً أن نتحرك نحن لنبحث عما يعنينا. عزوز هو الشخص المناسب في ذلك الوقت، الشخص الذي يمكننا أن نضحي به ونحن مستريحي الضمير. جعلت عشرين شاباً تحت إمرته، وطلبت منه أن يدخل لاظوغلي، ليبحث عن أي أوراق تهم العائلة، هذه لحظة تاريخية لا يجود الزمان بمثلها مرتين، يمكننا أن نستغلها في طمس كل ما يديننا. كما طلبت منه أن يبحث عن مولانا الذي لم يخرجه الاقتحام الأول من سجنه المجهول. كنت واثقة أنه لازال موجوداً بسجون الجهاز. عزوز، ذلك الأعور القصير الذي يعيش على فتات العمليات الخطرة.. ذهب وعاد بعد ساعتين محملاً بملفات، وحقائب مغلقة بأرقام سرية، وأوراق كثيرة يحملها معه أربعة رجال، قال إنه لم يجد الوقت مناسباً للبحث عما يعنينا وسط هذه الكمية من الأوراق فرأي أي حمل كل ما وجده أمامه أفضل من البحث العشوائي. والسجين؟ الزنازين خاوية. ارتحت لتصرفه، اتصلت بسفر أبلغته رسالتي "ابحثوا عن مولانا في كل مقرات أمن الدولة، الصالح منها والخرب، انتهى".. سَفَر، هو عامل الاتصالات المكلف بالتواصل مع كل بيوت العائلة، وهو في الحقيقة شخص لا

يمكن الإستغناء عن دوره مهما بدا تافهاً. البيت الكبير يحتاج لإرسال توجيهاته لبقية البيوت كل يوم ثلاثة أو أربعة مرات، أو مرتين على أقل تقدير.. وهذا عمل قد يستغرق من المُرسِل نصف يومه.. لذلك نعتمد على سفر، فهو يقوم بمهمته بمنتهى الأمانة والإخلاص. هذا عن سفر، أما عني فقد جلست في صباح اليوم التالي أقلب الأوراق التي أحضرها عزوز من مقر لاظوغلي.. أوراق كثيرة بعضها كتب بخط اليد، وأكثرها تمت صياغته بمعرفة برامج الكتابة الإلكترونية. بدت كلها منعدمة القيمة، وتحمل مصطلحات مهنية لا يفهمها سوى أصحابها. ملف واحد فقط كان يساوي وزنه ذهباً.. مطبوع عليه ختم عرضي بالحبر الأحمر "خاص جداً"، وعنوانه "التقرير المفصل لعام ٢٠١٠ / ٢٠١١. أوراق الرائد أسامة محمد السكري". لكتاب التقارير الأمنية مهارة منقطعة النظير. إنهم لا يغفلون أي شيء، بحيث تشعر وأنت تقرأ تقاريرهم أن هؤلاء الناس قادرون على مراقبة من يستهدفونهم من خصاص باب دورة مياه !.. أسامة السكري، ذلك الضابط الذي يعرف عنه الجهاز أدق هفواته، حتى علاقته بالغجر بصفة عامة، وعلاقته بي بصفة خاصة.. أطلعت على مجموعة صور ألتقطها أحدهم من زاوية قريبة أو بعدسة مكبرة، صور يظهر فيها وهو يجالسني في مكان لم نجلس فيه سوى مرة واحدة، كما أنهم لم يغفلوا ذكر المكان الذي قصده بعد أنتهاء المقابلة، ودُيل بيان التحرك بجمل تحريضية توحي بأن كاتبها بينه وبين السكري ثأر قديم "هذا وقد أستقر لدينا بأدلة دامغة لا تقبل التقويل أن الزميل المذكور بينه وبين بعض الأشخاص الخطرين على الأمن العام مصلحة مشتركة وود قديم". هل أحيل السكري للتقاعد بسبب هذا التقرير، أم أنه اختار التقاعد أملاً في ألا يصل التقرير لرؤساءه؟ لقد كنت على حق عندما أعتبرت أن القبض على الهلب خطوة أولى في طريق الإبادة. عودة ثانية إلى الملف، الصفحات الأخيرة، عرض تفصيلي لجريمة من العيال الثقيل تؤكد أن التقرير لم يصل إلى جهة مختصة بعد وإلا كان السكري الأن في السجن:

"... كما نما لعلمنا أن المذكور يستغل وظيفته لتسهيل بعض الأعمال الإجرامية مع جهات أجنبية معادية للوطن، وقد زودتنا الهيئة العامة للاتصالات بتفريغ لمكالمة هاتفية تمت في ٧ يناير عام ٢٠١١، تحدث فيها الرائد أسامة مع شخص فلسطيني يدعى أبو عبد الرحمن، وجرى الاتفاق بينهما على تسهيل الأول لعبور مجموعة من رفاق الأخير عبر الأنفاق الحدودية - غير الشرعية - في موعد محدد سلفاً بينهما، ولم يأتيا على ذكره في المكالمة، على أن يتم ذلك مقابل أجر مجزٍ يتقاضاه الأول من الأخير.. وقد حفظنا الملف الصوتي في شريحة إليكترونية سوداء اللون، 2 GB، ماركة Sandisk".. حدقت في الكلمات غير مصدقة لفحواها، قرأتها عدة مرات، وكل مرة أتفقد الأحرف كأني أقرؤها لأول مرة !.. كأني أحاول أن أصنع منها جملاً جديدة تحمل معاني أكثر جدية، أي عبث هذا؟! كيف تمضي الأمور على هذا النحو؟ لا رقيب، أم هو رقيب معني فقط بكتابة التقارير؟! كيف يستطيع ضابط واحد أن يقوم بعمل على هذا القدر من الخطورة دون مساعدة من أحد؟ أين ذهبت الأجهزة الأمنية الأخرى، خصوصاً تلك التى تعني بالشأن الخارجي أكثر مما تعني بالشأن الداخلي؟ الأمر يبدو غامضاً ومحيراً إلى أقصى درجة. الشريحة المضغوطة / (الفلاشة).. أين (الفلاشة)؟ بحثت عنها بين الأوراق، لكنها لم تكن موجودة. بدونها يبقى هذا الكلام مجرد كلام، لا دليل، لا جريمة. هاتفت عزوز وطلبت منه أن يحضر لغرفتي فوراً، وجاء يسأل عن سبب استدعاءه، ورائحة الحشيش تفوه منه كأنه كان يشارك في طبخه !. سألته إن كان وجد أي (فلاشات).. بدا متردداً في أول الأمر، ثم أخرج من جيبه ثلاثة (فلاشات) كلها سوداء اللون ومن نفس الماركة المدونة في التقرير، إلا أن واحدة فقط كانت مساحتها تتوافق مع المساحة المذكورة. رمقته مندهشة من احتفاظه بهم، فحاول أن يبرر موقفه بعذر يتناسب مع مراهق أذهبت الحاجة عقله:

- أصلي سمعت أن العيال اللي دخلوا المقر قبلينا لقوا فـ مكاتب الظباط قمصان

نوم وكلوتات حريمي، قولت أكيد يعني الفلاشات دي هيبقى عليها أفلام سكس.
كدت أبلغه رأيي في شرف أمه التي لا أعرفها ن لكنني أمسكت عن هذا في اللحظة الأخيرة، واخترت إهانته بطريقة أكثر إيذاءً لكرامته، مسكت هاتفي وعيناي مثبتتان على وجهه، اتصلت بموكا، وهي واحدة من نساء عطيات لا تحفظ سراً، ولا تبقى على خبر دون أن تذيعه، حدثتها وأنا لا أنزل عينيّ عنه، كأن كلامي موجه له هو:
- أيوه يا موكا.. عوزاكي تخلصي شغلك وتعدي ع المعلم عزوز، أصل شكله تعبان ومقضيها فـ الحمام زي العيال بتوع ثانوي.. مش هوصيكي بقى، لازم تريحيه.
وأنهيت المكالمة.. تبدل لونه كأنه يحتضر. ثم انصرف. وأخذت أبحث عن جهاز الـ Lab top الخاص بي.. ونسيت عزوز، وما فعله.. كل اهتمامي في هذه اللحظة كان موجهاً ناحية تلك الشريحة الصغيرة، هل هي التي تضم الشريط الصوتي أم واحدة أخرى لم تصل إليها يد عزوز؟ وضعتها في الجهاز وفتحتها وعيناي معلقة بالشاشة. ملف صوتي واحد. عنوانه لا ينم عن شيء. لكنه هو، هذا الصوت لأسامة السكري دون غيره.. يحدث شخصًا له صوت عميق ومميز كأنه يتكلم في دورة مياه، لغته عربية بلكنة بدوية خالصة، سؤال جديد يضم إلى قائمة الأسئلة التي لا أجد لها إجابة، كيف أقروا بأنه فلسطيني الجنسية، هل إجراء المكالمة من مكان ما في فلسطين يكفي للإقرار بأمر كهذا؟!
الرجل قليل الكلام، لا ينطق إلا بما فيه الإفادة، ويجيد توظيف الآيات القرآنية في كلامه بمهارة يحسد عليها، لا يفوته الاستشهاد بالأحاديث النبوية ليدعم كلامه ويضفي عليه شيئًا من القدسية بحيث تبدو مراجعته وكأنها مراجعة عقائدية لا اختلاف في وجهات النظر، المكالمة في مجملها لم تخرج عما هو مذكور في التقرير. حصلت على ورقة ضغط من العيار الثقيل وهذا رائع. ورقة ضغط ضد رجل متقاعد عن العمل، للوهلة الأولى بدا لي هذا مضحكاً، لكن بعد قليل من التفكير استحسنت الأمر.. هذا الرجل له من العلاقات ما يكفي لتسيير

كثير من الأمور، حتى وإن كان جالساً في بيته. وعلى كل حال إن لم تكن في هذه الأوراق إفادة فإن الاحتفاظ بها لا يضر. وهي سلاح سيأتي - بلا شك - موعد استخدامه. وجاء رد سفر، جرت الاتصالات من جميع البيوت، لا أثر لمولانا في كل مقرات الجهاز !.. ومنذ ذلك اليوم لم تحمل الأيام أحداثًا تستحق الذكر، شهر، شهران، ثلاثة أشهر مرت كاملة وأنا لا أفعل شيئًا في الدنيا سوى التنقل بين حجرات البيت وممارسة بعض التمارين الرياضية الخفيفة، ومشاركة كراملة أحاديث النميمة منذ انتصاف الليل وحتى مطلع الفجر.. كراملة التي أفسد الكوكايين بدن زوجها وغيب عقله. لو كان بعافيته لاستطاع أن يساعدني في البحث عن مولانا. أسامة أقسم على المصحف أنه تركه في زنزانة بلاظوغلي، بينما زنازين لاظوغلي كانت خاوية يوم اقتحمه المتمردون، لا مولانا ولا غيره.. وعاودت رسم الخطط من جديد. وأخذت أنفذ عمليات عشوائية لا طائل من ورائها سوى تحقيق نجاحات بسيطة تشعرني بمجدي القديم، إلا أنها ما كانت تفعل سوى أن تأكل العمر وتهلك الجسد في مسالكها المتعرجة، ولا جدوى، كلما فشلت في البحث عنه كلما زاد توتري، تورطت في مواجهة بالسلاح مع ضابط مباحث، ونجا من الموت بإصابات لا أظنه سيشفى منها بسهولة، لكن المؤسف أنني قتلت من قواته ثلاثة مجندين وأمين شرطة.. أنا لم آسف للموت نفسه، المؤسف في ذلك الحادث أنه جريمة قتل بالخطأ. أكره الخطأ والمصادفة، أحب أن تسير الأمور بمشيئتي دائماً، بيني وبين القدر خصومة أبدية. لذا عرف الاكتئاب طريقه إليّ. ولن أطيل الحديث عن ذلك الشأن.. أغلب النساء يتحدثن عن الاكتئاب بإسهاب ممل، هذه موضة العصر، لا يكون اكتئابًا بالمعنى الحرفي للكلمة، وغالباً ما يكون محاولة لشحذ التدليل من رجال شغلتهم عنهن أمور أخرى. لست من هذا النوع، عقلي محمل بأمور أعظم من هذه التفاهات. لذلك كان اكتئابي حقيقياً.. إحساساً بالعجز أدى لرغبة في الموت، أو لمزيد من الدقة تساوت لدي الرغبة في الموت بالرغبة في

الحياة. ووصلتني الرسالة الأولى على بريدي الإلكتروني في نوفمبر بعدما تحسنت حالتي قليلاً بمعاونة كراملة، لو كانت وصلتني قبل ذلك بشهرين ربما كنت تهورت وأبلغت المرسِل بعدم رغبتي في تنفيذ العملية (مهما كانت المغريات أو العواقب).. قرأتها بتمعن لأستخلص منها المعنى، ونصها بعد ترجمتها من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية: "ابنتي العزيزة. أعتذر عن انشغالي عنك في الأيام الماضية، أتمنى أن تكوني بخير وصحة جيدة.. بلغي سلامي لوالدتك، وأخبريها أني متلهف للقائها في أقرب فرصة، فقد تأخر لقاؤنا وأنا متشوق لأن أعرف منك موعد زيارتها القادمة للندن".. انتهت الرسالة، ويكون نصها وفقاً للشفرة المتفق عليها بيني وبين حاييم أو (بابا) بلغة الحيطة والحذر: "حليفتنا المتميزة. نرجو ألا تكوني قد انشغلتِ عنا في الأيام الماضية، ونتمنى أن تكوني بخير وبصحة جيدة.. نبلغكم بأن موعد بدء تنفيذ العملية الذي جرى الاتفاق عليه بيننا في زيارتك للندن قد تم تجاوزه، أرسلي لنا موعد التنفيذ الذي يناسبك وفقاً لتطور الأوضاع عندكم". يعتقدون أن الاضطرابات السياسية هي السبب في التأخير، إنهم لا يعلمون أن مأساتي تكمن في أمر أتفه من ذلك بكثير !.. عندما سألني حاييم أن أحدد موعد أستطيع أن أبدأ فيه التنفيذ تحت أي ظرف، وقتها كنت أظن أن تحرير مولانا لن يستغرق أكثر من اربعة وعشرون ساعة، فقلت أنني سأحتاج لثلاثة أشهر وأنا أحسب وقت وضع الخطة ومراجعتها مع كراملة وسوستة، ووقت إعداد مولانا بدنياً ونفسياً، سألني إن كنت أستطيع تحريره في هذا الوقت القصير؟ وقتها ابتسمت، وقلت بثقة: "بل أحرره قبل أن أنهي سيجارتي".. صحيح اننا أتفقنا على ألا يبدء العمل قبل تحريره ولكني في الوقت نفسه كنت في منتهى الغرور وأنا أتحدث عن قدراتي. لا أستطيع الآن أن أخبره بفشلي وعجزي، لذلك ارتحت لحديثه عن الاضطرابات السياسية. أرسلت له رداً مختصراً بعدما كتبت أكثر من نص ومسحته: "أبي العزيز. أنا ووالدتي نبلغك سلامنا ومحبتنا، وهي تؤكد لك أنها

متشوقة للقائك مثلما أنت متشوق للقائها، ولكنها لا تستطيع أن تسافر لزيارتك في لندن قبل أن يسترد جدي عافيته". بالفعل لم أجرؤ على مصارحتهم بضآلة مشكلتي، إنهم لن يتخيلوا أن مولانا شخص بلا بديل.. أعطيتهم مبررًا يفهمونه، وأحفظ به ماء وجهي. تسويف محترم يمنحني بضعة أشهر أخرى، وربما عام. الرسالة واضحة، (لن تسافر قبل أن يسترد جدي عافيته) / لن أستطيع بدء العمل قبل انتخاب الرئيس. وتقبلوه عذراً معقولاً. تعبت من البحث فدفعت بنفسي مرة أخرى في عمليات قصيرة ومتتابعة، لا يستفيد منها أحد ولا حتى أنا.. تخريب من أجل التخريب. صرخة من قلب أعيته قلة الحيلة، سهم في صدر امرأة جريحة أوجعها فشلها الأول، فراحت تلوح بيديها المفسدتين في كل مكان تصل إليه عينيها. ذراعة المتفجرات، إشعال الحرائق، القتل المتعمد.. كلها أشياء تثلج القلب الجريح. جربت شرب الحشيش لثاني مرة في حياتي، المرة الأولى كانت بحضرة الصاوي، سعلت بشدة قبل أن أكمل النفس الأول، كنت وقتها في الثامنة عشر من عمري، قاطعته منذ ذلك اليوم راضية بالخمر كتعويض عادل عن تأثيره الجهنمي.. الخمر منطقي وطبيعي، ماء ينساب بسهولة من الفم إلى المعدة، ويسري في الجسم كقشعريرة، ويتسلل إلى الرأس بهدوء حذر. لكنني - في ذلك الوقت - أقبلت على سيجارة حشيش انتزعتها من بين أصابع كراملة التي رمقتني بذهول لم أعرف سببه، ألم تكن هي القائلة إن الحشيش يسبب للمبتدئين بهجة وسعادة غير مبررة؟ تناولته بحثاً عن تلك السعادة التي صارت بعيدة المنال. لكنه لم يزيدني إلا غماً، وذلك سبب آخر يجعلني أزهد في تعاطي هذا الشيء إلى الأبد. الأيام تمر ولا خبر عن مولانا، حتى بدأت الإنتخابات الرئاسية، وحسمت جولتها الأولى لصالح مرشح النظام القديم أمام مرشح الإخوان. قلقي من إقتراب الموعد يتزايد، ولا يضاهيه إلا قلق العائلة من فوز مرشح الإخوان. شخر عزوز وقال إنهم - الإخوان - سيحرمون على الناس عيشتهم، كما سيحولون بيننا وبين سبل الرزق.. النشل حرام، البغاء

حرام، حتى الحشيش حرام. شهقت العمة عطيات وضربت صدرها بيدها، وتساءلت كأنها تحاول أن تكذب ما سمعته أذناها:

- الحشيش حرام؟ صحيح ونبي بيحرموا الحشيش؟!

ثم مصمصت شفتيها وتحسرت على أيام صباها، عندما كانت الدنيا بخيرها. وفاز مرشح الإخوان، يومها شعرت بالقهر، لم أحتاج للصاوي في حياتي مثلما أحتجته في ذلك الوقت، لأرتمي على صدره وأبكي كملكة يضيع ملكها وهي عاجزة عن التفوه بكلمة. لا أعرف بالتحديد الباعث على ذلك الشعور، فالمنطق يقول أننا قد نستطيع توفيق أوضاعنا مع النظام الجديد كما وفقناها من قبل مع النظام القديم، فالعاملين بالأجهزة الأمنية والقائمين على إدارتها لم يتغيروا بتغير رأس النظام، وإن عمدت الإدارة الجديدة لتغييرهم سيستغرق هذا سنوات، وإن حدثت المعجزة وسدت في وجوهنا جميع الأبواب فإننا نملك القوة التي تجعلهم يعيدون فتحها وهم صاغرين مطأطأي الرؤوس. فما الذي أبكاني؟ ليس لدي تفسير مرتب ومقنع. حتى تكلمت كراملة، فوضحت ما لم تطيقه نفسي وعجز عقلي عن استيعابه، قالت بثقة خبيرة:

- اللي هقولهولك ده مش هتسمعيه غير مني.. إحنا مش بنكره الإخوان عشان هما عاوزين يطبقوا شرع الله.. محدش فينا ممكن يكره تطبيق شرع ربنا.. إحنا بنكرههم عشان هما الخطر الحقيقي اللي بيهدد وجودنا.. الإخوان هما الفصيل السياسي الوحيد في العالم اللي نجح في تكوين عيلة دولية، زينا بالظبط، عيلة لا بيربطها دم ولا عصب. إحنا عيلة فوضوية، قايمة على فكرة نشر الفوضى والخوف، وبتقوى بنبذ المجتمعات لأفرادها.. لكن هما، عكسنا تماماً، هما تحقيق النظام ضامن حقيقي لوجودهم على الأرض، وبيستقووا برفضهم لكل غريب عنهم أو مختلف مع أفكارهم.. هما عندهم الجرأة اللي تخليهم يملكوا قرار الرفض. ودا مش مطلوب أنه يحصل.

كراملة تعرف أين يكمن الخطر الحقيقي. ليس الخطر في تغيير رأس النظام،

وليس في قائمة المحرمات التي ذكرها عزوز. الخطر يطفو على السطح عندما تصبح الأمور منظمة بحيث لا يبقى لصناع الفوضى أمثالنا مكان تحت الشمس. وكأنني كنت أطل على المستقبل بعين صائبة حين طلبت من حاييم أن يكون الثمن هو إحداث اضطرابات لا تنتهي. وكأن ليندا كانت تعرف أن عائلة منظمة ستستولي على الدولة حين ربتت على كتفي وقالت جملتها التي سيظل صداها يتردد في رأسي إلى آخر يوم في عمري. "يوماً ما ستحرق امرأة مثلك وجه العالم". وصلتني رسالة جديدة، يطمئن المرسِل على صحة الجد، مما يعني: "ماذا بعد انتخاب الرئيس"؟.. أين مولانا؟ انشقت الأرض وبلعته؟! هل أبدأ البحث عن بديل مناسب؟.. أرسلت لصاحب الرسالة ردًا مقتضبًا، يفيد بأن التنفيذ سيبدأ قريباً.. ذهبت إلى حجرة كراملة، سالتها عن سوستة. كان الاعتماد عليه هو ملاذي الأخير رغم كونه ليس شخصاً مناسباً من وجهة نظر وسيط الليكود وأصحابه، لكن عزمي قد استقر على إسناد المهمة له بعد كثير من التفكير، أنا المنوطة بالتنفيذ على كل حال، وأنا المسؤولة عن نجاح العملية أو فشلها. ومسألة رغبته في العزلة بعد إدمانه الكوكايين يمكن علاجها، فهو يحب العمل ويخلص له، العمل هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يعيد إليه نشاطه القديم، إلا أن هذا الرأس لم يدم طويلاً عندما رأيته جالساً بجوار سريره، شارداً كأنه حاضراً بجسده وعقله على اتصال بعالم آخر. أهذا هو سوستة الذي كان يمشي بين الناس متفاخراً بقوته؟! هذه أول مرة أراه فيها منذ أربعة أو خمسة أشهر لم يغادر فيها غرفته محتفظاً بكمية كبيرة من الكوكايين تكفيه لأكثر من عام، ويأكل ما يقدم إليه دون أن يعلن استياءه من الأصناف أو طريقة الطهي. كلها تفاصيل أخبرتني بها كراملة في جلساتنا الليلية، تفاصيل لم أهتم بأغلبها لأنها كانت تعلنها من باب الاستياء لا الشكوى. تتعامل معه على أنه أمانة حملها لها أبوها قبل سجنه، ولا تتمنى أن يموت زوجها قبل عودة المسجون، يعود الصاوي ويتسلم أمانته ثم يموت بحجرة أخرى، الحجرات الخالية بالبيت كثيرة،

لا تود له أن يأتيه الأجل في حجرتها.. بنتاه صغيرتان ولن يتحملا رؤية حدث كهذا. قالت كلامًا كثيرًا، وكله لم يرسم لي صورة جديدة لسوستة، رجل المهمات الصعبة تبقى صورته محفورة بالأذهان في ساعات تألقه، أما هذا الجسد النحيل المتهالك، هذا الوجه الذي برزت عظامه وغاصت عيناه المفتوحتان بصعوبة والناظرتان إلى اللاشيء، هذا الشخص الغريب لا أعرفه، هذا عجوز في الخامسة والثلاثين من عمره يستسلم لموت لا يأتيه. استدرت وعدت إلى غرفتي دون أن أنطق بكلمة.. لم تبقَ في مسدسي سوى طلقة واحدة، أطلقها قبل أوانها وليكن ما يكون.. قابلت أسامة، عرفت أنه عاد إلى عمله بالجهاز الجديد منذ أسبوعين، هو الأمل الأخير، أسمعته جزءًا من المكالمة، أطرق قليلاً، بدا متماسكاً وساهماً في آن واحد، ثم ابتسم، وسرعان ما تحولت ابتسامته لضحكة مفتعلة، قال وهو يسدد لي نظرة ماكرة:

- أنتي جيباني هنا على ملا وشي عشان كده؟!.. شوفي وأنا اللي كنت فاكرك طلبتي تقابليني عشان تعترفي لي بحبك بعد ما طلقت مراتي.

إنه متوتر.. أنا واثقة من توتره. هذه طريقتهم، يجيدون التظاهر بالتماسك في أصعب الأوقات، لابد أنهم يتدربون على هذا. أواجه ابتسامته بابتسامة أكثر منها رعونة:

- خليك كده قاعد تضيع فـ الوقت لحد ما الواد اللي أنا بعته بنسخة للنيابة يوصل بالسلامة.

تبدلت ملامحه، لاحت العدوانية على قسمات وجهه، وقال بحدة:

- أنتي عايزه مني إيه؟ أنا مش قادر أفهم !.. أنتي فاكره أن التسجيل ده لو وصل للنيابة أنتي هتبقى فـ أمان؟! أنتي بتحلمي. العملية اللي أنتي جايه تبتزيني بيها دي شارك فيها ناس أساميهم بس تودينى وتوديكي ورا الشمس.. الملف دا أتقفل خلاص، وأي محاولة لفتحه مره تانية مش هتبقى في مصلحة حد.. يا بنت الكلب أنتي بتلعبي فـ عداد عمرك وأنتي مش حاسه.

الكلمات خرجت متتابعة، وجهه أحمر، وعروق جبهته كانت بارزة أثناء حديثه. أصابع يمناه المستندة على الطاولة كانت ترتعش بشدة.. انتصرت. بعد عودته للعمل بموقع حساس في جهاز (الأمن الوطني) أستطيع أن أقول أنني في ذلك الوقت كنت أجلس مع أهم صيد حصلت عليه في حياتي. تظاهرت بأني أجري اتصالاً هاتفياً. وضعت هاتفي على أذني وقلت كلمة واحدة: "إرجع". ثم نظرت في عينيه وأنا أضع الهاتف بحقيبة يدي، وأكملت عصره إلى آخر نقطة:

- عداد عمري أنا كفيلة بيه.. خاف أنت بس على عداد عمرك. وافتكر أني قلت لك قبل كده شغلك الوسخ كله أنا أقدر أجيب عليه أدلة متخرش المية، التسجيل اللي أنت سمعت منه جزء عندي بقيته، مع تقرير خارج من قلب الجهاز القديم.. حاجة واخده ختم النسر، يعني شغل على ميه بيضا.

حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة وهو يقول كماسح أحذية متسول يعرض خدماته:

- أخرج لك الصاوي؟

- الصاوي كلها كام شهر ويخرج.. لا أنت تخرج لي الهلب.

- هيحصل.

شككت في نيته فسألته:

- ودي هتعملها أزاي دي؟

- ولونه مش شغلك بس هريحك.. في قايمة بتتعمل اليومين دول بمجموعة من السجناء السياسيين، هتتبعت لرئاسة الجمهورية تعتمد ويفرج عنهم.. لما القايمة تخلص خالص وتجيلنا عشان تاخد الموافقة الأمنية هنبدل اسمه مع اسم حد تاني وخلاص.. عايزه حاجة تاني؟

سألته عن مولانا فتمتم مستغفراً، ثم قال:

- طب والله العظيم ما أعرف مكانه. بس أنا ممكن أساعدك.. هو غالباً مخرجش من لاظوغلي لحد دلوقتي.. المقر فيه خمس سجون سرية، ولا أنا ولا أي حد

اشتغل هناك يعرفها كلها.. بس اللي أنا متأكد منه أن سكة كل سجن ديماً بتبقى مربوطة بمعلومة من تاريخ الجهاز.. وعشان أسهّل عليكي أكتر، في أربع سجون اتفتحوا فـ الهوجة إياها.. العيال النشطاء أصلهم هارسين المقر من كتر ما اتسحلوا فيه.. أكيد أنتي هتلاقيه في السجن الخامس، دا أكبر سجن.. اللي بيدخله مبيطلعش منه غير على قبره. دوري على سكة السجن الخامس، ولو صاحبك له عمر هتلاقيه هناك.

أكره الألغاز.. وأكره الهزيمة أيضاً. البحث جرى هذه المرة على نحو مختلف، فريق جمع المعلومات الخاص بعملياتي القديمة مع كراملة، ذلك الفريق الذي أدمن الراحة قام من رقدته وعاد إلى العمل من جديد. ومرت الأيام والبحث يجري على قدم وساق.. تاريخ الجهاز ونشأته، أبرز من تم اعتقالهم منذ تأسيسه عام ١٩١٣ حتى نهاية عام ٢٠١٠، وأبرز من تولوا قيادته أيضاً.. كم معلومات لا يقدر أعتى رجال التحقيق في العالم على فرزها لاستخلاص كلمة مفيدة قبل عام كامل على الأقل. وبعد الحراسة المشددة التي وضعوها على المقر - بعد اقتحامه - لا أستطيع دخوله بهدف وضع معلومة ما تحت الاختبار. الأمر في غاية التعقيد، الهجوم المسلح له خطة دقيقة وزمن يستحيل تجاوزه، لأن تجاوز الوقت المحدد سيفقدنا قيمة عنصر المفاجأة ويجعلنا عرضة لمواجهة الإمدادات. الاقتحام يجب أن يتم بعد حصولي على معلومة واحدة ترقى إلى درجة اليقين.. أسامة السكري يستطيع أن يقدم مساعدة جديدة، لم أشك لحظة واحدة في صدق ما قاله سلفاً، فهو مجبر على أن يكون صريحاً معي. سألته عن الخريطة الداخلية للمقر. أقسم أنه لا يعرفها.. فالعاملون بالمقر - حسب قوله - لا يتجاوزون خطوط السير المحددة لهم. هذا التجاوز إن تم ترصده عدسات المراقبة ويعرض صاحبه للمساءلة. الأقسام لا ترتبط ببعضها إلا عن طريق حلقات وصل صغيرة، وهذا من ضمن مهام مديري الأقسام. أسماء الغرف والأقسام وقاعات الاجتماعات؟ حدد بعضها، وأعلن جهله بأغلبها. تركته وعدت

لأهم المعلومات التي دونتها بمذكرة خاصة. قاعة الاجتماعات الرئيسية، تلك القاعة - وفقاً لمعلوماتي - ظلت تستخدم كغرفة تعذيب مجهزة بكل الأدوات المطلوبة لتأديب أحدهم، كانت أقدم غرفة تعذيب في مصر، وكانت تحمل اسم "الغرفة 0" ، وهو اسم حديث اكتسبته بعد ثورة يوليو، أما اسمها القديم الذي نشأت عليه فهو "غرفة الحكمدار سليم زكي"، وقد تم تجهيزها لتستخدم كغرفة اجتماعات بعد ما يسمى بـ (ثورة التصحيح) ضمن مجموعة من التعديلات التي أدخلت على الجهاز إثر تغيير اسمه من "المباحث العامة" إلى "مباحث أمن الدولة". والحكمدار سالف الذكر هو أول مدير للجهاز، بل إنه يعد - وفقاً لبعض المصادر - المؤسس الفعلي والقائم على وضع سياسات العمل بالتعاون مع الإنجليز، وقد كان يشغل في ذلك الوقت منصب حكمدار العاصمة، لا يمكن أن يكون هناك مكان أهم من هذا ليستخدم كبوابة عبور لسجن سري، كتب على من يدخله أن يختفي من الدنيا إلى الأبد. مكان يحمل من الأهمية التاريخة وقوائم التعذيب ودرجة التأمين - حيث إنه يخضع لمراقبة القيادات بشكل مباشر، يحمل من تلك الأسباب ما يؤهله ليصبح الاختيار الأول. استشرت كراملة فأيدت رأيي.. بقي الاقتحام، أحتاج إلى مائة رجل مدربين على حمل السلاح، ويتحركون بقيادة شخص عليم بحرب الشوارع. الرجال يسهل توفيرهم، سيجئ أكثرهم من الجنوب. والمشكلة أنني لم أجد من يؤتمن على قيادتهم، لو كنت أستطيع أن أحسب سوستة من الأحياء لأتمنته !.. القصد.. كررت البحث عن قائد عسكري ماهر بين صفوفنا فلم أجد. اقترحت كراملة أن أقودهم بنفسي، ومن يتفرغ للبحث عن مدخل السجن آنذاك؟! أحرقنا السجائر والأيام ونحن نفكر.. الجنرال، ذلك المُسن المتقاعد هو الحل الوحيد. الاعتماد عليه مجازفة، والاعتماد على غيره انتحار.. هو أفضل الحلول المتاحة على كل حال.. بدأنا العمل على تجهيز الرجال، والجنرال يتحرك بينهم ويمدهم بالتوجيهات، يفعل هذا بهمة عالية وكأنه صغر عشرين عاماً. اكتشفت أن الاعتماد عليه لم يكن

أمراً سيئاً كما اعتقدت في البداية. تحركنا ناحية لاظوغلي في عربات نقل مغطاة بصناديق تحمل شعار شركة (شيبسي). الرجال يحملون البنادق، وأنا أكتفي بمسدسين.. وفي اللحظة المناسبة فتحت أبواب السيارات، وتدافعنا ناحية هدفنا تسبقنا أصوات رصاصاتنا. تركتهم مشتبكين مع قوة التأمين وتسللت لداخل المبني الخرب، وركضت ناحية قاعة الاجتماعات، اقتحمتها، لم أكن محاطة إلا بفرقة صغيرة مكونة من عشرة أفراد، أطلق عليها الجنرال اسم "سرية التأمين الداخلي". أبرز ما في قاعة الاجتماعات طاولة مستطيلة مطوقة باثني عشر مقعدًا، وصورتين متجاورتين على الحائط المواجه للباب، على اليمين صورة الرئيس مبارك، وعلى اليسار صورة للحكمدار سليم زكي، عرفته من الوهلة الأولى، فقد شاهدة له أكثر من صورة على (الإنترنت). رجل منتفخ الأوداج، بشارب كث، وعينين جاحظتين، ويرتدي طربوشاً يبدو عاجزاً عن الإلمام باستدارة رأسه. رفعت الصورة من مكانها، الحائط يبدو طبيعيا لكن برواز الصورة لم يترك على الحائط أثرًا ترابيًا مثل ذلك الأثر المطبوع حول الصورة الأولى رغم الفارق الزمني الواضح بينهما، وهذا ما جعلني واثقة من أن مفتاح السجن مرتبط بشكل أو بآخر بصورة الحكمدار.. صوت طلقات النار في الخارج يتصاعد، أحدهم يحثني على الإسراع.. المسمار !.. مرسوم على شكل حرف L رأسه مرتفع لأعلى. حركته فتحرك بسهولة.. أدرت رأسه لأسفل فانفتح الحائط إلى اليمين كاشفاً عن سلم طويل يؤدي لدهليز ضيق ينحرف عند آخره لليسار، وعلى الجانبين زنازين مغلقة بمزاليج وأقفال صدئة، رن هاتفي فأجبته، صوت الجنرال يطالبني بالإسراع، سمعته ولم يسمعني، لا شبكة، ولا صوت يُسمع غير صوت الرصاص في الخارج. الرجال يعرفون عملهم، ينفذونه بغير توجيه. رصاص بنادقهم يندفع في جانبي الدهليز فيصيب الأقفال والمزاليج، لتنفتح الأبواب وتفوح منها روائح عطنة، مساجين ينظرون إليها في بلاهة وكأنهم لا يصدقون أن وجودنا حقيقي، تجاهلتهم، وتجاهلت نظراتهم

الغارقة في العته، الأقفال تفتح، من أراد الحرية فليغتنم الفرصة.. ثم رأيته من خلف نافذة صغيرة.. تبدلت هيئته، بلحيته الطويلة وشعره المجعد وملابسه الرثة. فى الجانب الآخر من الزنزانة عدد من الشباب يبدو عليهم - مقارنة بما آل إليه حاله - أنهم حديثو العهد بالزنزانة، لم أشغل بالي بهم، فقط أطلقت على القفل طلقة، وفتحت المزلاج ثم دفعت الباب بقدمي واستنهضته، فنهض.. وخرجنا بصعوبة، ولكننا أمنا شر رصاصات الأمن بفضل خطة الحماية المحكمة التي وضعها الجنرال.. ولذلك احتفلت به العائلة احتفالاً من نوع خاص.. الجنرال، قائد أعظم هجوم عسكري قام به الغجر في القرن الحادي والعشرين، ليس لأنه هاجم الأمن بمائة رجل يفتقدون المهارات العسكرية فقط، ولكن لأن هذا حدث في عرين الأسد. منذ ذلك اليوم لقب الجنرال بـ"قائد موقعة لاظوغلي". أما مولانا فقد تكفلت بإخضاعه لبعض تمرينات اللياقة البدنية بعدما تيبس جسده، وضعفت أعصابه، وزاد وزنه بشكل غريب. قص شعره، وطلبت منه أن يبقى لحيته بمقدار قبضة يد. شهور طويلة مضت وأنا أحاول الوصول إليه وأرسم خطة التنفيذ، وجاء تسجيل مكالمة السكري، بطريقة كلام المدعو أبي عبد الرحمن (المتحدث على الطرف الآخر)، جاء هذا الصوت ليكون ملهمي ويتمم في رأسي صورة مولانا كما يجب أن يكون. دقت ساعة العمل، الطريق إلى الإسكندرية أصبح ضرورة بعد مداهمة بيوت العائلة، أحذية الضباط دنست البيت الكبير، قبضوا على الشباب وحطموا الأثاث فلم تسلم الأريكة الأثرية (عرش الكبير/ة). انتهكوا حرمة خلوة الصاوي، واغتصبوا حريم عطيات. كان هذا أكثر الأعمال فظاعة.. فمعظمهن نساء بلا أهل ولا سند، معلقات في رقابنا لنتكفل بحمايتهن حتى يصلن سالمات آمنات لبيوت أزواجهن الذين سيجود بهم المستقبل. هذا الحدث فقط كان كفيلاً بنشر الحزن في البيوت كأننا في حالة حداد. أما الجنرال، فمصيره كان مشرفاً، قتلوه وهو نائم على سريره.. مزقوا جسده بالرصاص، مات بعدما توجت حياته بأعظم عملية عسكرية عرفتها العائلة في

العصر الحديث، عاش بطلاً ومات غدراً. ستبقى سيرته العطرة ليتعلم منها الصغار، وتضرب بأخلاقه الحسنة الأمثال، رجل خلوق، وفارس شجاع.. مُعلمي وأستاذي الذي أورثني خبرته، فأقسمت أن أثأر له.. سأجعلهم يندمون. الطريق إلى الإسكندرية خطوة أولى على طريق الانتقام الطويل.

- ميـــن؟.. مين اللي بيخبط؟

سألت، فأجبتها وأنا أعدل وضع النقاب على وجهي:

- أفتحي يا ولية.. مفيش حد غريب.

هي أم أمينة، عجوز بدينة خاصمت الأنوثة منذ أمد بعيد. لكن ملامحها تحمل طيبة الزمن الماضي وأصالته. تحتضنني كأم فرحة بعودة بنتها رغم أننا لم نتقابل قبل هذا اليوم إلا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، أتفهم موقفها، منزلتي في قلب الصاوي تصنع لي عرشاً في قلبها.. لست مثل كراملة.. كراملة جاءت من رحم امرأة نازعتها حق معاشرته، أما أنا.. أنا بنت الطبيعة، ابنته بالتبني.

- جايالنا واقعة ولا الهوا رماكي؟

- الهوا هوى الحبايب يا ولية.. فينه الصاوي؟

- تعالي يا مارينا.

هو صوته، هي حنجرته الصلبة التي لا تزيدها أنفاس المعسل إلا قوة وخشونة. هو الصاوي، رجل لا يجود الزمان بمثله مرتين. تصافحنا، واحتضنني للحظات وددت لو أن الزمن توقف عندها وتلاشى العالم بكل تفاصيله من حولنا، سألني عن الحال فاستحالت السعادة غماً، ماذا أقول.. تذكرت الأيام الماضية، وصلت إلى الإسكندرية، أعدت العدة لكل شيء، استأجرت جراج وثلاثة شقق بأماكن متفرقة، اشتريت سيارات تصلح لجميع الأغراض، واعتمدت على السكري لتجهيز كل ما يلزمني من معلومات عن الثلاثة شباب المستهدفين، ووجدت فيهم صيدًا يسيرًا لم تنتقيهم إلا عين خبير. وبدأت التنفيذ من النقطة المتفق عليها سلفاً. قابلت جو، وهو رجل (الليكود) بالإسكندرية، جرى تكليفه من قِبل الحزب

ليكون حلقة الوصل بيني وبينهم أثناء تنفيذ العملية، يطّلع على الخطة ويخبرهم بالتطورات، رجل أربعيني من النوع الذي يبيع أباه لأجل المال، وأنا عادةً أحب التعامل مع هؤلاء الأشخاص لأنهم لا يغدرون إلا لسبب منطقي، يمكنني دائماً تفهم دوافعهم. سألني عن أول خطواتي، فأخبرته بأنني أرسلت لحسن رسالة زائفة، عن آثار اكتشفت بمقبرة فرعونية، وهي رسالة محفوظة ومكررة، ابتدع فكرتها أحد أفراد العائلة في سوهاج، تُرسل لهاتف الشخص المستهدف وكأنها أرسلت بالخطأ، يتصل فيتم الاعتذار له عن خطأ الإرسال، يسيل لعابه ويطلب رؤية الآثار ويعد محدثه بمساعدته على تصريفها، هنا يتيقن المُرسل من أن فريسته التقطت الطُعم، فيحدد له مكان المقابلة بسوهاج، بأحد ديار العائلة أو بالجبل بشرط أن يُحضر الضيف معه عربوناً لربط الكلام وإظهار الجدية، فيعود الواحد من هؤلاء إلى بلده - إن عاد - وهو خاوي اليدين، يتنازل صاغراً عن نقوده وسيارته وهاتفه المحمول وكل ما معه من أشياء قد يكون لها ثمن. هذه الرسالة كانت تؤتي ثمارها في الماضي، أما في هذا الوقت بعدما أنتشرت فلم يعد يعبأ بها الكثيرون، سألني جو عن سبب إرسالها رغم علمي بأنها قد لا تفلح، فأجبته بأن ما وصلني عن خالد أنه متهور (وهو واحد من الشباب، وصاحب الأرض) بلغني أنه مندفع، ويتحرك بخطوات غير محسوبة. فأردت التأكد من صحة ذلك، وإن كان ما بلغني صحيحاً فسيتصل خالد على الفور إذا ما أخبره حسن بأمر الرسالة، فتساءل، لماذا إذاً لم أبعث برسالتي لخالد بشكل مباشر؟ هذه الرسالة لجس النبض لا أكثر، إحتمال فشلها أكبر من إحتمال نجاحها، إن الثلاثة تحت مراقبتي منذ وصلت إلى الإسكندرية، ولم يحدث في حياتهم أمر يمكن من خلاله معرفة طريقة تفكير كل منهم، إن نجحت أصبحت حدث فعال، وإن فشلت بقيت مجرد حدث، ولكن حدث مفيد يمكن على ضوئه التحرك بخطوة أخرى أكثر جدية. وأثناء ما كنت أسوق إليه المبررات وصلتني رسالة نصية من حرفين: "تم". أرسلها مولانا، وهذا يعني أن خالد أتصل

بالمُرسِل، ووعده أن يحضر في الموعد والمكان المحددين. فابتسمت وقلت لجو أنهم وقعوا بأسرع مما توقعت، فارتسمت على شفتيه ابتسامة مصطنعة وصفق بطريقة إستعراضية وكأنه يحيي ممثلة مسرحية على أداء مفتعل، ثم أشار إلى النادل وطلب زجاجة شمبانيا. في اليوم التالي طلبت من وليد إعداد كل ما يلزم الخطوة الثانية من ملابس وحُلي وأسلحة وما شابه.. وليد هو خادمي، وضعه الصاوي في خدمتي إذا أردت أصطحابه في أي مكان خارج البيت الكبير، فالعُرف ببيت العائلة لا يسمح لأحد غير الكبير باستعمال الخدم الخاص. وليد الذي عينه الصاوي في نفس وقت تعيين سكر ليقوم على خدمة مولانا وحراسته. واستبقيت وليد رغم قلة إعتمادي عليه، واستبدل مولانا خادمه بعد خروجه من السجن. حاولت أن أثنيه عن قراره، لكنه كان كالثور الهائج لا يمنح ثقته لأحد من كل الذين تعامل معهم قبل سجنه. وخصوصاً الغجر، كراهيته للغجر كانت تتزايد مع مرور الأيام، يعتقد أنهم سلموه للجهاز، أقول: "أسامة سجنك، ما علاقة الغجر بهذا؟" يقول أن أسامة كلب يخدم مصلحته - وهو محق في هذا - فمن باعه للسكري؟ اسأله عما عساه يفعل لو عرف السجين سجانه؟.. "هفشخه" كلمة واحدة قالها بقوة جعلت جسدي يرتعد خوفاً، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها كل هذا القدر من القسوة يرتسم على قسمات وجهه. مولانا لم يعد ذلك الشخص الذي يمكن قيادته بسهولة، السجن غيره.. مازلت قادرة على احتناكه ولكني بت أبزل مجهوداً مضاعفاً في سبيل ذلك. وفي الساعة المعلومة تحركنا إلى الفيوم - مكان المقابلة طبقاً لمكالمة المُرسِل. جهزت الرجال على الطريق المؤدي إلى القرية المذكورة، أسميتها "أرض المختار" وصنعت لها حكاية خاصة حفظها سائق سيارة أجرة غجري يعمل في الموقف الأرياف، وكان موكلاً من قِبل كراملة باصطياد الشباب ليقلهم إلى الأرض ويقص عليهم الحكاية، واستقبل هاتفي رنة قصيرة من رقم السائق، هي إشارة وصولهم المتفق عليها، أكملت ارتداء ملابسي، عباءة سوداء من الطراز

البدوي ونقاب، ثم أمسكت بالكلاب الأربعة التي أحضرها وليد، وهي مدربة على أداء مهمة قصيرة. ماكينات الدخان على جانبي الطريق المؤدي إلى البلدة، مخبأة وسط عيدان القصب، وتؤدي دورها في حجب الرؤية، فتسلل الزعر إلى قلوبهم قبل أوانه، رفعت الكمامات عن أفواه الكلاب فعلى نباحها ليوطن الرعب في أعماق القلوب، حين يستوطن الرعب بالقلوب يعجز العقل عن التفكير، أنا أجيد صناعة الخوف. هذه هي حرفتي.. وانقشعت سحب الدخان فأخذت أعينهم تتحرك بيني وبين الكلاب النابحة كبندول ساعة عتيقة ، السلاسل المتصلة بأطواق تتوق رقابهم تكاد تنفلت من يدي وهم يندفعون بأجسامهم تجاه الوافدين، كلاب متحمسة، سألني أحد الشباب عن هويتي، بلسان بدوي بدلت سؤاله بآخر:

مين اللي يسأل التاني؟ الغريب ولا صاحب الدار؟!

لم يكذبوا، ولم تسعفهم عقولهم المذعورة بمراوغة مناسبة، قالوا إنهم جاءوا لمقابلة محمد راشد، وهو اسم وهمي لعمدة البلدة، أخبرهم إياه محدثهم الذي حدد لهم المكان والموعد، رفضت عبورهم، كنت أحفظ الكلمات التي ألقيها عن ظهر قلب، اتهمتهم بمحاولة سرقة الآثار واصفة إياها بأنها (إرث جدودنا). قال حسن قولاً لم يرضني، فدفعت أحد الكلاب نحوه ليجثم على صدره، الكلب مدرب على ذلك، ينبح ولا يقرب الجسد بأنيابه أبداً، هو لصناعة الذعر لا الأذى، تحدث خالد بكلمات لم تصل لمسامعي بسبب النباح الذي لم يتوقف، فأطلقت الكلب الثاني عليه على سبيل الاحتياط. طلب ياسر أن أتركهم يرحلون بسلام وهو يرجع للخلف بخطوات حذرة، فرفضت، كانت جملة الرفض هي الإشارة التي تلقاها وليد الذي كان يراقب الحدث من بين أعواد القصب، فأرسل من هاتفه رسالة لمولانا، رسالة من كلمة واحدة "تحرك". هنا أطلق الكلب الثالث ليطرح ثالثهما أرضاً ويجثم على صدره مثلما حدث مع رفيقيه، واحتفظت بسلسلة الكلب الرابع بين يدي لتفادي حدوث أي مفاجأة خارج الحدث المرسوم بدقة، وأخذت الكلاب تمارس عملها بأنياب تتفنن في تمزيق الملابس ولا تذهب

إلى ما هو أبعد من ذلك، حتى تمزقت كل ملابسهم وبقيت عليهم ملابسهم الداخلية مهترأة تعرى أكثر مما تستر. فراحوا يركضون باتجاه الطريق العام، ووصلت رسالة مولانا، ونصها "تم".. مما يعني أنه قد نجح في التقاطهم دون أن يثير شكوكهم. وذهبت لأقضي ليلتي بعشة في وسط المزارع جهزت خصيصاً لاستقبالي، بدلت ملابسي، وطلبت من وليد أن يعيد الكلاب لصاحبها ويدفع له بقية المبلغ المتفق عليه، وفتحت الـ laptop، جهاز التصنت يعمل بنجاح، أسمع كل ما يدور بينهم من حديث، مولانا يؤدي دور "المختار" ليس كما يتناسب مع شيخ بدوي ضرير صاحب كرامات، بل هو يتحدث وكأنه ممثل درجة عاشرة في مسلسل ديني قديم. إلا أنه مازال أمامنا وقت لإصلاح الأمور، فخوفهم في ذلك اليوم كان كفيل بهم، أما لو حدث هذا في وقت آخر فقد تفسد الخطة كلها. لا يمكنني أن أنكر أنه يحفظ دوره بمنتهى الدقة، يعتمد على الآيات القرآنية بنطق سليم وهذا مهم، فحسن شاعر، والشعراء أهل لغة، تلتقط آذانهم أقل هفوة. خادمه يشاركه الحديث، قسما الكلام بينهما. هذا بعيد عما قلته.. من يكون هذا الفتى العشريني ليشارك في أمر خطر كهذا؟! مولانا يتصرف على هواه، يضيف إلى الحديث كلمات غير متفق عليها.. لابد أن أعيد الأمور إلى نصابها. في ساعة الشروق هاتفني جو، أخبرته بأن كل شيء على ما يرام. لا يعجبني تطفله، يضاقني أضطلاعه على التفاصيل. قضيت عمري أنفذ أصعب المهمات دون رقيب ولا ناصح، فكيف أذعن لرقابة غريب؟! كظمت غيظي وتصبرت بغايتي، المهمة لابد أن تتم كاملة، نحن في أمس الحاجة لإحداث إضطرابات في عصب النظام مثلما هم يحتاجوننا لإنجاح عملهم. الصفقة عادلة، وتستحق أن أقدم في سبيلها بعض التضحية. عندما وصلت إلى الشقة وجدت مولانا بانتظاري. واقتنصت من اليوم قدرا قليلا من النوم بعدما أعطيته توجيهاتي المتعلقة بأدائه، وعندما استيقظت بعد منتصف الليل بساعتين تقريباً لم أجد مولانا بالشقة !. فتحت جهاز الـ Computer وقمت بعمل Set up

لبرنامج المراقبة، ثم أجريت عليه بعض التعديلات بحيث استطعت أن أخترق نظام التشغيل الخاص بأجهزة المراقبة المعلقة في محل ياسر، والتي يعتمد عليها لتكشف له - بالصوت والصورة - كل ما يحدث بالمكان أثناء تغيبه عنه. رأيتهم مجتمعين، وسمعت حسن يقول لهم أن ما تعرضوا له بالأمس كان مبنيًا على المفاجأة والصدفة والإبهار، قال إن ثمة شيئًا يدبر من جهة ما وأن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد، تناقشوا، تساءلوا، اختلفوا معه، واتفقوا على انتظار ما ستجود به الأيام.. حسن، أذكاهم وأخطرهم كما أكد المراقبون. عاد مولانا، نظر إلى الشاشة بتمعن، ثم تساءل عن نتائج الأمس، فاستعرضت أمامه ثلاثة صور طولية لوجوههم، وبدأت أوضح له انطباعي الأول. ياسر، حاسم ومرتب، أفكاره تخضع لمعايير التحليل المنطقي، لا يرحب بالمفاجآت لأنها تربكه، ورغم ذلك فهو عادةً يصدق ما يود أن يصدقه لا ما يتوجب عليه تصديقه. خالد، عشوائي وأهوج، غالباً يقصد شيئًا ويتفوه بشيء آخر، شخصية كاريكاتيرية في أغلب الأحيان، لا يؤخذ كلامه على محمل الجد إلا قليلاً. ثم أشرت لوجه حسن وأنا أقول أن المشكلة الحقيقية تكمن هنا.. قرب وجهه من الشاشة (ضعف نظره في سنوات الحبس).. صدرت عن الـ Computer ذبذبات وارتعشت الصورة على الشاشة، فضربته في كتفه لأبعده. انتهى الصوت وعادت الصورة لحالتها الأولى.. هنا دفعته للخلف، بضعة خطوات ووقع على السرير، فجلست على فخذيه وأخذت أتفحص نصفه العلوي بيديّ. أبدى ملاحظة جنسية، فلطمته على وجهه لطمة خفيفة تؤدبه ولا توجعه، ثم أخرجت من قميصه (دبوسًا) غريب اللون، قربته من الجهاز فأحدث الذبذبات مرة أخرى، ثم أبعدته فخفت.. وكررت هذا عدة مرات، والنتيجة واحدة. تساءل:

- إيه ده؟

فصرخت به:

- أنت لسه بتسأل؟!.. ده جهاز تتبع يا حيوان.

ثم أمرته أن يضع جميع أغراضنا في الحقائب ويتخلص من أي أثر لنا في المكان، الملابس، أدوات التنكر، مستحضرات التجميل، الأسلحة الخفيفة والثقيلة، كل شيء.. وركضت على السلم لأنتظره بالسيارة، فلحق بي وهو يحمل الحقائب، وضعها في المقعد الخلفي ثم جلس إلى عجلة القيادة، وانطلقت السيارة بينما صوت انفجار البناية خلفنا يزيح عن الليل سكونه، وحكي كل ما حدث، قال إنه عندما أستيقظ من النوم تلقى اتصالاً هاتفياً من رجل خليجي طلب منه فرش حشيش بأي سعر، أغراه هذا وفكر بأنه يستطيع تدبير مصاريفنا الشخصية من مشوار لن يكلفه أكثر من ساعتين، وتصرف في المطلوب من تاجر بكرموز يعرفه منذ زمن بعيد، ثم قابل الرجل الخليجي الذي كان يصطحب شخص آخر يحمل نفس الجنسية، ويرافقهما غلام لم ينطق بكلمة. صافحه الرجلان بحرارة وهو يغادرهم، حرارة أصابته بالدهشة، لكنه لم يتوقع أنه كان يعلقان شيئاً بملابسه !.. ثلاثة أشخاص، تاجر في كرموز. طوب الأرض عرف بوجودنا في الإسكندرية، هاتفوه؟ لم يسأل نفسه عن كيفية وصولهم لرقم هاتفه، ربما وجه للمتصل السؤال مباشرة، فأقنعه بحجة تافهة. ومن أجل ماذا؟! إنه يظن أننا نسعى لفتح مقبرة فرعونية سنجني من ورائها ملايين الدولارات، ورغم هذا يعرض نفسه والعملية كلها للخطر من أجل مبلغ تافه، ما هذا الرجل؟ أهذا هو من ضيعت شهور في البحث عنه؟! أعلم أنه غبي، ولكن ليس إلى هذا الحد، يبدو أن السجن افسد ما كان متبقياً من عقله. الخطوة التالية، لقنته ما يتوجب عليه فعله للمرة العاشرة تقريباً. حذرته من أخطاء اليوم الماضي للمرة الألف تقريباً. لقد تركهم في صباح اليوم الماضي عند محل ياسر، ووعدهم بأن يعود وقت صلاة الفجر ليرد إليهم اعتبارهم (حق عرب). هذا بعدما ألصق ما حدث لهم بنفسه وهو يخبرهم بأنني ابنته. ليس عندي تحفظ كبير على معظم ما قيل، فأغلبه متفق عليه، مشكلتي مع الأداء الكلاسيكي المُفتعل. زيارة الفجر هدفها زرع الطمأنينة في نفوسهم، لابد أن يرونه الرجل

الفاضل الذي لا يرضى بالحال المائل، ثم يبدأ هدفنا الثاني.. التحدث عن أرض خالد التي ورثها عن والده، والتي هي غايتنا المنشودة. إلا أن صوت حسن كان يصلني عن طريق السماعة اللاسلكية التي لم تبرح موضعها على أذني منذ خرجت من المنزل وحتى تلك اللحظة، إصراره على أن ثمة مؤامرة تحاك ضدهم، وتيقنه من أن مولانا / المختار القادم ساعة الفجر سيحمل لهم ملامح المؤامرة، ذلك الإصرار جعلني أجري تعديلا مناسباً على الخطة، طلبت من مولانا أن يعطيهم المال ويرحل دون أن يحدثهم عن الأرض. وصلنا إلى الجراج بالمندرة، بدل ملابسه، وزود لحيته بخطوط الشيب الزائفة، ثم عالج النتوءات في بشرته.. وتناول حقيبة النقود ونظارة شمسية ألقى بهما على المقعد الخلفي لسيارته. ثم ذهب ليحضر خادمه الذي ينتظره على كورنيش البحر، ليتحركا معاً إلى محل ياسر. ونقلت مقتنياتنا إلى سيارة مرسيدس حمراء حديثة الصنع، ثم أنطلقت بها في طريقي إلى الشقة الثانية بكوم الدكة، وأثناء ما كنت أقطع طريق البحر هاتفني الشاب المكلف بمراقبة مولانا، قال إنه يتتبع الخليجيان وسيوافني بالتفاصيل. ثم وصل لمسامعي صوت مولانا بنبرة أكثر تماسكاً من المرة الأولى. وصلت إلى الشقة. فتحت الـ Lap وفعلت برنامج المراقبة. مولانا يناولهم حقيبة النقود، ويدير ظهره لهم استعداداً للخروج من المحل، فيستوقفه خالد ويسأله عن المقبرة بعدما تمت الإشارة لها بكلمات عابرة في لقاءهم الأول. انتفضت محدقة في الشاشة لأستوضح رد فعل مولانا، قربت الصورة من وجهه، ملامحه جامدة، يتكلم كأن الأمر لا يعنيه كثيراً، ياسر يستزيده، فيزيدهم بحديث عن اللعنة التي تصيب كل جاهل يقلق راحة الفراعين.. مولانا يكفر عن جرائمه، يتألق بأداء لم يأت بمثله من قبل. خالد يسأله المساعدة، فيقبل على مضض، ثم يحدد معهم مقابلة في اليوم التالي بعد صلاة الجمعة بمسجد المرسي أبو العباس. ولما عاد هنأته على أدائه، وأشدت بحسن تصرفه. ثم أخذت ألقنه كل ما يتوجب عليه قوله في المرحلة الجديدة، بدا

مستاءً من توجيهاتي، (ربما أخطأت حين أثنيت على أدائه أكثر مما ينبغي). في اليوم التالي ارتدى ملابسه وخرج لملاقاتهم بعدما علقت بأذنه سماعة Bluetooth تسلمتها من جو، وهي سماعة صغيرة للغاية، ومزودة بـ Microphone ينقل الصوت بدقة إلى برنامج التشغيل الخاص به والمثبت على الـ Laptop الخاص بي. فعلت البرنامج وقمت بإدخال صوت حسن على خاصية الإنذار، بحيث يصدر عنه صفير متقطع حين ينطق صاحب الصوت بجملته الأولى، وحرقت نصف علبة سجائر قبل أن يرن هاتفي معلناً استقباله مكالمة واردة من جو.. سأل عن التطورات، فأخبرته بأن مولانا في الطريق لمقابلتهم وذلك لمعاينة الأرض والإتفاق على حفرها، ثم أنهيت المكالمة بسرعة وأنا أبصق على الهاتف. ثم استقبلت المكالمة الثانية من أحمد المكلف بمراقبة مولانا، والذي تطوع في الليلة الماضية لاقتفاء أثر الرجلين الخليجيين، قال إنهما يقيمان بفندق على البحر، وأنه استطاع أن يحصل على رقم هاتف أحدهما، وأطلق البرنامج صفيره، فقاطعت أحمد، وطلبت منه أن يتصل بكراملة ويخبرها بكل ما لديه من معلومات، ثم أغلقت الهاتف، ووضعت السماعة على أذني.. يتحدثون عن الأرض، إذاً لم يقابلهم حسن عند المسجد، هذا الشخص محير، آخر من يتحرك، آخر من يتكلم، وأول من يفتش عن مواطن الخلل !

- بس الكلام ده ضد كل قواعد المنطق، اسكندرية اتبنت سنة ٣٣٢ قبل الميلاد.. ودا بعد انتهاء عصر الأسر بسنين، يعني ببساطة، مفيش حاجة اسمها مقبرة م الأسرة الـ١٧ في إسكندرية.

هكذا يعلن احتجاجه بسند تاريخي لا يقبل الجدال، مولانا لا يجيب، حسن قادر على توريطه بسهولة. (Test mike)، أقول:

- الناحية دي كان أسمها راقودة، موجودة من قبل ما حد يفكر يكتب التاريخ.

فيعيد صياغة الكلمات بلهجته المصطنعة، ويصمت حسن، فلا أطمئن لصمته. ويطول الصمت، فأعلم أن مولانا يبحث عن مكان المقبرة، تتسارع دقات قلبي،

هل يجد العلامة؟ مثلث صغير الحجم، رسم على الأرض بأعواد ثقاب تبدو ملقاة بصورة عشوائية ولا يدركه إلا متفحص عالم بوجوده، مهمته أن يفسد ترتيب الأعواد بعصاته، ويكتب أسم شخص لا وجود له، أقنعته أنه اسم جني، فاقتنع !.. والغريب أنه لم يسأل عن سر معرفتي بمكان المقبرة، ولم يستفسر عن صاحب الثقاب !.. أفقت على صوته يؤكد أنه يشير لمكان المقبرة فقفز قلبي من بين ضلوعي فرحاً بالإنجاز الأول. يسأله ياسر عن صاحب الاسم، فيقول ما لقنته إياه. حسن يسأله عن كيفية معرفته بمكان المقبرة، وكأن السؤال موجه إليّ، وكأنه يقول: "احترس، فصاحبتك تستعملك فتستغفلك"، هذا الكائن أصبح خطر عليّ أنا شخصياً، وتوجب عليّ صده بكلمات لا يتثنى لقائلها مراجعتها، فسلمته القول بلسانه لينطقه دون تفقد معناه: "بنبدأ الحفر عن قريب بإذن الله تعالى.. وعدتكم بالخير. بس لي عنديكم تلت حقوق.. إن وفيتم وفينا، وإن خالفتم خالفنا " فنقلها إليهم، وأردفت: "أول القول ألا تسألوني فيما لن يبلغكم منه نفع ولا ضررا" نقلها، فاستدركت: "والتاني حق العالم على الجاهل.. الزموا طاعتي فيما ليس لكم به علم" نقلها، فأزدت: "والتالت حق المبصر على الأعمى.. إتبعوني أهديكم سواء السبيل، وتبلغون حسن الخاتمة.. وهذا أجر المخلصين"، فلما لمست أثر الكلمات في نفوسهم إثر الصمت الطويل طلبت منه أن يستقرأهم الفاتحة، ففعل وانتهت المقابلة على هذا. ولما عاد سألته عن انطباعه، فقال إن كل شيء يمشي كما خططنا له، كل شيء إلا حسن، فوافقته الرأي، وعقدت العزم على استشارة جو. ومضى اليوم فتبعه آخر، وهاتفتني كراملة بعدما كنت نسيت أمر الخليجيان، قالت أنهما يسهران كل ليلة في كبارية مزازيك، وقالت أن عطيات أخبرتها بأنها تعرف فتاة تعمل ركلام في الكبارية نفسه، تركتها منذ عامين وانضمت للنسوة السكندريات اللواتي يسكن في دار أميرة (قوادة الإسكندرية)، رافقتهما الفتاة بالأمس حتى مسكنهما، وقالت أنهما يسكنان - مؤقتاً - في فندق سيسل ويبحثان عن شقة مناسبة لإقامة قصيرة، وقالا

أنهما وصلا الإسكندرية لإنهاء عمل لن يستغرق أكثر من شهر على أكبر تقدير. الأول أسمه نواف، مفوه، دائم الإبتسام، دائم الحذر. والثاني شقيقه، نايف، ثمين لدرجة أنه يعاني وهو يتنفس، فعلقت ضاحكة:

- البت شكلها قطعت النفس يا كراملة.

فضحكت وعلقت بدعابة ذات مدلول إباحي، وطال بنا الضحك، ثم عدنا إلى حديثنا الأول، أعطتني رقم هاتف نواف، وقالت أنه أهم من أخيه، الفتاة لم تحاول أن تصل لمزيد من المعلومات حتى لا تثير الشكوك حولها. لكنها فتحت معه طريق لاستنطاقه حين أخبرته أنها ستعطي رقمه لصديقة متزوجة، لا تحترف البغاء ولكنها تحب المغامرة، بوابة عبور ممتازة لا تثير الريبة. أنا الصديقة المقصودة. حصلت على الرقم من كراملة، وهاتفته، عرفته بنفسي وأخذ يردد على مسامعي عبارات من الغزل السخيف وكأني عشيقته منذ أعوام !.. أعرف هذا النوع من الرجال، هؤلاء المرضى النفسيين الذين يشترون الجنس والحب بالمال لأنهم لا يملكون لقلوب النساء سبلاً أخرى. لم تتجاوز مدة المكالمة نصف ساعة تحملتها على مضض، ثم أنهيت الحديث متعللة بعودة زوجي - المزعوم - من عمله، وهاتفت كراملة مرة أخرى، طلبت منها وضع حسن تحت المراقبة، وقابلت جو في صباح اليوم التالي، قلت: "عندنا مشكلة مع حسن"، قال: "صاحبيه". تحريات الليكود - حسب قوله - تؤكد أن حسن (نسوانجي) يخوض المغامرات العاطفية بكل طاقته، فلا يبقى من تركيزه شيء، نصحني بأن أصاحبه ثم طالبني بألا أمارس معه الجنس حتى لا يمل مصاحبتي. جو جرئ ووقح، رغم أنه لم يتفقد جسدي بعينيه إلا في ذلك الوقت، غاصت عيناه بلحمي كقواد يثمن بضاعته بنظرة مهنية، ثم أعقب نظرته بكلمات يؤكد بها أنني أستطيع أن أستحوذ على جل اهتمام هدفنا المذكور. أفضل التعامل مع الأشخاص الواضحين، المتجملين وأصحاب العبارات المنمقة دائماً يعنون أشياء غير التي يتفوهون بها، ولكن هذه المرة زادت كراهيتي لجو، طريقته أذنتني نفسياً، لست

من النوع الذي يبغض تثمينه كبضاعة، نشأت على بيع خدماتي لمن يدفع الثمن. أغلب الظن أن الأمر يتعلق بأدائه الغبي، وابتسامته السمجة. عندما هاتفتني كراملة لتطمئن على ما آل إليه الأمر مع الخليجي أخبرتها أنني بدأت السيطرة عليه.. وفي المساء أرتديت فستان سواري مثير، وحذاء بكعب (١٥ سنتي) ثم تفقدته لوهلة، أحسست أنه يناسب راقصة في أحد ملاهي الدرجة الثالثة، فبدلته بآخر، كعب (١١ سنتي). مساحيق التجميل تزين تفاصيل أنثوية كدت أنساها. عيني مولانا تكاد تلتهمني، هذه المرة حملت نظراته من الجوع والحرمان أضعاف ما حملته في الأعوام السابقة، سألته عن مسحوق كنت طلبت منه أن يحضره من عطار ذكرته بالاسم، خلطة عشبية تسبب إغماءة تتجاوز ساعتين مع قيئ متصل. ناولني المسحوق وأنا أضع على شفتي أحمر الشفاه، لمحته في المرآة.. من سوء حظه أن بنطاله الفضفاض لم يتستر على رغبته المنتصبة.

- رخيه بدل ما أقطعهولك.

انتفض عائداً للوراء ليخرج من دائرة الرؤية التي تفضحها المرآة، رمقته بطرف عيني وهو يطأطئ رأسه لا إرادياً ليلقى نظرة خاطفة على انتصابه البارز بوضوح، ثم جلس على طرف السرير وثني ركبتيه إلى صدره ليداري نفسه، واعتذر بصوت يحمل من الارتباك أكثر مما يحمل من الخجل. جاءتني المكالمة المنتظرة، ما الأخبار؟ هو عند كوبري ستانلي منذ وقت طويل، يتسكع على البحر ويجري مكالمات هاتفية. تحركت وصوت مولانا يلاحقني، بالقول نفسه، يردده للمرة الألف تقريباً:

- حافظي على نفسك، والكعبة الشريفة لو قرب لك هقتله.

لا أبالي، فهو عاشق مهووس بعشق لا يناله، ولن يناله، مخرف تجاوز الخمسين فوهن عظمه وخف عقله. أما السيارة الحمراء فهي تسبق الزمن من المندرة إلى ستانلي. قدرت وقت الوصول في هذه الساعة من الفجر، وحسبت الزمن الذي تحتاجه الأعشاب ليسري مفعولها بالجسم ثم تناولتها، واندفعت

بالسيارة حتى دار عداد السرعة دورته كاملة. أشعر بأني أفقد السيطرة على أعصابي، الكوبري على مرمى النظر. ضعف البصر، أو اهتزت الرؤية، هل أخطأت في حساب الوقت؟! أضغط على دواسة البنزين بكل ما أوتيت من قوة وكأني أدفعها للطيران. الكوبري يقترب، لابد أن أتوقف، السيارة تحتاج لوقت أطول من المحسوب لتتوقف، حسن يستند بذراعيه على السور الحديدي المطل على البحر، تيل الفرامل يعمل بكفاءة منقطعة النظير، صوت العجلات يزغرد على الإسفلت. أشعر برغبة في القيء، لابد أن أفعل ذلك على مقربة منه وإلا صرت أجازف بنجاح السيناريو، هذه الأعشاب تؤدي دورها بكفاءة أكثر من المطلوبة. أفتح باب السيارة، قدماي لا تقويان على حملي، رائحة الكحول ! نسيت رائحة الكحول. أخرج من الـ Tablo زجاجة ويسكي صغيرة الحجم، وألقي قليلاً منها على فمي وملابسي بيد مرتعشة، ثم أعيدها لمكانها وأندفع في طريقي إليه، أقف بجواره وأطل إلى البحر من فوق السور الذي أتشبث به بذراعي، تنعدم الرؤية، ويهتز رأسي بعنف، أحاول أن أستفرغ، قفص صدري يعتصر محتوياته عصرا. تدور الأرض حول نفسها، أو حولي، أو حول حسن، أو.. أفقد الإدراك. يسود اللاشيء... وحين أفتح عيني أجد وجهه يتطلع إليّ بطيبة وحنان صادقين، أتفقد المكان من حولي، أنام على سرير نظيف في غرفة متواضعة الحال، "أين أنا"؟ سؤال يطلقه عقلي بصدق فينطقه لساني، يهنئني على معافاتي، يناديني (سلمى). أتذكر، ذلك الوجه لحسن، وهذا الاسم مدون بالبطاقة الشخصية الزائفة التي حملتها في حقيبتي. يساعدني على التذكر بعبارة عفوية حين يعتذر عن فتح حقيبتي الشخصية، ويبرر تصرفه بأنه كان يحاول أن يصل لمعلومات تساعده في التعرف على شخصيتي، فأتمادى في تمثيل دور التائهة. أساله عما حدث، وأقول أنني لا أتذكر شيء.. فيؤكد أنني أفرطت في شرب الكحول حتى فقدت الوعي، واستفرغت أكثر من عشرون مرة في الساعات السبع الماضية. سبع ساعات؟! لا ساعتين ولا حتى ثلاثة، أخطأ

العطار تقدير تأثير خلطته، لماذا لا يكون هناك مكان في الجحيم لمن لا يتقنون حرفتهم؟ أكره الهواة كما أكره نظرات الاحتواء الزائفة. قلت:

- أنا أكيد عملت لك مشكلة مع المدام.

ضحك وقال إنه غير متزوج، وأنا أعلم هذا، هاتفه يرن للمرة الثالثة أو الرابعة، لاحظت أنه في كل مرة يرفض المكالمة دون أن ينظر للشاشة ليعرف المتصل، وكأنه يرفض الناس أجمعين، لا يرفض شخص بعينه. بداية جيدة إلى حدٍ ما، إن كان هذا يعني أنني استطعت جذب اهتمامه. أجاب محدثه وهو برم به، خالد هو المتصل، أنصت دون أن أبدي اهتماماً بما يدور بينهما، صوته المرتفع وترديده للكلمات جعلاني أعرف كل شيء. هناك أناس يسعون لشراء الأرض !.. أرض نائية ظلت لسنوات لا تساوي شيء يظهر أشخاص يودون شراءها فجأة !.. هل ثمة أحد يعلم بما أفعله؟ يعلم بماذا؟ بالآثار العبرانية، أم بالآثار الفرعونية المزعومة ! الأمر مريب ومحير، يدفن حسن رأسه بين راحتيه، ترى أي تساؤلات تدور بعقله في هذا الوقت؟ أملس على شعره وأداعبه بكلمات تطرب آذانه لسماعها. توتره واضح لا تخطأه عين، وأعتقد أنه من النوع الذي يكره أن يتطلع أي شخص لأوقات توتره، وبعد دقائق معدودة تأكدت مما أعتقدته، حيث خرج من البيت وهو يؤكد أنه يشعر بالضيق، قال إنه سيجلس على المقهى لقليل من الوقت، وسيعود سريعاً. أستغليت فرصة غيابه وهاتفت كراملة، أتذكر أن حسن قال شيئاً عن جلسة ستتم مع المشتري في بيت عم خالد. سألتني عن آخر أخبار (المقبرة)، قليل من الحرص يا صديقتي، إننا ننفذ مهمة ضد الدولة لا نتحدث عن طريقة عمل المكرونة بالبشاميل، صحيح أننا نتحدث بشفرة متفق عليها، ولكن مثل هذه الحيل لا تنجح - دائماً - في خداع الأجهزة الأمنية. طلبت منها أن تضع مراقب يحترف التصوير (الفوتوغرافي) عند بيت خالد، ومهمته أن يتبعه إلى بيت عمه، ويصور الذين سيقابلونهما أي أن كان عددهم. ودخنت خمسة سجائر وأنا أنتظر حسن أمام التلفاز وكأني

زوجته. ولما عاد بدا أكثر اتزاناً من زي قبل، جلسنا لنتعارف وكل منا ينظر للآخر بعين متفحصة وكأنه يرى صاحبه للمرة الأولى، شاب في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً، طويل القامة، يتمتع بملامح على قدر كبير من التناسق، شفتين بارزتين وعينين لا تنجح نظارته الطبية في التستر على لونهما البني الغامق. له شعر أسود اللون، كثيف، وناعم، يغطي بخصلاته - المائلة إلى اليسار - نصف جبهته. حلو اللسان، حسن القول، ينتقي كلماته بعناية. يتحدث عن عشق النساء ودواوين الشعر العربي. أستزيده كلاماً عن العشق فيزيدني بذكريات صادقة لا تجمل فيها ولا تبرير. لو كان الوقت غير الوقت، لو لم نكن نتقابل في أرض معركة لا تسمح بالمهادنة، لو كنت امرأة من النوع الذي يحب الورود الحمراء ويتمنى الزواج من فتى وسيم.. لو كانت أحد هذه الافتراضات متاحة ربما كنت نظرت لهذا الشاب نظرة أخرى. طالبني بالتحدث عن نفسي. فقصصت عليه حكاية زائفة عن الثروة والزواج الجبري. شيء يستوعبه ويتفاعل معه، حكاية أمه المطرودة من بيت عائلتها ولكن بتفاصيل مختلفة، أنا سلمى السناري الهاربة من قدرها الذي ألزمتها به عائلتها. ولمحت التعاطف في عينيه. نفذت كلماتي إلى قلبه، فنجحت في كسب تعاطفه. لم يخرج في اليوم التالي لمقابلة مولانا إلا وهو تارك بحوزتي جزء كبير من قلبه وعقله، نجاح جزئي، ولكنه سريع. بعد خروجه من البيت مباشرةً أتصلت بكراملة، أخبرتني أن ثمة مفاجأة تنتظرني على البريد الإلكتروني.. فتحته فوجدت مجوعة صور لرجلين بزي خليجي أحدهما يزن مائة كيلو تقريباً، نايف ونواف؟! سألتها، فقالت أنها لا تعلم ولكنها تؤيد ذلك إلا لو كانت الصدفة تتحرش بنا !. أخترت صورة واضحة تظهرهما معاً وأرسلتها لمولانا الذي حاول أن يتصل بي أكثر من خمسين مرة في اليوم الماضي، حتى جعلني أضطر لغلق هاتفي، ثمة عطل في خاصية الإرسال بهاتفي تمنع وصول الصورة لمولانا. نظرت إلى الساعة فوجدت أن الوقت المتبقي على موعده مع

الشباب يتجاوز الساعتين. خرج حسن قبل موعده إذاً !.. هاتفت مولانا.. هاتفه مغلق !.. ذهبت إليه، فوجدته يتأنق أمام المرآة، يضع اللمسات الأخيرة على خصلات شعره، ويمشط لحيته.. استدار ليجدني أقف خلفه، وصورة الأخوين الخليجيين على هاتفي أضعها أمام عينيه، وأسأله إن كان يعرفهما.. أجابتني الدهشة المرتسمة على وجهه قبل أن ينطق لسانه. ثم سألني متى وأين عثرت عليهما؟ قلت:

- أمبارح بليل كانوا قاعدين مع عم خالد، بيتفاوضوا على شرا الأرض.

كعادته، تفوه بكلمات لا معنى لها (بديهيات). فنظرت لساعتي، لم يتبقى على الموعد أكثر من ساعة وبضع دقائق، أعلم أنه لن يصل في موعده، ولكن في وقت كهذا قد يخدمنا عنصر الزمن إذا ألزمنا بقليل من التأخير.. كان على هيئة المختار مستعداً للتحرك، فتحركت معه، وجلس إلى عجلة القيادة بالسيارة التي نستقلها بالجراج ليبدلها بالأخرى، وجلست بجواره ألقنه ما يتوجب عليه قوله. سيطرحون أمامك أزمة بيع الأرض وقد يستفتونك في الأمر، فقل لهم "عطلوا المشري إسبوعين، فيفوز أصحابها بثمنها وتفوزون أنتم بعطاياها"، إن يسألوك عن الوقت القليل الذي تفوهت به، وهل يكفي - حقاً - لإخراج بطن الأرض وثروتها، إن يسألوك عن هذا وضح لهم تفاصيل خطة الحفر المعلومة سلفاً. واضرب الجنيّ بتعويذتك، واجعل حسن يخضعه بالطلسم.. وأكرر، (حسن سليمان) سميته ولا أسمي سواه، لأنه عصيان متمرد سيخشاه الجن ويتقي شره، والحقيقة أن ورقة الطلسم كانت تحوي إشارة طالبني جو بأن أوقعها في طريقه أثناء التحضير، إشارة تجعله يزداد حماساً وثقة في النفس. الناس الذين من نوع حسن بينهم وبين الغرور شعرة، وغرورهم أقرب للجنون. إنهم يعلمون مساويء اليقين فلا يقربوه، وإن دنت منه عقولهم أعماهم عما سواه، الحقائق الثابتة واليقين المطلق هي أمور لا تتناسب إلا مع من هم مثلي، أولئك الذين غرزوا أقدامهم بالأرض عنوة، ويسعون للسيطرة على مراكز القوى عنوة،

ويتحدون السماء في وضح النهار. ووصلنا إلى الجراج بعدما أعطيته ورقة ما أسميته الطلسم وحذرته من محاولة فتحها قبل حرقها، تحذير يتوجب عليه نقله - بدوره - لحسن. وتركته عائدة إلى محرم بك، وهناك أتصلت بنواف، وجرت بيننا مكالمة مطولة. مهووس ترغبته الجنسية، في هذا السن يتحدث كمراهق، ومن طبع المراهقين أنهم يعتقدون أنهم يستطيعون إثارة شهوة امرأة في مكالمة هاتفية، Sex phone !.. بكل الضيق وبكثير من القرف جاريته في محاولته النتنة. لماذا يعتقد بعض الرجال أن النساء كلهن تزداد إثارتهن بالشتائم السوقية؟ لكم هم مرضى هؤلاء الرجال !.. لم أستطع أن أتحمل أكثر من هذا، تحججت بعودة (زوجي)، وأغلقت الهاتف. البرنامج الخاص بتفعيل سماعة مولانا على الـ laptop يعلن عملها بنجاح، أصواتهم بدت واضحة دون أي مؤثرات خارجية مما يعني أنهم في مكان مغلق، ففهمت أنهم لم يغادروا السيارة بعد. جيد، لم يفتني الكثير، مازال يشرح لهم خطوات فتح المقبرة، بدءًا بتحضير الجن وتركه يتفاوض مع حرس الأجداد لمدة أسبوع، مروراً بعطية / هدية الحرس التي ستنتج عن تفاوضه، ثم أخبرهم بضرورة رفضها حتى لا يستعصي عليهم فتح المقبرة. رائع. هو نفسه لا يعرف طبيعة الهدية. قليل من الصمت بعدما ناول مولانا الورقة لحسن وحذره من سوء عاقبة الاطلاع على فحواها.. صمت لم يقطعه سوى صوت الأول يأمر خادمه بإنزاله من السيارة، ثم صوت الثاني يتأوه. ماذا حدث؟ وصل لمسامعي صوت الهواء يداعب الـ Microphone فلم أستطع أن أستوضح الكلمات التي تقال - إن كان هناك أحد تفوه بكلمة. الرياح تعصف بكل ما تجده أمامها في هذا اليوم. ارتفعت نبرة صوته وهو يلقي على مسامعهم التعويذة، هي لحظة فارقة، قالها بأداء مقنع إلى حدٍ ما. كل قول بعد هذا لن يغير من تورطهم في الأحداث شيئًا، أغلقت الجهاز، وهاتفت جو، طلبت منه أن يقابلني قبل ساعة في مكان بعيد عن الأنظار. أعرف أن حسن لن يعود قبل أن يكمل سهرته مع أصحابه حتى الفجر. وقابلته في

الموعد والمكان المحددين، بدا قلقاً، قلت:
- شوفوا لكم حل، في دخيل بيلعب قصادنا.
رفع حاجبيه دهشةً فحكيت له قصة الأخوين الخليجيين بدءًا بما تم بينهما وبين مولانا، وانتهاءً بسعيهما لشراء الأرض، وأخبرته بأنني أرسلت من صورهما وهما خارجين من بيت محمد القفاص - عم خالد.. ثم ناولته (فلاشة) تحمل صورهما، فوضعها بجيب سترته وأشاد بحسن تصرفي، ووعدني بأن يتكفل هو بأمرهما. وسأل عن مولانا، فانتهزت الفرصة وقلت إنه يؤدي دوره بكفاءة ولكني لا أتوقع أن يصمد للنهاية، بمعنى آخر وضعت السم في العسل.. لم يهتم بكلامي كثيراً وكأن سؤاله لم يكن عن اهتمام بجعل الأمور تمشي في نصابها، غالباً ما تكون أسئلته أشبه بروتين يومي لموظف HR بأحد الشركات التي تقتبس نظام العمل الأوروبي بآليات ميكانيكية ذات طابع بيروقراطي لا تعرف التطوير.. كمن يدقق في عيني محدثه ويظهر الاهتمام بصورة مبالغ فيها ثم يتثاءب فجأة وهو يسأله: "أين ترى نفسك بعد خمس سنوات"؟.. غالباً يخيل إليّ أنه لا يكترث بنجاح العملية أو فشلها، ربما يتقاضى من أصدقاءه في تل أبيب أجراً شهرياً في الحالتين، ربما؟.. ربما !. يسألني عن علاقتي بحسن وهو يرسم على شفتيه نفس ابتسامة القواد التي بدلت ملامحه يوم طلب مني مصاحبته. أجيبه بقول يطمئنه، أو يطمئن سادته. وتنتهي المقابلة. أعود وأنا أشعر بأن كراهيتي له تزداد بصورة لا تحتمل، ولا أكف طوال الطريق عن سبه وسب أبويه اللذين ابتليا به الناس. وتنفست الصعداء عندما تذكرت أنني سأرتاح من وجهه لأسبوع كامل، فلا عودة إلى المقبرة قبل أسبوع. الخطة تسير بنجاح، لكن الأيام التي لا تعنيك دائماً تتباطأ، الزمن عنيد بطبعه، أيام وتضع يد أحدهم هدية أثرية على موضع المقبرة، أيام أخرى وتنتهي المهمة.. أيام ويخرج الصاوي من محبسه.. كل هذا التوتر تصنعه الأيام الآنية كجدار سميك بيني وبين الأيام المنشودة، لكن هذه الأيام لا تمر كالهواء، فلها هي أيضاً حملها الذي تهديني

إياه.. إحساس بالاحتواء في حضن حسن (لم يسبق لي أن شعرت بهذا النوع من الطمأنينة الذي يزرعه الرجل في قلب أنثى)، أقول رجل بالمعنى المفهوم، فلحضن الصاوي طعم مختلف، احتواء الأب ليس كاحتواء الـ.. (الـآخر). نشرة الأخبار - التي قلما تثير اهتمامي - تذيع خبراً عابراً "رئيس الجمهورية يصدر قراراً بالإفراج عن بعض سجناء الرأي".. الهلب !.. انتهزت فرصة خروج حسن في المساء وهاتفت كراملة، سبق لسانها لساني، بادرتني: "الهلب خرج"، طلبت أن أكلمه، سلامه حار، روحه الطيبة ودعاباته تجعلني أحترق شوقاً للقائه، ليس ذلك الرجل الخشن الذي أمرني بهجر البيت الكبير. هو رجل عجوز يحمل قوة الصاوي وحلاوة لسانه، أرد دعاباته بمثلها، ولا أتمالك نفسي، فأبكي دون خجل أو مواربة. يسألني عن سبب بكائي، فأبكي أكثر.. اشتقت للهلب، واشتقت للصاوي، واشتقت للبيت الكبير بحجراته الدافئة وجحره الآمن.. في هذا الوقت شعرت بالضعف الذي لم أعهده في نفسي وأوجعني يتمي كما لم يوجعني من قبل. تمالكت نفسي وهو ينهي المكالمة ظناً منه أن ذلك سيريحني بعض الشيء، ولكن دموعي غلبتني أكثر، حتى عاد حسن ووجدني على هذه الحالة، فتعللت بأنه قد وصلني من الإسماعيلية أن الشرطة وزعت صورتي على جميع مديريات الأمن، ربط على كتفي مشجعاً وهو يقول كلمات يحاول طمأنتي بها، فرميت بنفسي في حضنه.. وظل هاتفي يرن برقم مولانا بإلحاح زائد عن الحد، فأجبته بحرص حتى لا يلاحظ حسن تغيير ما، لسانه ثقيل من أثر الخمر، وكلماته جعجعة جوفاء.. لم تحمل المكالمة قولاً هاماً فأنهيتها وأغلقت الهاتف، سأل عن المتصل فقلت إنه ابن عمي يطمئن عليّ، تغير لونه !.. هل يغار؟ هل أحبني حقاً بهذه السرعة؟ نجحت في الاستحواذ على تفكيره فلِمَ يضايقني هذا؟! ليتني أعلم. أما مولانا، ذلك الحيوان النجس المدلل، صار وجوده في حياتي يضعني تحت ضغط ذهني وعصبي لا يحتمل، لا أكاد أفتح هاتفي حتى تنهال عليّ اتصالاته بلا انقطاع. لا أستطيع أن أغير الرقم قبل

انتهاء العملية، ومن عاداتنا - نحن الغجر - أن نغير أرقام هواتفنا كل أسبوع، تعلق شرائط الاتصالات القديمة باللوحة الخشبية المتواجدة بغرفة الاتصال، فيتكفل سَفَر والقائمين على مساعدته في كل المحافظات بتبديل الشرائح القديمة بأخرى جديدة مسجل على كل منها بقية الأرقام بأسماء أصحابها، هذا يحدث فقط في بيوت الغجر (لدواعي أمنية)، أما من هم في مثل موقعي فلا يستطيعون المجازفة بأمر كهذا. كان عليه أن يواجه المفاجأة وحده في الموعد المحدد. سألني - أكثر من مرة - يوم لقنته التعويذة إن كانت ستؤتي ثمارها حقاً أم هي من خرافات الأولين، اليوم يوم العطية، يذهب حسن لملاقاتهم. لابد أن ينبهر مولانا بما سيراه، لابد أن يصدق كل ما يحدث. هاتفت جو، قال إن الأمر كله تحت السيطرة، عندما يذهبون إلى المقبرة سيجدون الهدية، كأس ذهبي مزخرف بنقوش هيلوغروفية، سيدهش مولانا مثلهم، سيصدق نفسه.. وحين يسألوه عن الكأس لن يملك إلا أن يقول لهم ما لقنته إياه: "صواع الملك، سقاية العزيز يوسف بن يعقوب".. ويقص عليهم حكاية السجن وصاحبه الذي نجى، ساقي الملك ونديم يوسف بعدما يُمكّن في الأرض. سيقول لهم أشياء لا يعنيها كببغاء نتفوا ريشه وعرضوا لسانه على زوار حديقة الحيوان. راقبت محل ياسر، لم يعد أحدهم بعد. هل مازالوا بالأرض حتى هذا الوقت؟! برنامج المتابعة لا يتلقى أي إشارة من سماعة مولانا، لم يعلقها بأذنه إذاً. وبينما كنت أغالب توتري وصلتني رسالة إليكترونية من كلمتين "إفتحي تليفونك"، أرسلتها كراملة، ففتحته وهاتفتها، قالت:

- إحنا مكناش عاوزين ندوشك، كنا بنقول كفايا عليكي اللي أنتي فيه.. بس مبدهاش.. الصاوي خرج م السجن من يومين، وولا حس ولا خبر.. فص ملح وداب. قلبنا عليه الدنيا، دورنا عليه في كل حتة. أنا مبقتش عارفه أعمل أيه.

خبر خروجه من السجن شغلني عن بقية الحديث، أنهيت المكالمة وأنا أعدها بأني سأجده.. خرج الصاوي. هذا أحسن خبر سمعته في حياتي. جلست شاردة

كأني أنتقل بروحي لعالم آخر.. خرج الصاوي، ولا يجدوه !.. الخروج من السجن له إجراءات لا يجهلها أحد، وسيكون من الغباء أن نتوقع أن يتم الإفراج عن كبير الغجر بنفس الإجراءات التي يتم الإفراج بها عن نشال مبتديء أو رئيس جمهورية سابق !.. إننا الصداع المزمن الذي ابتلي به النظام في رأسه.
السكري، أهاتفه فيقول:
- تاني نفس السؤال؟ ما المعلم الهلب أتصل بيا وقلت له إن الجهاز ميعرفش حاجة عن الموضوع ده.. مشكلتكوا مع مصلحة السجون يا مارينا مش معانا.
المعلم الهلب اتصل به !.. متي فتحت قناة اتصال مباشرة بينه وبين الهلب شخصياً؟! هناك تطورات تحدث بالبيت الكبير أثناء تغيبي عنه. مشكلتنا ليست مع مصلحة السجون، إن كان أسامة السكري صادقاً فمشكلتنا مع الصاوي نفسه. راهنت نفسي على أن الصاوي يختفي بمحض إرادته، راهنت نفسي على أنه يتدفأ بذكراته الناعمة بعدما أوجعه برد السجن. ارتديت عباءة سوداء ونقابًا، ثم أخرجت من الجراج سيارة Fiat 128 بيضاء اللون، لمن لا يحبون لفت الأنظار إليهم (السيارات الفارهة لا تصلح للأحياء الشعبية). وفي زقاق متفرع من شارع سينما ليلى بمنطقة باكوس اعترض طريقي أحد الشباب الواقفين على الطريق ليبيعوا الحشيش للوافدين. يعرفونهم من نظراتهم الحائرة وعيونهم حين تتقلب بين الوجوه، هو غجري، أعرف الغجري من رائحة كلماته. تفترس عيناه النقاب على وجهي، ويفتش بنظره السيارة، ثم يسألني إن كان يستطيع مساعدتي، وأنا حقاً بحاجة لمساعدته، تشابهت الشوارع والأزقة فنسيت البيت الذي لم تطأه قدماي من قبل سوى مرتين. أسأله عن بيت أم أمينة، فيطيل النظر إليّ وكأنه يسأل عما ورائي، ثم يصف لي الطريق الصحيح. فأتحرك وأنا أسمعه يرفع صوته بكلمات من لغة الغجر، ومعناها (ضيف جديد). وهي تستخدم للتحذير من خطره، إن كان خطراً، فيتأهب جميع من يرونه لمهاجمته إن لمحوا منه غدراً، فعرفت أن الطريق ملغم بالأولاد المتربصين، الذين لو

عرفوا هويتي سيخفضون رؤوسهم أمامي. وطرقت باب شقة أم أمينة بالطريقة المعروفة. الصاوي بالداخل، بنته التي من صلبه لم تستطع أن تتوقع مكانه، أنا أكثر إنسان في هذه الدنيا يعرف كيف يفكر سيد الصاوي، وهذا يشعرني بالارتياح.. بيني وبين الحبيب باب مصفح تفتح مزاليجه واحدًا بعد الآخر.

أينما يوجد الصاوي توجد الطمأنينة، شقية أنا بدونه، وحيدة وإن احتضنتني كل بيوت العائلة. أرتاح لرؤيته كما أرتاح هو لرؤية أم أمينة منذ يومين. أسأله عن سبب تغيبه عن البيت الكبير، وازيد السؤال باستفسار مصحوب بالدهشة عن سر إخفاءه لمكان تواجده، فلا يجيب عن كل هذا إلا بهزة من رأسه مصحوبة بكلمات مقتضبة، كلمات يقطع بها تتابع الأنفاس:

- مانيش عاوز قلبة دماغ.

تقفز برأسي المقبرة والكأس الذهبي الذي قال عنه جو إنه كنز لا يقدر بثمن. ترى هل وجدوه؟ هل أدى مولانا دوره بحرفية أم قام بتصرف أخرق من شأنه أن يفسد الأمور؟ "هو غبي، ولكن ليس للدرجة التي تجعله يصدق أنني قادرة على توقع (العطية) التي ستخرجها المقبرة" هكذا قلت لجو، لكنه لم يهتم بقولي، وكعادة الصاوي يكشف بنظرة واحدة من عينيه ما يدور برأسي.. يبتسم وهو يسألني عن حالي، أقول إنني بخير وهو يعلم أنني أكذب. يرن هاتفي، تعلن شاشته أن مولانا هو المتصل. أستفسر منه عما حدث فيقول إن كل شيء دار كما (خططنا) له !، ثم يسألني السؤال نفسه: "من أين عرفتِ أن المقبرة ستخرج كأساً ذهبياً"؟ أجيبه بكلمات لا تقنعه، يزداد الموقف تأزماً.. (الكانشة) في يد الصاوي تستغيث إثر اصفرار مائها. يتطلع إليّ بعينان فاحصتان كاشفتان.. أشيح بوجهي عنه، لأخبئ عينيّ اللتين تفضحان عجزي وقلة حيلتي. يصارحني بقوله:

- بقيتي عاملة زي السمكة فـ شبكة صياد غشيم.

أبتسم، وأصارحه مستسلمة:

- أنا عارفة أن مفيش حاجة بتخفى عليك.

يقول:
- الليلة دخلت فـ العوق.. كفتك مايلة، والكلب بتاعك مش هيعرف يصد مع الواد حسن.. دا عيل شايل عقله وحاطت بداله قمبلة ذرية.
فعرفت أنه يراقب كل ما يحدث، كما قال الهلب من قبل ورددتها ليندا بطريقتها الخاصة: "الرجالة هيفضلوا طول الوقت حوليكي.. حارسينك وحاميينك" / "تحركي بحرية فأنتِ تتمتعين بحمايتي". أستشيره فيقول:
- اليهود ملهمش كلمة، ولو كملتي للآخر هيقولوا لك: (أمك في العشة ولا طارت).
أفقد أعصابي، أحتد، أقول إنني تلميذته التي رباها فأحسن تربيتها على المراوغة والتنكيل بالعابثين. لا أحد يستطيع أن يلعب معي، يلاحق الأنفاس المتتابعة، ويرص الحجر تلو الآخر وكأنه لا يبالي بما أقول. ثم يفجر بوجهي قنبلة من العيار الثقيل بعدما يحاصرني برائحة الحشيش وتحول بيننا سحابة دخان كثيف:
- اللي يعرف يلعب بيكي الكورة يعرف يوديكي البحر ويرجعك عطشانة، أديكي أمارة؟... هديكي أمارة.
يرص حجرًا جديدًا ويشعله، ثم يردف:
- الخلايجة اللي أنتي مقضياها معاهم نحنحة فـ التليفون من ساعة ما علموا ع الكلب بتاعك مش جايين من برا اللعبة ولا حاجة، دول متكلفين م اللي مكلفك.
- جو؟!
- اسمه جورج فهيم، وبيشتغل جواهرجي في الصاغة.
تتابع المعلومات بلا رحمة، ترفق بتلميذتك يا مُعلم، كيف تعرف كل ما أجهله وأنت بين هذه الجدران خارج من السجن لتوك؟ هذا هو الصاوي ولا أزيد، كبيرنا الذي يوقد النار من رحم الصقيع !
- وسي زفت ده هيستفاد أيه لما يشغل الخلايجة ضدي؟

- أنا معرفش.. بس لما بعت العيال يقطروه شافوهم قاعدين معاه في كافيتريا ع البحر.. ومش بعيد يكون هو بذات نفسه مش عارف هو بيعمل أيه، ما اليهود دول عالم ولاد مرقعة.

يفور دمي كحليب يغلي على موقد خصص لصهر الحديد، يتنازعني الكبرياء، وتشتتني الهزيمة.. هل دربت في بيوت الغجر ودربني الجنرال لأكون لقمة سائغة في أفواه الصهاينة؟ أنا مارينا "امرأة ستحرق وجه العالم".. تلتقي عيناي بعينيه المحمرتين.. في عينيه ترقب واطمئنان، ربما يثق في قدراتي أكثر مما ينبغي. في عيني تصميم وخوف من الهزيمة، رغبة ملحة في التنكيل بكل أعدائي. أبتسم. يبتسم. لست بحاجة للتعبير عما يدور برأسي، هو يقرأ أفكاري وهي في مهدها، تتسع ابتسامته أكثر وأكثر، ثم يقول:

- قدريه حصل، خلصانة، بكرا الصبح نقرا الفاتحة على روحه سوا.

فأتركه عائدة إلى بيت حسن، بعدما أتممنا الاتفاق على قتل جو.. لا ثقة في اليهود - على حد قوله وبرهانه. نقتل همزة الوصل بيننا وبينهم فيعلمون أننا قادرون على رد غدرهم بأسوأ منه. وهذا يعني أنني لن أكمل العملية، أو سأكملها وفق قواعد تناسبني. أدخل الشقة وأنا أحمل في يدي بعض الأطعمة لأجد سببًا منطقيًا أبرر به تغيبي إن كان صاحب البيت وصل إليه قبلي.. لا أجده، فأتناول حبة مهدئ، وأخلد إلى النوم وأنا أحاول أن أسترخي. وأستيقظ في الصباح لأجده جالساً أمام التلفاز، يبدو عليه الإرهاق وكأنه فارق الراحة من ألف عام.. لوهلة شعرت بأنني أود أن أضمه بين ذراعي وأزيح عنه كل أتعابه. هذه الجدران التي تضمنا ربما تكون صالحة لحمل الدفء وحياة أسرية مستقرة لو تصارحنا ورمى كل منا ماضي الآخر خلف ظهره، لو استزدنا من اللحظة الراهنة، لو سلمنا نفسينا لحياة عادية بلا منغصات، زوج وزوجة، أب وأم يترفقان بأطفالهما ويستمتعان بضحكاتهم البريئة وتعثرهم في المشي، فتعثرهم في النطق، ثم تعثرهم في الحياة.. أولاد صغار أحكي لهم قبل النوم حكاية المرأة

التي كانت تود - يوماً ما - أن تحرق وجه العالم، هذا لأن عجوزًا إنجليزية مصابة بجنون العظمة تنبأت لها بذلك. أحلام عبثية، سخافة وهراء لا يليق بي.. أؤنب نفسي على خواطري التافهة وأنا أحضر الـ Nescafe، إن الرجل حين يشارك امرأة بعينها شرب القهوة على طريقتها فهذا لا يعني أكثر من مجاملة لطيفة. وإن التلفاز حين يعلن أخباراً لا تعنينا لا يمكننا - في هذه اللحظة - أن نفعل شيئًا غير عدم الإنصات، أو تغيير القناة. أمسك الـ Remote فيصيح:

- استنني.

وينصت لمذيع النشرة باهتمام شديد، الخبر يتعلق بعودة شخص يدعى ناجي عياد، أستاذ في علم المصريات بجامعة فرنسية. الأمر يتعلق بالمقبرة إذاً. يقلب أوراقه ويأتي بـ (أجندة) قديمة، هو يعرف الرجل معرفة شخصية، ويحتفظ برقمه أيضاً.. يحدد معه موعد للمقابلة، في الغد ! بهذه السرعة؟!

في اليوم التالي يسافر حسن إلى القاهرة، وأتصل بالصاوي ليزف إليّ خبر قتل جو. لا يرد على هاتفه، تقوم بذلك - نيابة عنه - أم أمينة. أين الصاوي؟ أسألها. فتقول إنه يطلب مني الذهاب إليه لأن لديه كلام لا يقال في مكالمة هاتفية. ذهبت لملاقاته وأنا قلقة، رغم علمي بأنه شديد الحرص، ولا يحب الخوض في تفاصيل هامة عبر جهاز تسهل مراقبته، حتى لو كان الكلام مبني على شفرة يصعب اختراقها.. هي عادة قديمة لم يتخلص منها أبداً.. ورغم هذا لم يغادرني الشعور بالقلق. ذلك الشعور الذي تأكد حين اصطدم كتفي بكتف سوستة وأنا أدخل غرفة الصاوي، كان هذا الأول يغادر الغرفة وهو منكس الرأس، فلما التقت أعيننا بعد اصطدام كتفينا ألقى علي السلام وأكمل طريقه إلى خارج البيت.. سوستة أصبح جثة تمشي على قدمين، متى جاء من القاهرة إلى الإسكندرية؟ هاتفت كراملة بعد لقائي الأول بالصاوي وطمأنتها على صحته، وأخبرتها بمكانه. جاءت كراملة بصحبة زوجها إذاً، مصيبة إن كان الصاوي كلف سوستة بمهمة قتل جو.. أولم يعلم عما أصابه شيئًا؟! فعلها الصاوي، عرفت ذلك حين أشار ناحية الباب قاصداً

هذا الذي خرج منه منذ لحظات، وتبع إشارته بقوله:
- المحروس معرفش يخلص.
ثم أردف:
- وياريتها جت على قد كده وبس، ابن الكلب أيده اتهزت أول ما سمع سرينة الأتاري قام غارز المطوة فـ كتفه بعد ما بلغه السلام من طرفك.. يعني لا منه سلم الأمانة للي خلقها ولا منه ستر نفسه وسترنا.
شتمت سوستة بأقذع الشتائم التي خطرت على ذهني. ثم عاتبت الصاوي قائلة:
- وملقتش غير سوستة يا أبا، حرام عليك، دا البودرة لحست نافوخه.
شخر، وقال بشراسة:
- ولاد الكلب مقالوليش.. ودِيني لاطلع ميتين أبوهم واحد واحد.
ثم صاح باسم أم أمينة، فجاءته المرأة مهرولة.. طلب منها أن تتصل بالهلب (هو عادةً لا يتعامل مع الهاتف بنفسه، لا يستوعبه).. ألحت عليه أن يؤجل هذا لوقت آخر، وأخبرته بأمر حسن، فطالت نظرته إليّ، ثم أكمل حزمة المفاجآت السيئة.
- ومولانا كمان بينخور وراكي.. النهاردة الصبح كان في مكتبة اسكندرية، وقعد فيها قعدة طويلة.
- نهار أسود.. دا زمانه عرف أن التعويذة اللي هو قالها كلام فارغ، كده مولانا هيفتكر أن اللي فات كله كان لعب عليه.
انتهى. الحُلفاء والغُرماء، كلهم يسنون أسنانهم ويستديرون ناحيتي تباعاً. أنا أو الطوفان. هم اختاروا مصيرهم، اختاروا أن يفهموا حقائق الأمور ويناصبوني العداء. أنا أو الطوفان، أو ربما أكون أنا الطوفان نفسه، الخطر المحقق، مثلي لا تنتهي بهذه السهولة، فليتزايد عدد الذين يناصبونني العداء ويطلبون رقبتي إلى ألف شخص، أو ألف جهة، ما دامت الأرض تضن ببعض عزتها.. أنا الطوفان. أول الغارقين مولانا، ذاك الصداع المزمن. ها قد آن وقت الخلاص منه إلى

الأبد. أقود سيارتي ناحية كوم الدكة، فأنعطف عن الطريق قاصدة محرم بك مشغولة بالتفكير في حسن. أكتب اعتذارًا أنيقًا عن خروجي المفاجئ من حياته. أدخل بيته وأنا عالمة - بحساب الزمن - أنه لم يعد من القاهرة بعد. أضع ما كتبته في مكان تلتقطه عيناه بسهولة. وأرحل بعدما ارتعش قلبي كأرض معطاءة بورت وكأني أغادر دنيا الأمان إلى دوامة قاسية. مشاعر تافهة معلقة بباب العقل، لا قدرة لي على تحملها، ولا يسعدني تمكنها مني. بي أشياء عالقة من تفاهات النسوة اللواتي تربين على أنهن ما خلقن إلا للحب والزواج. وأنا على باب مولانا، نقرات كعب حذائي تزعج سكون الليل ولا تنقذ الخنزير من نومه الذي لا يفرق بينه وبين الموت إلا شخيره الذي يزعج الجدران. أضيء المصباح فيصدر نورا خافتاً مرتعشاً وكأنه يتشكك في ضرورة توهجه، فينطفئ، يحترق، جماد فطن، يرثى لحالي فيمنحني إشارة تحمل معنيين: أنت بنت العتمة، ولدت في ظلمة حالكة، تدثري بالليل فهو نصيرك وهو صاحبك الذي يسترك. أو يقول - بلسان حاله - ما لي قدرة على مواجهة جبروتك، نور عقلك أقوى وأجل، ما أنا إلا وسيلة للمستضعفين وأنتِ جبارة تسعى في الأرض فساداً. يقول ما يناسبه أو ما يناسبني، النتيجة واحدة، مصباح معلق بسقف غرفة وانطفأ، أحترق. وذلك الشيء بجسده الكروي الملفوف بملابسة الداخلية يتفصد عرقاً وينشر بالمكان رائحة عفنة، كأي كائن بدائي، كسيارة من طراز أربعيني متهالكة لا أمل في أي محاولة لإعادتها إلى هيئتها الأولى. أداعب بأناملي شعر صدره الكثيف. أتأمل ملامحه، يوماً ما كنت أسعى لصناعة صدفة تجمعني به، فجاءتني دون مجهود يذكر، صنعها القدر، في هذا الوقت كنت أسمع اسمه يتردد على الشفاه مصحوباً بالخوف. تساءلت: "من مولانا؟"، قالوا: "هو روث الحظائر حين ينتج بشراً ونعال، قروي حافظ للقرآن لا دين له ولا خُلق" !.. يفتح عينيه، يختطفني من ذكرياتي، ينتفض، ويدفس يده تحت الوسادة (أعلم أنه دائماً ما يحتفظ بسلاحه تحت الوسادة). لا أعجز عن شل حركته قبل أن يفعلها،

لكني أتركه وأنا مدركة أنه لا يستطيع قتلي، هذه اللحظة لا يرقى الإدراك فيها إلى اليقين التام، تفهم طبيعة البشر ليس مبرراً كافياً يجعل المرء يعرض حياته للخطر. ثمة شيء لا أفهمه ثبتني على موقفي، ربما نظرة غضب مصطنعة رأيتها في عينيه، ربما رعشة يده وهو يتناول خنجره.. بلى، مازال يميل لاستعمال الخنجر رغم كل ما لقنته إياه عن الأسلحة السوداء. يرفعني عن الأرض بيد واحدة ويلصق جسدي بالحائط، ويده الأخرى تطوق رقبتي بالخنجر، وما هي إلا سحبة واحدة وينتهى العمر في لحظة، ضاعت كل فرصة لي في النجاة، جسده الملتصق بجسدي يضغط بثقله على عظامي، يقول:

- جيتي لقدرك يا وسخة.

عيناه تقول شيئًا آخر، أنصت للغتها المغلفة بالرمص فأسمعها تقول: "طالما تمنيتك".. مجنون يظهر عكس ما يبطن، روحي معلقة بلحظة تهور.. !

أتذكر، ماتت أمي.

أتذكر، دفعتني المقادير في حضن أبي الذي أنكرني قبل أن يكتمل تكويني.

أتذكر، دفعت أبي في حضن السجن بعدما استحسن المأمور وشايتي وأطعمني خبزاً وإشفاقاً.

أتذكر، حادثة تحرش أنهكت روح الصبية التي لم تبلغ عامها العاشر.

أتذكر، أطعمت المأمور الشبق كما أطعمني.

أسعى لتبرير موقفي وأنا أزدرد ريقي بصعوبة، فلا يصدقني.. للمرة الثانية تكذب عيناه لسانه.. أستميله إليّ، فيظهر غلظةً وعداءً. تشتد قبضته على الخنجر، فيضغط بنصله على رقبتي، متهور، مجنون، غبي، غضبه أعمي، ولي سلاح أخير لا يقدر على الصمود أمامه، أبكي، أستحضر الدموع بسرعة أذهلتني وكأنني صادقة في هذا، أقول:

- أقتلني لو فعلاً مصدق أني ممكن أبيعك، أنا طول عمري حاسه أني هموت مقتولة.. وأنا أموت على أيدك ولا أشوف نظرة شك فـ عنيك، يا مولانا دا أنت

حب عمري اللي أنا مستحملش الدنيا لحظة واحدة من غيره.
تراخت أعصابه، حدق بي مأخوذاً بما سمع.. اختيار غير موفق للكلمات، تعبير عن الحب بطريقة عتيقة ذائفة وسخيفة لا يتفاعل معها بغل، وانهار أمامها مولانا !.. علق التعبير بأذنيه فكرره ساهماً بعدما ترك الخنجر يسقط من يده: "حب عمرك"؟!.. فكررتها على مسامعه مصحوبة بجرعة مكثفة من كلمات العشق.
ترك جسده يسقط على المقعد الوحيد بالغرفة. وارتعشت شفتاه وهو يقول:
- عشت عمري كله مستني اسمعها منك.
قلت له إنه ما منعني عن التفوه بها إلا إيماني بأن الحب ضعف، قلت له أنني كتمت حبه في قلبي لأني أبغض أن أظهر ضعفي. فنفي قولي بثقة طفولية، وضرب بنفسه المثل وكأنه نموذج يحتزى به:
- أنا بحبك.. وعمري ما حسيت أني ضعيف.
فأر هرع إلى قطعة جبن، الجبن معلق في مسمار، والمسمار يتدلى من مصيدة كتبت على جوانبها آيات موته. لا نجاة له من مصير سعى - هو - إليه بعقل مغيب. فارق مقعده، دنا مني، يلصق جسدي بالحائط مرة أخرى.. الغاية الثانية غير الغاية الأولى. لكل قول برهان، وقولي برهانه علقم.
يقبلني. يغتصب شفتيّ اغتصاباً، يمتصها بكل ما حمل في قلبه من رغبة وكأنه أقسم ألا يتركها إلا وهي ذابلة.. رائحة فمه أسوأ من رائحة قبر. يعتصر الشفة السفلى، ويلتهم الشفة العليا. تصطك أسنانه المتسخة بأسناني كأي مراهق جاهل بفن التقبيل. يمزج لعابه بلعابي، فأشعر برغبة في الاستفراغ. يمتص لساني فأدفعه في صدره.. لم استطع أن أتحمل أكثر من هذا.. تنفست بصعوبة، قلت: "تعبت". إن كان للعشق المزعوم ضريبة فهذه أسوأ ضريبة دفعتها في حياتي.
نجلس متقابلين، هو على المقعد، وأنا على الأرض أستند بظهري على جانب السرير. أحاول أن أتناسى قذارة قبلته فيزداد شعوري بالغثيان. أستجمع قواي المنهكة، مثلي كمثل عذراء تعرضت منذ لحظات للاغتصاب من عشرة رجال

أشداء. هذا هو الحال حين تصبح قبلة واحدة - مجرد قبلة واحدة - أسوأ من الموت ذبحاً. وأراه يسبح في عالمه الزائف، يقرر:

- إحنا لازم نهرب.

أجتذبه نحو غايتي. أقول أننا لا نستطيع أن نهرب من قدرنا، ضباط الجهاز، أولاد الغجر، أصحاب المعلية.

- عملية؟!.. هو لسه في عملية؟؟

أولاد الغجر، لغم زرعته بين هضبتين، فتجاوزه إلى ما يعنيه.. وهذا جيد. أقول:

- الموضوع كبير أوي يا مولانا.. دول ناس من برا مصر، وهددوني لو أنا عرفتك حاجة أكتر من اللي هما عاوزينك تعرفه هيقتلوني ويقتلوك.

يستوضح الأمر فأحكي له حكاية مختلقة عن الخليجيين، أقول أنهما يعملا كوسيطين بيني وبين جهة أجنبية لا أعرفها، يتحمس، يمسك خنجره ويرمق النصل بعين شرهة. يحرضني على التخلص منهما، ليت كل فئران العالم تهرع إلى مصائدها بنفس السهولة والسرعة.. أحضر جهاز الـ Lap من السيارة، وأفعل برنامج كشف العنوان عن طريق رقم الهاتف، وهو على اتصال مباشر بهاتفي، مما يعني أنني لن أستطيع كشف عنوان الخليجيان إلا عبر تواصل هاتفي مستمر لمدة ربع ساعة تقريباً. أوضح هذا لمولانا، فيطلب مني تكرار ما قلته، فأندم على محاولة التعامل معه بصورة آدمية، ثم أجري مكالمة مع نواف، وأعطي للبرنامج أمر بالبحث عن مكانه، فيبدأ إشارة التحميل.. أشير لمولانا بإصبعي أن يبلغني حين يكتمل التحميل.. ألمح في عينيه نظرة غيرة تكاد تفتك بيّ، فأهدئ من وتيرة الغنج خوفاً من عاقبة تهوره.. قليلاً من الوقت مر قبل أن يكور يده ويرفع إبهامه بعلامة الإنتصار معلناً نجاح البرنامج في تحديد الموقع، أخرج بلا سلاح، ويدفس هو خنجره تحت حزام خصره. أطلب منه أن يأخذ المسدس وكاتم الصوت، فهذا أضمن وأسرع.. يأخذه وهو يبرم شفتيه غير مقتنع. أعرف أن خنجره لا يخطئ هدفه أبداً، لكن الوقت غير مناسب

لاستعراضات الدم.. ذهبنا إلى منزل الأخوين. أرتدي فستان ضيق يبرز مفاتني، وهو يرتدي جلباب حريري أسود ويلف رقبته بكوفية من نفس اللون ليتلثم بها في ساعة التنفيذ.. صعدنا إلى الطابق المقصود وضربت جرس الشقة، واختبأ هو في مكان المصعد المعطل. أتصلت برقم نواف، فتح الباب وهاتفه بيده، بدل عينيه بيني وبين هاتفه، حائرة نظراته لا يدري أيتركها تسبح في مفاتني أم ينشغل بالهاتف، لوحت بهاتفي أمام عينيه مما يعني أنني مصدر المكالمة، فغر فاه كمعتوه.. تجمد. تلعثم. أرحته بتأكيد حازم حمل من الغنج قدراً يثير شهوته:

- أها.. أنا نشوى.

قفز فرحاً، استقبلني بين ذراعيه وأغلق الباب. شقة بأثاث راقي، مهملة، لا شيء في مكانه، ولا أثر للنظافة في أي ركن من أركانها فبدت وكأنها صممت ذات يوم لتكون سكناً لثري أوروبي، ثم هجرها صاحبها فسكنتهما البهائم. ثرثرنا، وشربنا بضعة كؤوس من الويسكي محلي الصنع. وتخففت من ملابسي، فجالت أعينهما بلحمي، وتأملا ما ظهر لهما من نهديّ.. الرجال يرتدون قفاطين وسراويل فضفاضة رغم علمهم بأن هذا يفضح رغبتهم في ساعة الانتصاب !.. تأخر مولانا. سحبت نواف بيدي إلى غرفة النوم، في لحظة كنت واثقة أنه بلغ بها من الشبق مبلغاً يجعله يرافقني إلى آخر العالم وهو مسلوب الإرادة.. ليس بعد سحر الأنوثة سحر. خففت ملابسي، تمددت على السرير وأنا أرتدي Lingerie أبيض اللون بالكاد يغطي من فخذيّ نصفهما. هجم عليّ، نثر القبلات على رقبتي، شعرت بالاختناق.. أكره الغشيم كما أكره الغبي. أدفعه بعيداً عني، وأطلب منه أن يستحم لأكسب مزيداً من الوقت، لماذا تأخر مولانا؟!.. يخرج نواف من الغرفة وهو يتشمم رائحة إبطيه. أبحث عن سلاح مناسب. وطال بحثي حتى وجدت ماسورة حديدية طولها نصف متر، كانت ملقاة بإهمال تحت دولاب الملابس، ويبدو أنها كانت ذات يوم جزءًا من شيء ذي جدوى. دفنتها تحت الوسادة، وعدت إلى موضعي الأول على السرير

وأنا أسمع نواف يدنو من الغرفة، دخل وجسده مبلل بالماء، عارٍ إلا من سروال داخلي يستر عورته، جلس على السرير ومرر أنامله على ساقي الأقرب له. أحب الرجل الذي يستميل المرأة في ساعة الوطء، ولا أحب نواف.. أحب أن يقتل نواف وهو يدخلني، لا أعرف كيف أو لماذا خطرت على بالي هذه الفكرة، ولا أعرف إلى أي حد قد يصل سوء عاقبتها إذا ما دخل علينا مولانا فوجدنا متضاجعين. مولانا، مجنون سيقتحم الغرفة وفي يده مسدس، لم يكن يضيرني أن أسمح له باستخدام الخنجر. لم يطل تفكيري به كثيراً وأنامل نواف تزحف من ركبتي إلى فخذي. أغمضت عينيّ.. نواف، سمج ومقزز كلعاب كلب أجرب تدلى لسانه في ساعة سهو فنسى أن يعيده لمكانه. رغبتي في أن تنتزع روح أحدهم وهو يلجني تتزايد بصورة جنونية، رغبة مستعدة أن أحققها ثم أموت بعدها، فنسيت مولانا ورد فعله المحتمل. ركزت في رغبتي وصاحبها الذي استهدفته، وأغلب الظن أن الأمر يتعلق بالوقت لا بالشخص، فلو كان أمامي في هذا التوقيت أي شخص آخر كنت سأستهدفه دون تردد. لماذا؟ لا أعرف، فأنا أفتش عن دوافع الأمور عندما يتعلق الأمر بالعقل، وهذه المسألة ليست عقلانية بالمرة. تستقر أنامله بين فخذيّ، فأنقض عليه. أريح جسده على الفراش وأمتطيه. أقبله. بعضي يلاصق بعضه. لا أشعر بطعم قبلته، فما هي إلا وسيلة إثارة أبلغ بها مأربي. ينتصب كحجر فيزداد تهيجي. ويمد يده ليخلع عني قميصي، وأسمع وقع خطوات مولانا بالخارج يتبعه أنين مكتوم، أنفصل عن رغبتي، وأدفع نواف بكلمات أعلم أنها كفيلة بإبعاده عني:

- في صوت حد غريب برا.

حدق بي لثانية قبل أن يستوعب قولي ويقفز واقفاً، وتحرك ناحية الباب لكن مولانا كان أسرع منه، ملثم يحمل خنجراً يقطر دماً، قال بصوت أجش عندما سأله نواف عن هويته:

- نائب عزرائيل.

الخنجر يليق به، يناسبه، يمرره على رقبة نواف وهو غافل عني.. أسحب الماسورة من تحت الوسادة وأهوى بها على رأسه، هكذا يتمدد القاتل بجوار قتيله. أتصل بالشرطة: "لو سمحت أنا عاوزه أبلغ عن جريمة قتل".. هذه مكالمة لرقم الطوارئ وهم نادراً ما يهتمون، فأعقبتها بمكالمة أخرى (توصية خاصة). صديق من مديرية أمن الإسكندرية شكرني على حسن التعاون. أغادر المكان دون أن أترك أي أثر لوجودي. أتوجه لبيت أم أمينة، أقابل الصاوي وأخبره أنني تخلصت من مولانا وجاهزة للخطوة الثانية، التخلص من جو، فيناولني جريدة ويشير إلى عنوان صغير بصفحة الحوادث "شاب شاذ جنسياً يقتل عشيقه بعد أكتشافه لخيانته مع آخر".. مرفق مع الخبر صورة لجو مكتوب تحتها (القتيل)، وصورة أخرى لذاك الصبي الذي كان يعمل خادماً لمولانا، واتخذه هذا الأخير مساعداً له بالعملية، وكُتِب تحتها (القاتل). أكلت الأسطر بعينيّ، كاتب الخبر يؤكد أن الخلاف الذي دار بينهما كان بسبب ما أسماه القاتل خيانة، وهذا ما أكده خادم منزل القتيل الذي أنصت لحديثهما الأخير قبل أن يخرج القاتل مسدسه ويصيب صاحبه بطلقتين أستقرت أحدهما بقلبه وغاصت الثانية ببطنه، ووفقاً لتحريات المباحث أكد سكان العقار الذي يقتن به الضحية أن القاتل كان يتردد على بيت رفيقه مرتين أو ثلاثة مرات أسبوعياً، وفي بعض الأوقات لم يكن يغادر الضيف منزل مضيفه لأيام، وبدأت هذه الزيارات منذ ما يقرب من أربعة أعوام. طويت الجريدة، وألقيت بها جانباً، ثم نظرت للصاوي بعينين حائرتين. ما الذي يحدث؟ ما معنى هذا الكلام؟ خادم مولانا !. جو !.. الضربات تأتي من بؤر خارج كل الإحتمالات المعقولة، وهل أصدق ما قرأته، أم أن هناك ملابسات أخرى للحادث؟ هذا إن كان جو قد قُتِل حقاً.

- حاجة تمخول الدماغ، مش كده؟.. ع العموم أنا خليت العيال يجيبوا لك خدام المرحوم، هتلاقيه متلقح عندك جوه.. مرديتش أخليهم ينطقوه، قولت أسيبهولك تتسلي عليه بمعرفتك.

فتحت النافذة المطلة على الشارع الجانبي، وأشرت للشباب الواقفين على ناصية الطريق، فصعدا إلى البيت تباعاً، وطلبت منهم إحضار الخادم.. وإثر خروجهم من الغرفة أشعلت سيجارة واستدرت إلى الصاوي فوجدته يسعل بشدة، ثم أخرج منديله القماش من جيبه وبصق فيه، ثم طواه بسرعة، ولكني لاحظت أنه ما بصق إلا دماً، ففزعت وسألته عما أصابه.. قال إنها وعكة صحية بسيطة، وطوى الحديث منتقلاً إلى غيره، لكن قلبي حدثني بأن المسألة ليست بسيطة كما يزعم، فرفضت أن أنتقل إلى حديث آخر قبل أن يعدني بأن يذهب للطبيب، أعلم أنه لا يحب الأطباء.. ولكن مرضه الملحوظ هذه المرة لا يقبل التسويف، أنتزعت منه وعداً بزيارة الطبيب في أقرب وقت ممكن، ثم عدنا لحديثنا الأول.. طلبت منه أن يتكفل باستنطاق الخادم، إذ إنني لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالقيام بعمل كهذا، وهو عادةً ما يقوم بمثل هذه الأمور دون مجهود يذكر.. دخلت أم أمينة بصينية الطعام، فوضعتها أمامه (طبق لحم مسلوق، وشُربة، وفتة أرز، وسلطات، وطبق مخلل).. وغادرت المرأة الغرفة في نفس اللحظة التي دخل فيها أحد الشباب يطلب الإذن من الكبير لإدخال الرجل المطلوب، فأذن له وهو يشمر ذراعيه ويبدأ في تناول طعامه. دخل الرجل وأشار الصاوي للشباب أن ينتظروا في الخارج. هو رجل صعيدي معمم، لم تؤثر المدينة في شكله ولا مظهره، أشار له الصاوي بأن يجلس إلى الطعام، فلم ينبس الرجل بكلمة، جسده يرتجف رغم أنه يحاول أن يبدو متماسكاً، يدور بعينيه في الحجرة ويثبتها عليّ أكثر من مرة. يتخلى الصاوي عن لهجته القاهرية وينطق بلسان جنوبي لم أسمعه ينطق به إلا حين يشتد غضبه أو حين يحدث جنوبي يستميله إليه:

- ما قولت مد يدك.. عاوزني أتحايل عليك ولا أيه؟

يجلس الرجل، ويمد يد مرتعشة، فيقضم الصاوي قطعة لحم ويتحدث وهو يمضغها:

- كُل وأملى بطنك يا أبو عمو.. ولو مشبعتش نجيب لك تاني، الوكل كتير.. كتير قوي.

ثم يضحك ويردف:

- دا أنا حتى ممكن أجزر لك رقبة عيل م العيال اللي واقفين برا دول..

يتوقف الرجل عن المضغ، فيضحك الصاوي بشدة، ويقول:

- متخافِش، دا لحم جديان مهواش لحم بني آدمين..

الرجل يبتسم ابتسامة مضطربة، فيغير الصاوي لهجته.

- أنا عندي مزرعة بهايم.. أصل أنا مبيلدش عليا غير وكل اللحم اللي مربيه على يدي وخابر زين أصله وفصله.. أصلك منتاش خابر، لحم الجديان ده متحطوش فـ خشمك غير لو الجدي من دول مخصي، نقوم إحنا بقى بنعملوا أيه؟.. قولت أيــه؟

يبتسم الرجل وقد بدأ خوفه يغادره، ويقول:

- أيه؟

- أول ما الجدي من دول يتم سبوع وهو لسه حتة ولدة صغيرة قد أكده بنقوم خاصيينه.. يقوم بقى لحمه يزيد، وشحمه يقل، ويبقى زي الفحل زيك أكده..

ثم تتسع ابتسامته، ويقبض على جلباب الرجل بيده، فينتزعه من مكانه ويقرب وجهه منه.

- بيقولوا الخولات مبيشغلوش عنديهم غير مخصيين يا إما خولات زييهم.. اختار لك واحدة تتعايق بيها.

يتلعثم الرجل، ويرتسم الذعر الأول على وجهه بصورة مضاعفة.

- أنا مليش صالح بالحكيوة دي.

- الواد قتل سيده ليه؟

- أنا قولت كل اللي أعرفه في النيابة.

يحرره، ويدفعه في صدره ليعيده إلى مكانه.. ثم يصيح طالباً الشباب الواقفين

بالخارج، فيدخلون تباعاً.. ويصدر إليهم أمراً حازماً:
- اخصوه.
يطرحون الرجل أرضاً، فيحاول أن يتملص من بين أيديهم، ويصرخ.. ثم يرفعوا ساقيه، وينزعوا سرواله الداخلي، وهو يردد:
- هقول.. هقول.. هقول يا أبوي.. وأيمنات ربنا لاقول.
فيشير لهم الصاوي أن يبتعدوا عنه، فيحكي الرجل كل ما يعرفه، يقول إنه سمع جورج في يوم الحادث يدير المفتاح بالباب بوقت متأخر من الليل، فخرج من غرفته ليسأله إن كان يود أن يحضر له العشاء، فوصل صوت مخدومه لمسامعه وهو يهاتف شخصًا اسمه حسن، ويطلب منه أن يلتزم بموعد فتح (مقبرة)، كان يحدثه بصفة ضابط، وبدا على صوته أنه يفاوض محدثه في أمر يرفض الآخر تحقيقه، أمر يتعلق بمقبرة أقسم الخادم أنه لم يسمع عنها من قبل، وأكمل حديثه بإشارة من يد الصاوي، فقال إن رفيقه علي الشهير بـ (لوللا) وصل إلى البيت قبله بدقائق ودخل إلى الحمام، فخرج لابساً روبه بعدما أنهى صاحبه المكالمة، فنظر إليه جورج، ولم يفاجأ بوجوده.. ولم يكن قد فاق من أثر المكالمة بعد، فسأله لولا: "مالك مرتبك ليه"؟، قال: "أبداً.. أنا بس مش قادر أصدق أن مارينا سلمت مولانا كده بالرخيص".. فقال له: "ولا أنا قادر أصدق اللي حصل معايا.. تخيل.. بابا كلمني النهاردة، كان زعلان منك خالص، وقال لي: يرضيك يا علي أن جو يكشف العملية لحسن عشان ينتقم من مارينا؟.. هو أنت صحيح كشفت العملية لحسن؟" هنا استوقفه الصاوي، وسأله عن (بابا)، فأقسم الرجل بشرفه أنه لا يعرف عنه شيئا، وكاد أن يستنطقه بالقوة لولا أني أشرت له إشارة فهم منها أنني أعرف ما يعنيه، فطلب منه أن يكمل.. قال الخادم إن طريقة علي أغضبت سيده، فنهره بشدة، إلا أن علي أكمل وكأنه لا يسمعه: "هو سألني: يرضيك ده؟.. وأنا الصراحة قلت له: لا طبعاً ميرضنيش. فهو قال لي: جورج لازم يموت يا علي، وأنت هتبقى الراجل بتاعنا في اسكندرية من

بعده".. وأكمل الخادم حديثه، فقال إن زاوية الرؤية كانت تسمح له بأن يرى علي وهو يتراجع للخلف بضعة خطوات ويخرج مسدساً من تحت أحد المقاعد، بينما كان جورج ينظر للتلفاز، ويضحك بسخرية ويسأله: "ومين دا بقى اللي هيموتني يا تكاية؟" لكنه حين استدار له، ورأي المسدس في يده أنتفض مزعوراً، وحاول أن يستوقفه، لكن رصاصتين خرجتا من فوهة المسدس فسبقتا لسانه، وتكفلتان بإسكته إلى الأبد.. وعلق الرجل على ما حدث بعد هذا مستغرباً تصرف علي، إذ أنه رآه يلقي بنفسه على جثة جورج ويبكي، ويطلب منه أن يسامحه !.. وسكت الرجل، وأنهى الصاوي تناول طعامه، ثم أمره بالعودة إلى بيته، ووقف الرجل حائراً لبعض الوقت وكأنه لا يصدق نفسه، ثم فاق لنفسه وتحرك ليغادر الغرفة فاستوقفه الصاوي بكلمات خشنة:

- أسمع.. كل اللي شوفته وقولته أنساه قبل ما رجلك تخطي برا عتبة الأوضة دي، لأنك لو قلته لغيري.. هتشوفني التاني، والمرة الجاية ملكش عندي شفاعة.

فحرك الرجل رأسه، وتمتم بكلمات لم أستبنها.. ثم رحل.. قلت:

- جورج كلم حسن؟!

قال:

- إحنا هنحفر المقبرة.. وبيوت الهناجرة أولى بمال الصهاينة.

أشعر بكف غليظة تستقر على كتفي، أستدير فأجد الهلب يضمني إليه وهو يبتسم، ثم يحدث صاحبه:

- قالوا لي أنك واخد على خاطرك مني.

- مش وقت عتاب، ساعة الحساب جاية متستعجلش على رزقك.. دلوقتي جهز رجالتك، وأطلع على أبو قير.

انتهى دوري، تركت رجال الهلب يجهزون عدة الحفر.. وذهبت إلى حجرة أم أمينة.. طلبت منها برشامة منومة. جسدي يتفكك، الأحداث تتزاحم بعقلي. متعبة كأني أمشي منذ ولدت على أشواك مبعثرة بكل درب وطأته قدماي. حافية،

عارية، ضائعة، مستهلكة.. خلقت لأشقى، وما لشقائي مثيل.. البرشامة تضعني بين الصحو والنعاس، تؤرجحني بين الهزيان والحقائق الملموسة.. وجه أم أمينة، يدها الطيبة تجفف عرقي. عيناي تنسكبان على صدري. جفناي يرتخيان كستار أسود.. بقعة نور تجاهد لكي تصل إلى مأربها، ولا سبيل تسلكه وسط اللاشيء واللاوعي والجلابيب الحريرية السوداء.. أجساد سمينة تقطع بخناجرها شرايين العدم، مولانا يتكرر ويتكاثر، يصبح عشرات الرجال، بل يصبح مئات الرجال.. يزاحمهم حسن، يتقدم نحوي وهو يحمل في يديه وردة حمراء وعلبة قطيفة، يفتح العلبة، ويركع على قدمه، تخرج من العلبة خفافيش تنهش لحم وجهي.. فأهرع نحو باب موصد لا يُفتح، أطرقه بكل ما أوتيت من قوة، فيخرج منه الصاوي بجلباب رمادي، ينظر لي بعدائية غريبة، ويدفعني نحو رجال يقودهم سوستة، ويأمرهم بحسم: "أخصوها" !.. ينقضون عليّ، وأصرخ، يتبددون مع الهواء.. أركض حتى يكاد قلبي أن يتوقف. تتكون الجدران حولي، تحاصرني.. أسمع ضحكة يتردد صداها في أذني فيصيبني صداع لا قدرة لي على تحمله. ألتفت خلفي فأرى الهلب فاتحاً ذراعيه متأهباً لضمي، فأركض مبتعدة عنه، وأنا أراه يلوح بذراعه الأيمن عالياً ويقول بعلو صوته: "حارسينك وحاميينك". تمتد يد، وتجذبني من ذراعي، فألتفت لصاحبها، أجد مولانا يدنو من فمي بشفتيه وهو يقول: "حب عمرك"، أصرخ وأقول: "لأ".. أحاول أن أخلص نفسي منه فلا أفلح، تتبدل اليد بأخرى أصغر حجماً وأشد قسوة، أنظر إلى الوجه فأراه قد تبدل إلى وجه ليندا، تحررني وهي تقول ساخرة: "امرأة.. ستحرق وجه العالم".. أصرخ، أركض، ويزداد صراخي، أركض.. وأفتح عيني على صوت أم أمينة وهي تربت على جبهتي وتتمتم بآيات قرآنية. أرمقها بذعر، ثم أدفعها بعيداً عني.. وأدير عينيّ بالغرفة، فأدرك أن ما رأيته لم يكن أكثر من كابوس، فأتنفس الصعداء.. وأترك جسدي يتراخى على السرير مرة أخرى، فلا أكاد أسترخي حتى يدخل علينا الهلب وهو مبتسم، ثم يقول:

- أيــه، متصحي النوم.. حد ينام يوم بحاله؟!

يوم بحاله !!.. أنظر لساعة هاتفي فأجدها السابعة مساءً بينما أتذكر بصعوبة أنني خلدت إلى النوم في السادسة مساءً. يوم، أم ساعة؟.. ضحكت أم أمينة، وأكدت أنني نمت خمسًا وعشرين ساعة بالتمام والكمال !.. يقول الهلب إن الصاوي سينتظرني في العاشرة تماماً بكافيتريا السلسلة المطلة على البحر بمنطقة الشاطبي. سألته إن كان قد أتم مهمته، فأكد أن الآثار بحوزتنا. تحركت ناحية الحمام وأنا أتذكر تفاصيل الكابوس.

بعدما بدلت ملابسي، دخلت عليّ كراملة. صافحتني فمددت إليها يداً باردة، وسلمتها أفكاري المشتتة.

- أنتي الوحيدة اللي هتقدر تجاوبني.. اللي إحنا عملناه صح ولا غلط؟

- تفتكري الصاوي ممكن يعمل حاجة غلط؟

تساؤلها ونظرتها يحملان من اللوم أكثر مما يحملان من الاستفسار، فقلت:

- إحنا بينا وبين كل حصوة في الأرض عداوة، بس كان بينا وبين اليهود مصلحة.

- الدنيا بتتغير.. وإحنا معدناش محتاجين لهم، بصي حوليكي.. النظام بيدمر نفسه بنفسه، كل يوم خصومات جديدة، وعداوات مبتنتهيش..

ثم تضع يدها على كتفي وتنظر بعينيّ وهي تقول بثقة العالم بخبايا الأمور:

- مارينا.. الأثار دي كنز أعظم من أموال قارون. الآثار دي جزء مفقود من التاريخ، وإحنا زرعنا شيطاني، ملناش تاريخ.. فهماني؟

دائماً ما تنجح كراملة في منطقة الأمور، وجودها بحياتي ضروري.. بدونها تتبعثر المفاهيم بعقلي. أسألها إن كانت ستأتي معي للقاء أبيها. فتقول إنها بحاجة للنوم، لأنها ستذهب في الصباح الباكر لزيارة سوستة بالمصحة.. مصحة !.. تمط شفتيها وتقول إن الهلب حجزه بمصحة لعلاج الإدمان، لا أشعر بأنها مستاءة حقاً.. بل على العكس يخيل إلي أنها سعيدة بهذا. أستقل سيارتي حتى لا

أتأخر على الموعد.. كورنيش البحر مزدحم، والسيارات تتحرك بصعوبة وكأن الحياة قد جمدت فجأة.. يستغرق الطريق وقتاً ضعف الذي حسبته، لم يتبقى كثير على موعدي، وزحفت السيارة ببطء حتى وصلت إلى سيدي جابر، فوجدت المتظاهرين يقطعون طريق البحر، وكان عليّ أن أعود من الطريق المعاكس ككل السيارات التي سبقتني، فاضطررت أن أسلك طريقاً آخر أكثر صعوبة، حتى وصلت إلى السلسلة بعد معاناة مع الشوارع الضيقة.. وجدته يرتدي جلبابًا أبيض، ويلف جسده بعباءة من نفس اللون، كعريس في ليلة زفافه.. الكافيتريا محاطة بالأولاد المسلحين، مقاعدها خاوية.. حجز الصاوي المكان كعادته إذا أحب أن يخرج لمكان عام يبذل كل ما في وسعه ليجعله خاصًا، دائماً لا يأمن شر الزحام، في رأيه أن معظم الشرور تأتي من مخالطة المرء لأناس لا يعرفهم ولا يستطيع أن يمنحهم ثقته.. نتصافح، وأجلس.. يخبرني أن الأصدقاء الثلاثة قد تم القبض عليهم بتهمة الاتجار بالمخدرات، حيث إنه حين أخذ من المقبرة محتوياتها ترك بها كمية حشيش تكفي لإلصاق تهمة الاتجار بهم، ثم أبلغ عنهم أصدقاءه بمباحث المخدرات. دق قلبي بعنف، وسألته:

- كان لازم تضيع مستقبلهم؟

- العيال دي لو مكانتش أتسكّنت كانوا هيفضلوا ينخوروا وراكي.

أتنهد، فيسعل ويسألني:

- مالك؟

يسألني عن حالي وهو عالم بما يستحوذ على تفكيري وأخجل من التصريح به، فأقول:

- مفيش.

يسعل بشدة، ويخرج منديله ليبصق به.. منديله الذي غير الدم لونه.

- أنت بردو مش عاوز تروح للدكتور؟

- روحت.

- وقال لك أيه؟
- قال لي: عندك سرطان فـ الرئة.
يقولها باستهانة، وكأنه يتحدث عن الإنفلونزا الموسمية !.. أطل بعينيه، وأقول بتصميم:
- هتتعالج.
يضحك ويقول:
- أتعالج ليه؟ عشان أعيش يعني؟.. متخافيش، أنا مش هموت غير لما أزهق م الدنيا.
أهرب من نظرة عينيه، وأتأمل ماء البحر.. في هذه اللحظة بالتحديد أستطيع أن أكشف ما يدور برأسه. هذه النظرة الذابلة، عينان تحبسان بمقلتيهما دموعاً ورغبة في الانسكاب بماء البحر، فكأنهما ينشدان الخلاص، كأنهما لمحارب قديم يخلع سترته الحربية ويرمي بسيفه ودرعه على باب مدينته الحصينة، لكن الذي مثله - وليس كمثله أحد - لا ينهار كفرد، هو عائلة متمثلة في جسد يأكله الشيب والمرض بلا رحمة.
- ليندا ماتت النهاردة الصبح.
ما لهذا الموت يبدو كجبار يرج الأرض بكل ما أوتي من قوة غاشمة. طالما أطعمناه من أرواح خصومنا فلا هو صاحبنا ولا ترفق بنا..
- تفتكر هيعدموهم؟
- هما مين؟
- لا مفيش.
أتجاوز بعينيّ صفحة الماء الراكد إلى خط الأفق الذي يتستر على المجهول...

لمست

إصدارات دار بنت الزيات
للنشر والتوزيع

١- ختم خروج | شعر | شادي حسن

٢- دستور الحاجات | شعر | عبد الله صبري

٣- عود ريحان | شعر | حمادة تمام

٤- ديوان الغلابة | شعر | مجموعة من الكُتّاب المغتربين

٥- ديوان الغلابة ج٣| شعر | مجموعة من الكُتّاب المغتربين

٦- سألتُك بالذي أنّ | شعر | الباشا عبد الباسط

٧- تفاصيل روح | شعر | أحمد جمال إسماعيل

٨- مشاعر خارج النص | رواية | شاهندة الزيات

٩- ميفيستوبيليس | رواية | محمود شحاتة

١٠- قصص الإيمان بالستة أركان | قصص أطفال | فاطمة محمود

١١- مطر طالع لفوق |الأعمال الأدبية الفائزة بمسابقة دار بنت الزيات.

١٢- خواطر أحاسيس مرمرية | مروة محمد الجزار.

١٣- ديوان مادة خام | مجموعة من المواهب.

١٤- أنتيكا | إصدار جماعي لفريق أنتيكا الأدبي.

١٥- روائع عمر | يسري أبو القاسم.

١٦- شغل صهاينة | عمرو عيسى.

١٧- ضحكة خام كتاب تلوين

١٨- كأس قزح | رواية | إبراهيم أبو السعود.

١٩- الإسقاط النجمي | بحث علمي | محمود أشرف.

٢٠- كوتشينة | شعر | محمد حنفي.

٢١- راحل إلى القمر | شعر | أشرف شبانة.

٢٢- حقيقة فحلم | شعر | مجموعة من الشعراء.

٢٣- استدعاء شيطاني | رواية | أسماء أبو العطا.

٢٤- ليلوفوبيا | شعر | رؤوف محمد.

٢٥- ورتل القرءان مع شرح تحفة الأطفال | عمرو السواح.

٢٦- مادة خام | شعر | مجموعة من الشعراء.

٢٧- دلال | رواية | نجدي عبد الموجود.

٢٨- خلاصة القول في كبسولة | شعر | طلعت سالم.

٢٩- لقاء العاشقين | رواية | محمد صبحي.

٣٠- بين الأنا والذات | شعر | طارق خلف.

٣١- الكوكب المصري ونهاية العالم | مجموعة روايات | إسلام ديوان.

٣٢- انحناءة المساء | مجموعة قصصية | محمد الكردينى.

٣٣- مشاعر خارج النص | رواية | د. شاهندة الزيات.

📖 أين تجد إصدارتنا:

- **القاهرة:**

📖المقر: المهندسين ١٠ شارع سنار المتفرع من أحمد عرابي.

📖مكتبة عمر بوك ستور: طلعت حرب أعلى مطعم فلفلة.

📖مكتبة ليلي، وسط البلد.

- **الإسكندرية:**

📖مكتبة المعرض الإسلامي: ١ ش كلية الطب – محطة الرمل.

📖مكتبة المستقبل: ٣٢ ش صفية زغلول – محطة الرمل.

📖مكتبة مايو: ميدان محطة الرمل.

- **الزقازيق:**

📖مكتبة الشافعى: ٩ شارع نعيم متفرع من شارع المكاتب الفرع الرئيس.

📖مكتبة الفيروز: شارع القومية. بجوار المصرية بلازا.

-

المنصورة:

📖المكتبه العصرية: المشاية بجوار فندق مارشال.

📖 بيت القصيد: بجوار القرية الأولمبية.

- **دمياط:**

📖مكتبة ألفا بيتيكا: بجوار صيدلية الأمل.

- **طنطا:**

📖مكتبة برة الصندوق: شارع سعيد بجوار صيدلية خليل.

- **المحلة:**

📖مكتبة إدراك: شكري القوتلي – خلف البنك الأهلي الجديد.

- **الفيوم:**

📖كريتيف بوك ستور.

- **الزقازيق:**

📖مكتبة دار المعارف بمحطة مصر.

📖 وتجدونها أيضًا:

في جميع مكتبات توزيع وتسويق ومنافذ

«أخبار اليوم»

في جميع محافظات جمهورية مصر العربية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم /49351
الجيزة دائري - نزلة شارع القومية العربية - برج النور - الدور ٨

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk
Tel.:.1066736765
.1227996423